facebook page: samehmabroukwriter

زرادشت

نبي أهل النار

مبروك

زرادوست
نبيّ أهل النار

الكاتب: سامح مبروك
تدقيق لغوي: مارلين سعادة
تصميم الغلاف: أحمد عاطف (شيكو)
الطبعة الأولى: أكتوبر ٢٠٢٠
رقم الإيداع: ٢٠٢٠/١٧٥٤٥
ISBN: 978-977-798-199-6

جميع الحقوق محفوظة للكاتب.

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية، ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة أو استخدام أي وسيلة نشر أخرى، بما في ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذن خطي من صاحب حقوق الملكية.

www.samehmabrouk.com

الإهـــداء

إلى عقولٍ تائهةٍ أرهقها البحثُ عن تِرْياقٍ لسَمٍّ

في العروق سارِح،

إلى قلوبٍ داميةٍ جريحةٍ كاد ينفُذُ منها النَّبضُ

في انتظار الطّبيبِ الفالح،

إلى أرواحٍ أسيرةٍ مكبَّلةٍ حبيسةِ سجن الشكِّ

تترقَّب وصولَ المُخَلِّص الفاتح.

تمهيد

إله واحد، دين واحد، رسالة واحدة، شيطان واحد.

لطالما كان التّاريخُ مرآةَ الحضارة الإنسانيّة المرتكِزة بشكل أساسيّ على الدِّيانات والرِّسالات السماويّة التي تمثّل العمود الفقري لهذه الحضارة، بحيث تراصَّت الفقرات واللّبنات الواحدة فوق الأخرى، مشكّلة هذا الإرث الذي أثرى التجربة البشريّة بتنوُّعِه وفرادة كلِّ لَبِنَة فيه؛ وفي الوقت ذاته أثبت التّكرار والتّشابه ما بين فقراته وحدة التّجربة ووحدانيّة المصدر.

واِندلعَتْ شرارةُ الحرب الضّروس التي لا تكادُ تهدأُ نيرانُها حتّى تستعرَ من جديد، اندلعت يومَ خلَقَ المبدعُ الحكيمُ آدمَ من طين، واستكبرَ أن يسجدَ لعظيم خلق البارئ، إبليسُ اللّعين. ثمّ كانت الخطيئةُ الأولى يومَ أُخرج آدمَ وزوجه من الجنّة، فصارت أرضُنا هذه ساحةَ حربٍ مفتوحة ما بين أبناء الطّين وأعدائهم الشّياطين.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

حربٌ مهما توالت فصولُها، وتغيّرت شخوصُها، وتبدّلت أطرافُها، وتتابعَت أماكنُها وأزمانُها، تظلُّ سُنّةُ الخالق التي نفخها فيها، ثابتةً ظاهرة جليّة. فكلّما اكتوى الإنسانُ بنار خطيئتِه من جديد وضلَّ الطّريق، أرسَلَ الحقُّ رُسُلَه وأنبياءَه حاملين لواءه، فيما يؤيِّدُهم بآياته، ويُنزِلُ عليهم كلماتِه، ليُحِقَّ الحقَّ ويَدحضَ الباطل، ويُلملمَ شملَ عبادِه وأتباعِه تحت رايتِه.

تعاقبَتِ الفصولُ على مرِّ السنين، وتوالَتِ الأحداثُ، وتشابهَتْ في كثير من الأحيان، وقد أتى -من بين تلك الفصول العديدة- ذكرُ المجوس في القرآن الكريم (الآية ١٧ من سورة الحج)، وفي العهد الجديد (إنجيل متى إصحاح ٢)، وهنا بين دَفّتي هذا الكتاب، نستوحي من قصَّتِهم التي سطرها الإنسان بحروف بارزة في تاريخه العتيق، أحداثًا تُرسِّخُ ذلك الإرثَ الإنسانيّ العظيم، وتَرسمُ بدقّةٍ ملامحَ جولةٍ أو معركةٍ تاريخيّة من حربٍ شكَّلَتْ تاريخَ البشريّة.

وبما أنّ البحثَ هو طريقُ المعرفة، والشّكَّ هو مفتاحُ الحقيقة، جاء هذا الكتاب ثمرةً للبحث، ومحاكاةً أدبيّةً لقصّةٍ فريدةٍ في بعض جوانبها، مكرَّرَة متشابهة في جوانبَ أخرى؛ قصّةٌ أهالَ الزّمنُ فوقَ أحداثِها التُّراب، وها نحن اليوم نحاولُ أن ننفضَهُ عنها ونُخرجَها إلى النّور من جديد.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

وهذا الكتاب ما هو إلّا فصلٌ يحكي معاناةَ الإنسان وجهادَه في طريق العودة إلى الحقّ، ويفضحُ أفاعيلَ الشّيطان الهادفة إلى إغواء الإنسان حتّى يضلَّ عن الصِّراط المستقيم، وينكبَّ على وجهه في نارِ الحميم. وما ورد في هذا الكتاب من أحداث تتشابه مع أحداثٍ ومعاركَ أخرى، إنّما هو يرجعُ لوحدانيّة المصدر؛ وأمّا ما امتازَ به من تفرُّد واختلاف، فحكمتُه عند خالقِه، القائل في محكم كتابه:

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٧٨ ﴾ سورة غافر آية ٧٨

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

شخصيّات الرواية

أهورا مازدا : اِسم عَلَم للإله الخالق إله النّور عند الميديّين.

زرادوستار : أحد أسماء زرادشت النبيّ الحكيم عند الزرادشتيين.

أهريمان : اِسم علم للشيطان عند الميديّين.

بوراشاسب : والد زرادوستار أو زرادشت.

بوروزهازيو : اِسم والد زرادوستار أو زرادشت المستعار.

دوغدوما : والدة زرادوستار أو زرادشت.

دوران سرون : كبير كهنة النّار في المعبد الكبير في مدينة أتروباتين.

بورجين كورس: معلِّم زرادوستار، ولقبه غورو، تعني الشيخ الحكيم.

هانويه : زوجة زرادوستار.

فوهوما : الملاك رسول السّماء عند الميديّين.

ميتيوماه : اِبن عَمّ زرادوستار وأوّل المؤمنين برسالته.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

بنفدا : كبار رجال الدّين في المعبد الكبير في مدينة أتروباتين.

جريهما : كبار رجال الدّين في المعبد الكبير في مدينة أتروباتين.

هيستاسب : ملك وحاكم "إريانا فيجا" في مدينة "باختيريا" ٦٠٠ ق.م..

أيرينيس : إحدى جواري القصر (شخصيّة خياليّة).

ماندانه : إحدى جواري القصر (شخصيّة خياليّة).

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

(١) أهريمان

لِمَن المُلْكُ اليوم؟!!

أعلمُ أنّها جولةٌ في حربٍ ضروس بدأت ولم تضَعْ أوزارَها منذ أرْخَت سفنُ تلك الرّوح أشرعتها وحطَّت في الطّين. حربٌ كلّما طالت، طالتِ النارُ من الطّين. وأعلم أنَّ ليَ الغلبة في النهاية، ليس لأنّني أعرفُ المستقبل، ولكن لأنّني أصنعُه.

آن لي أن أزهوَ بنصري ولو إلى حين؛ وأيُّ نصرٍ بعدما خالطَتْ أنفاسُ الطّين اللّعين أديمَ الأرض، تعبُّدًا وخضوعًا لنار «أهريمان»؟!

أي «أهورا مازدا» البصير، ها قد خضعَتْ رؤوسُ الطِّين لألسنة النّار، النّار نفسها التي ستُكوى بها جباه الطّين بعد أن ترتحلَ سفنُ الرّوح عن شطئانه. ها قد صار «أهريمان» إلهًا معبودًا من دونِكَ، أو طرَفَ نقيضٍ لك، ويا لها من مَنْزِلة مُدّعاةٍ، لو يعلمون!

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

جولةٌ جديدةٌ تُرسي قواعدَ نصرٍ حتميٍّ في حربٍ فُرِض عليَّ أن أخوضَها في الطِّين ومع الطِّين، بعد أن أُنزِلْتُ من أعالي سماوات وجِنان النّعيم؛ حربٌ مَغْنَمي فيها أن يتجرَّعَ الطِّينُ الكأسَ ذاتَها، بأن أستدرجَهُ إلى نار الحميم.

مضت جولات عدّة، وستأتي بعدها جولاتٌ أكثر حدّة. أنا هنا اليوم بين طينٍ يطأ طيّانًا! أمّا الأوَّل فهو شعبٌ اجتمعَتْ قبائلُه السَّبعةُ والعشرون على أن يدعوا أنفسهم قومَ «ميديا»، وقد انحدروا من نسل طينٍ آخر يدعونه الجنسَ الآريّ، فهم «ميديّون» وفي الأصل «آريّون».

عجبًا لهم من مخلوقات! يدّعون الرُّقيَّ ويتفنَّنون في التشرذم استنادًا إلى فروقٍ مزعومةٍ واهية؛ وأيُّ فرق قد يميِّزُ طينًا عن طمْيٍ؟ أمّا ما يطأون من طين فهي أرض «إرْيانا فيجا»، حيث حطَّت ركابُ أهل «ميديا» بعد طول ارتحال؛ «إرْيانا فيجا» أوَّلُ وأجملُ ما صنع «أهورا مازدا» من طين، وأيُّ جمالٍ مزعومٍ قد يبوح به هذا الطِّين؟!!

هنا يملُك «أهريمان» الماضي، ويحكم الحاضر، ويصنع المستقبل. فهنا تُقدَّس وتُعبَد النار! وأنا «أهريمان» الإله، إله الظّلام، في حقبة تسبق معركةً كبرى ستدقُّ طبولُها قبلَ يوم ميلاد عدوٍّ لدود يسمّونه المسيح بـ ٦٠٠ عام؛ وإن تكن ٦٠٠٠ عام، ما لي وللأعوام وأنا الأزليُّ قبل خلق الإنسان، فهل يقاس الأزليُّ الدائمُ بمعايير الطّين الفاني؟!

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

«أهريمان» لا يخضعُ لحدودِ مكان أو زمان؛ أحكم الحاضر في «إرْيانا فيجا»، وسأبقى حين تستحيلُ أذربيجان وإيران؛ وفي مِصْرٍ آخر أنا الإله «ست»، وفي زمنٍ آخر أُدعى الشيطان لوسيفُر العظيم، وبعلزبول وعزازيل والوسواس وإبليس... قطراتٌ من غيثِ أسمائي، هكذا عرفني الإنسان!

«أهريمان» يصنعُ حدودَ الزّمان والمكان ليكويَ الطّينَ بالنار: نار الحرب، نار الفُرقة، نار الشَّوق، نار العشق، نار الشَّهوة... ليتهاوى الطّين في الدَّرَكِ الأسفل من نار الحميم.

ها أنا ذا أبوح بسلاحي الفريد: «النّار»! فأنا منها وهي منّي، وإليها يرجع منبتي، وإليها مستقرّي ومهجعي. رويتُ كِبْرَ البشر بنار الفُرقة ليكتووا بنار الحرب؛ أوقدتُ نار السُّلطة ليستعرَ جحيم الظُّلم؛ ألهبتُ نارَ الشَّهوة والعشق ليكتووا بنار الرَّذيلة.

نارُ الكِبْر والفُرقة المقدَّسة لا بُدَّ أن تبقى مشتعلةً؛ حطَبُها الطِّين، وزَيْتُها الدِّماء، وألسنتُها حربُ بني آدم.

«الكِبْر»، الخطيئة الأولى، الدّاء الذي هوَتْ أعراضُه بـ«أهريمان» من أعلى عليّين إلى أرض السّافلين، هو الدّاءُ ذاته الذي سيَهوي بالطّين إلى ذلِّ الجحيم.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

أرى بذرة الكِبْر تنبت وتنمو وتترعرع على ضفاف نهر «أكسوس»، وتشتعلُ نارُ الفُرقة لتوقدَ نارَ حربٍ ضروس، وَقودُها دماءُ أهل «ميديا» والطّورانيِّين؛ نارٌ تُعبَد فتَأكل «إريانا فيجا» وما حولها، لينتصرَ ويسودَ «أهريمان».

بميلاد شررِ حرب الميديّين والطُّورانيّين تُوأدُ فُرَص انتصار النّور، وتَغربُ شمس «أهورا مازدا»، ليسودَ الظَّلامُ وإلهُ الظَّلام.

نورٌ وظلام، إن هي إلّا أسماءٌ سمّاها ابنُ آدم ليبرِّرَ إخفاقَه وتبعيَّته العمياءَ لي، ليُبرزَ محدوديَّةَ قدراتِه وعجزَه؛ الظّلامُ الذي يُبرزُ ضَعفَه وخوفَه، ظلامٌ يُفقده بصرَه وبصيرتَه، ويفجِّر انسياقه الأعمى وتبعيَّته لـ«أهريمان»؛ إنّما هو ظلامُ روحِه وعقلِه وجهلِه، ظلامُ حقدِه وكِبره وشهوته. ولكنّي أنا النّور والنّار، نورٌ يُعمي بوهجه وحَرِّه عيونَ وألبابَ أتباعي من أهل الطّين الملاعين، ويُحيلُ ضياءَ حياتِهم ظلامًا وجحيمًا.

وليكنْ ظلامًا أو نورًا، فهي مجرَّد أسماء؛ «الأسماء»، تلك القشّة التي رجَّحت كفّة الطِّين على سكّان السّماء. فلينعمْ بأسمائه وأنعم بنصري واحتناكي جنسَه جيلًا بعد جيل.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

النّور، أهو نور النّار أم نور الحقّ؟ لأيّ نورٍ ستؤول قِبلة صلاتِكَ ومماتِكَ يا ابن الطّين؟ النّور! ما لي أرى النّورَ يشقُّ ظلمةَ قلوبِ وعقولِ «إريانا فيجا»؟! أعرفُ هذا النّور وأكاد أُميِّزُ مصدرَه، إنّه بيتُ «بوراشاسب» في بلدة «أَتْروباتين» على ضفاف بحيرة «أورميا» غرب «إريانا فيجا» مملكة الميديّين. ها هم أهلُ السّماء يتصايحون مستبشرين بميلاد نبيٍّ «أهورا مازدا» الجديد، يُشعُّ نور الحقِّ اليوم بميلاد «زرادوستار»، ولكنَّ نورَ النّار سيبقى وينتصر!

" لقد وُلد -يا حسرتاه- زرادشت الطّاهر في بيت "بوراشاسب" . كيف السَّبيل إلى هلاكه وموته؟ إنّه السّلاح الذي يضربنا بقوّة، إنّه مصيبتنا الكبرى، ستنزول من الأرض عبادة الشّياطين، سيختفي الكذب والزّور من بين النّاس."

"الأفِستا"

سأبقى... سأنتصر...

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

(٢) دوغدوما

"زرادوستار"، الوليدُ الضّاحك.

معجزةُ السّماء، نور الحقِّ الذي انبثق منّي ليَعُمَّ الضياءُ بيتي و«إريانا فيجا» وما حولها، ببشارة «أهورا مازدا» الخالق العظيم.

أحقًّا سيكون وليدي السّبيلَ لزوال الغُمَّة. هل سيكون النّورَ الذي يشقُّ غيماتِ الظَّلام التي أمطرَتْ زخّاتِ الظُّلم والعذاب على أهل «ميديا» لعقود؟

مُذ دبَّت جذورُ أهلِ «ميديا»، بعد ارتحالهم، في أرض الطائعين الخاضعين «إريانا فيجا»، منذ عدّة قرونٍ تقارب الأربعة، كانت راياتُ «أهورا مازدا» إله النّور والخالق العظيم تعلو قلوبَ وعقولَ العباد. كانت الأفضليّة للفضيلة، والفضلُ لصاحب الفضلِ والهباتِ «أهورا مازدا» العظيم. هباتٌ لا تقتصُر على نورٍ ونار وتراب وماء ورياح، بل تمتدُّ إلى فسيحِ الأرض والسماء.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

إلى أنِ اختلط ماءُ أهلِ «ميديا» الطّاهر بزيت الوثنيَّة الخبيث، وبدلًا من أن يُطفئَ ماءُ إيمانهم شررَ فِتَنِ «أهريمان» اللّعين، أشعلَ زيتُ الوثنيّةِ نارَ الحقدِ والغِلِّ والجشعِ والسُّلطةِ والفُرقةِ والظُّلم بين العباد في البلاد. واستحالتِ الهباتُ مقدَّساتٍ، والنِّعَمُ والمخلوقاتُ آلهةً تُعبَد! لا يتوقَّفُ العَجَب عند هذا الحدّ، بل يُمسي طريدُ السّماء إلهًا في حلبةٍ مزعومة، ينازعُ فيها الخالقَ العظيم في مُلكه! فبأيِّ حقٍّ يُسلَبُ خالقُ النورِ والظلامِ والماءِ والنار مُلكَه، ويُقسَمُ ملكوتُ السّماوات والأرض ظلمًا بين الخالقِ العظيم «أهورا مازدا»، فيصبحَ إلهَ النُّور، ومخلوقٍ عاصٍ اسمه «أهريمان»، فيُمسي إلهَ الظلام؟!

حادَ الناسُ عنِ الحقِّ فحادَ عنهمُ العدل، وعمَّت ظُلماتُ الظُّلم، واشتعلَتْ نار حرب الآلهة المفتراة، ومنها استوقدَ البشرُ في «ميديا» نارَ القهرِ والذُّلِّ والجوعِ الألم.

حين يَجتمعُ في رحًى واحدة، تدبيرُ السَّحرة والكهنة قَوّادي الدّين، من جهة، مع جشع أهل السُّلطان وبطاناتهم قوّادي السُّلطة والمال، من جهة أخرى، يُفْرَمُ بين شقَّيها المستضعَفون من أهل الأرض من دون وجهِ حقّ.

ثالوثُ الشرِّ عبرَ العصور، يُنفقُ المالَ ويُحرِّفُ الدّين، لتُغتَصَبَ السُّلطةُ والمُلْك.

أيستحيلُ ألمُ حاضرِنا أملًا بمستقبلٍ أفضل؟ أيكونُ لوليدي دورٌ في إعلاء رايات الحقّ؟ لعلَّه بزوغُ القمر حتّى يعكسَ نورَ «أهورا مازدا» العظيم

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

في الأرض، ويشقَّ ظلمات «أهريمان» اللّعين وأتباعه؛ لعلّه شمسٌ تَفلِقُ الأصباحَ في «ميديا» بعد أن استدامَ ليلُ الظُّلمِ لعقود!

غُرِسَت بذرةُ الأمل الذي يخرجُ من رحِمي اليوم، منذ لقائي الأوّل بالراعي «بوراشاسب». لمحتُ في عينيه الورعَ والطّيبة والإيمان. أفاضَ علينا «أهورا مازدا» ماءَ الحبِّ والمودَّة والسَّكينة، ليغمرَ حياتَنا ويطفئَ نارَ الجوع والظُّلم.

كان سيلُ حُبِّ «بوراشاسب» وفيضُ عَطْفِهِ أقوى من صخورِ الحياة وعثراتِها، فجرف معه في مجرى الحياة ما لاقيناه من مُعوِّقات. وأضحى زواجُنا إشارةً وبشارة: إشارةً لحاضرٍ يضيئه نورُ الحبِّ، وبشارةً لمستقبلٍ يغمره ضياءُ الحقِّ. مرَّت شهورُ زواجِنا الأولى بسلام، يغمرُها دفءُ المودّة، إلى أن بوركَتْ حياتُنا بالبشارة.

نبتَتْ براعمُ الأملِ يوم عاد زوجي «بوراشاسب» مهرولًا وجِلًا، يسوقُ الماشيةَ وبيده نبات الهوما المقدَّس؛ فبادرتُه بالسؤال وقلبي يتأرجحُ بين أملٍ بعيدِ المنال وألمِ الحيرةِ من تَقَلُّبِ الأحوال:

«دوغدوما»: أي زوجي الحبيب، ما لي أراك أتيتَ في غير ميعادك وجِلًا؟! وأنىَّ لك بنباتِ الهوما المستحيلِ المنال لأمثالنا من عامّة

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

النّاس، بعدما صار حَكْرًا على الكهنة والسَّحرة، يستخدمونه في طقوسٍ يمنحون بها -كُفرًا- حياةً لا يملكونها، لموتى لا يستحقّون، ويدَّعون إرجاءَ آجالٍ ما لهم عليها سلطان؟!

فأجابني بصوت يتهدهدُ وأوصالٍ ترتعد:

«بوراشاسب»: كنتُ أرعى الماشية على ضفاف النّهر، حين لمعَ على صفحة مائه، من العدم، جسدان من نورٍ يتوهَّج؛ كنت لا أدري أهما من نور أم من نار؟! أحاطا بي إلى أن أيقنتُ الهلاك، وأدركاني حتّى ظننْتُ أنّ الموتَ أدركني! فعاودت الهرب... لكنّهما نالا منّي كما نالَ منّي الخوفُ والهلع.

فانتابني الرُّعب لهلعه، وكاد يخطفني الموت، حتّى أكمل:

«بوراشاسب»: عندما ضاق عليَّ الخناق وتأهبْتُ لأتذوّقَ زخّاتِ العذاب، أجفلْتُ أنظرُ إليهما وأتأمَّلُ برجاءٍ منقطع. فما إن ملأ عينيَّ ما يُحيط بهما من هالاتِ نور، عرفتُهم! فها هي سيماهم على وجوههم تخبرُني من دون أن ينطقا: «إنَّا خيرُ أهل السماء، قَبَسُ نورِ «أهورا مازدا» العظيم». فحلّت السَّكينةُ محلَّ الهلع، والأُنسُ مكانَ الجزع، عندها هدأَتْ نفسي وأسلمْتُ لهما أمري.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

وما إن شرعَ الاطمئنان يدقُّ باب قلبي حتّى بدأ أحدُهما بالكلام، فامتلكَتْ نبراتُ صوتِه مفاتيحَ بابِ قلبي، فدلفَ الأمانُ بعد الاطمئنان، وامتلكَ كلامُه منّي أوصالَ العقل واللُّبّ.

فسألته مشدوهة:

«دوغدوما»: ماذا قال لك؟

فأردف:

«بوراشاسب»: قال لي أحدهما: نحن رُسُلُ «أهورا مازدا»، جئناك من السّماء مبشّرين. فقد اصطفاكَ العليمُ ليحملَ صُلبُك رسولًا أمينًا، يُعلي نورَ الحقِّ ويُخمدُ نار القوم الظالمين؛ يحملُ بين كفَّيه نورًا من السّماء يضيءُ به ليلَ «ميديا»، ويَقطعُ دابرَ الكافرين. فاشرب وزوجُكَ من عُصارةِ نبات الهوما لتكونا من المكرَّمين، واصبرا على بلاءِ ربِّكما ولا تكونا من القانطين.

فارتجفَ قلبي فرحًا يشوبُه قلقٌ ورهبة، وانهمرَ منّي الدّمع فغشّى عينيَّ عن رؤيةِ زوجي حين استطرد:

«بوراشاسب»: فناولني ثانيهما نبتةَ الهوما، واختفيا فجأةً كما ظهرا، وتركاني صريعَ النَّشوةِ والخوف والفرحة والقلق؛ نشوةٌ وفرحةٌ بالبشارة والأمل، وخوفٌ وقلقٌ من بلاءٍ محتمَل. دقَّت طبولُ الحرب

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

في قلبي ما بين التحفُّزِ لمستقبلٍ يَجُبُّ الحاضرَ الأليم، والترقُّبِ لغدرِ أتباع «أهريمانَ» الرّجيم.

فاحتويتُه بين أضلعي كي يحتويَهُ الأمان ويتحوَّلُ جَزَعُه إلى اطمئنان، وخاطبْتُه بفرح وصلابة لا تعكس ما بقلبي من قلقٍ ووهن:

«دوغدوما»: أي زوجي الحبيب، ما من منحة تخلو من محنة، وإنّما يُمَيِّزُ البشرَ مقدارُ احتفائهم بالمِنَح وصبرهم على المِحَن، فلنا أن نفرحَ بدون تفريط وأن نصبرَ بلا كلل، فبالصَّبر تتكاثرُ المِنح وتتضاءلُ المحَن. عهِدْتُكَ حليمًا صبورًا عظيمَ الإيمان؛ أنارَ «أهورا مازدا» سماءَ حياتي بشمسك، منحني فيك النّور والدّفء والأمان، اصطفاني زوجةً لك يوم اصطفاك لتحملَ بذرة رسوله المنتظَر. ليطمئنَّ قلبُك وليهدأْ بالُكَ ولنفرحْ، نعم نفرح بالبشارة، فصاحبُ البشارة قادرٌ على أن يُلهمَنا الصَّبر ويفديَنا من الخسارة.

استسلمَتْ عيناهُ للنوم بعدما استسلمَ قلبُه للقضاء. تركْتُه يغفو ورحتُ أُحَضِّر عصارةَ الهوما المقدّسة. وحينَ أفاقَ من غفوته شربناها ببركة «أهورا مازدا» العظيم. كان في عينيه فخرٌ ينازعه الخوفُ ذاتُه الذي سكن قلبي؛ لمحْتُ ضياءَ «أهورا مازدا» يُنيرُ عقلَه وقلبَه، ونارَ «أهريمان» تكوي قلبي قبل أن تنالَ من قلبه.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

أي إلهي الكريم، ها نحن ممتثلَيْن لقضائك، فخفِّفْ عنّا بفضلك بلاءك. فاضَ نبعُ البَرَكة التي حلَّت علينا بالحبّ، فغمرَتْ بيتنا المودَّة، وارتوت جوارحُنا ومشاعرُنا معًا. شرِبْنا كؤوسَ الحبِّ والعشق بنهمٍ وعطشٍ تائهٍ في الفَلا، تكسَّرَتْ موجاتُ الشّهوة على صخور النّشوة، كأنّها نَوَّةٌ مدمِّرةٌ في بحرٍ لُجَيّ، حملَتْ سفنَ الرَّغبة عنوةً إلى شاطئ اللّذّة.

انفرطَ عِقْدُ الأيّام التالية تباعًا؛ مرَّت بما تحمله من حلاوةِ الوعد ومرارةِ الوعيد، ومع دبيبها دبَّتْ بذرةُ الجنين في أحشائي، وبنموِّه كان ينمو الحُلمُ والأمل. كنّا نترقّب -أنا «وبوراشاسب»- يومَ خروجه إلى دنيانا، ترقُّبَ السَّقيمِ لمفعول جُرْعةٍ من دواءٍ مُرٍّ قد يخفِّفُ عنه عذاب الألم.

ما من عدوٍّ لليقين يفوقُ الوقت؛ فبمرور الوقت يزدادُ الشكُّ ويخفُتُ وهجُ اليقين. وكانت هذه أولى موجات الابتلاءات. ضرَبَ الشكُّ جذورَ اليقين في قلبَيْنا، وصار ذكرى يومِ لقاءِ الرّوحَيْن النّورانيَّين طيفًا يُغامره الكثيرُ من الشكّ، إلى أن أيَّدَنا «أهورا مازدا» ببشارةٍ جديدة تقتلعُ أوتادَ الشكِّ، وتنفخُ في روحَيْنا من جديد طمأنينةَ اليقين.

ففي غفوة لي رأيتُ نورًا لا يضاهيه نور، يضيءُ سماءَ «إريانا فيجا»، وكانت تبدو في غفوتي كروضةٍ من رياضِ الجِنان، وتَردَّد في الأجواء صوتٌ كان لصداه في نفسي -مثلما وصفَ لي «بوراشاسب»- أثَرُ صوتِ رسول النّور يومَ بَشَّرَهُ بوليدي. وإذا بذلك الصوت يخاطبُني من وراء حُجُب نور السّماء، فأصغيْتُ خاشعةً لأَفْقَهَ ما يقول:

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

- ««دوغدوما» الطّاهرة، بوركْتِ وزوجُك «بوراشاسب» الحليم، بِبَرَكةِ ونورِ «أهورا مازدا» العليم، يومَ اجتباكُما ووهبَ لكما من نوره غُلامًا رحيمًا؛ «زرادوستار» اسمُه في أهله، وتبقى ذكراه في العالمين «زرادشت» العظيم، رحيمًا بأهله، ذا قوّةٍ في نصرة الحقِّ، متين.»

أفقْتُ من غفوتي وكأنّما غُسِلَ قلبي بالماء والثّلج والبرد، وسكنَتِ السَّكِينةُ والفرحةُ كياني، وذهبْتُ من فوري إلى زوجي أسوقُ له البشارة. وما إن قصصْتُ رؤيايَ عليه حتّى عمَّتْه البهجة، واكتسَتْ باقي أيَّام حَمْلي بالفرح، وزارَتِ الطمأنينةُ دارَنا من جديد.

أتى اليومُ الموعود، فاضَ جوفي بنور السّماء، ليعمَّ الضِّياءُ بيتي و«إريانا فيجا» ومختلفَ أرجائِها. لا أذكرُ مثقالَ ذرَّةٍ من ألَمٍ رافقَتْ حضورَهُ المَهيب؛ ولم أسمعْ له صراخًا حين خرجَ كأيِّ وليد! وحين طالعتُه بلهفةِ المشتاق، رأيْتُ نورَهُ وحُسنَهُ يُكلَّلان بتاج البسمةِ البرّاق، فازدادَ حسنًا على حسنٍ، وزادَتِ البشارة بأمارة.

ها هي نبتتي، تضرِبُ جذورُها في الأرض، وتعلو أغصانُها في الهواء.

إنَّه «زرادوستار»، الوليدُ الضّاحك، معجزةُ السماء، نورُ الحقِّ الذي انبثق منّي ليَعُمَّ الضياءُ بيتي و«أريانا فيجا» وما حولها، ببشارة «أهورا مازدا» الخالق العظيم.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

(٣) دوران سرون

نارُ حرب الآلهة

من دون أن أنتظر، وصلني الخبر سريعًا! فقد رأيْتُ بريقَ النّورِ يشقُّ سماء «إريانا فيجا»، كما رآه كافَّةُ قومِ «ميديا»؛ وإدراكي كُنْهَ النّورِ سَبَقَ خبرَ وليدِ النّورِ الضّاحكِ، الذي انتشرَ كالنّار يحرُقُ ما عكفْنا على بنائه في «إريانا فيجا» منذ عقود!

سأحفظُ إرثَ آبائي وأجدادي وأسلافي مهما غلا الثمن. لن يكونَ هذا الطِّفل -مهما أحاطت به هالاتُ النور- معولَ هدمٍ لمعبدٍ شاركْتُ وأسلافي في بنائه لَبِنَةً فوق أخرى، حتّى ناطَحَ بناؤنا السماءَ ومن فيها؛ لن يُطفئَ نارًا عكفْنا على استدامتِها مشتعلةً مقدَّسةً عصرًا بعد عصرٍ وجيلًا بعد جيل، غذَّيْناها بحطبِ الدِّين، وروياناها بوَقود الطّقوس والنُّفوذ.

أنا «دوران سرون» كبيرُ كهنة أهلِ «ميديا»، ورئيسُ معبد النّار الكبير، أُقسمُ أن يكونَ سَفْكُ دمِ ذاك الطِّفل على مذبح النّار قربانًا، نحفظُ به ما ورثناه من أمانةٍ وما اكتسبناه من مكانة. أُقسمُ أن يكونَ لحمُه وشحمُه

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

وقودًا لنارِنا المقدَّسة، وأن تكونَ عظامُه حطبًا يحفظُ نارَ المعبد الكبير مشتعلةً لأيّامٍ بل لعقود.

«دوران سرون»: يا خادمَ النار، اِذهبِ الآنَ فاقتصَّ لي خبرَ وليد النّور هذا، بأيِّ بيتٍ وُلِدَ ولأيٍّ أهل. ولا تأتي إلّا وقد وَجدْتَ لانتزاعه من قلبِ أمِّه سبيلًا.

يَظلُّ الإنسانُ سجين توقُّعاتِه وآماله إلى أن يحطِّمَ الواقعُ باب زنزانة الحُلْم. سنُحيلُ سكرةَ فرح رِعاع «ميديا» بالأمل الوليد، إلى سكرة موت. سنفرض الواقع؛ سنجعلُ من حلمهم كابوسًا، لا يشقُّ ظلامَه إلّا نارُ حرب الآلهة المقدَّسة. فهم وَقود الحرب بين «أهورا مازدا» و«أهريمان»، ونحن كهنةُ المعبد، نتغذّى ممّا تطالُه نارُ تلك الحرب من لحومهم.

أشعلَ أسلافي من العدم فتيلَ نار الحرب المستعِرة في قلوب العباد، ما بين «أهورا مازدا» إلهِ النّور والخير و«أهريمان» إلهِ الظّلام والشرّ، ليسحروا أعينَ النّاس وعقولَهم؛ فإذا ما حجبَتْ غيماتُ السِّحر والجهل أعينَ الناس، سيطَرْنا نحن الكهنةُ على عقولهم، وصار شديدُهم صلصالًا ليِّنًا نُشكله كيفما نشاء، فنمتطي عقولَهم قبل قلوبِهم.

مُذ كان دمُ الشّباب يسري في عروقي، وأتعلَّمُ السِّحرَ على يدَي أحد أسلافي من كهنة المعبد الكبير، أدركتُ أنَّ الشكَّ بذرةُ المعرفة، ومن المعرفة ينبتُ العلم، والإيمانُ الحقّ ثمرةُ العلم.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

أمّا الإيمانُ بالباطل والاطمئنان له، فهو مرآةُ الجهل؛ بذلك اليقين الفاسد نُغشي أعينَ النّاس ونسلبُ عقولَهم. لذا زرَعْنا بذورَ الجهل، وطمسنا الإيمانَ الحقّ، بأن خلقنا للشرِّ إلهًا يخافون بطشه ويعبدونه، وللخير إلهًا يتضرَّعون رضاه؛ وجَيَّشنا لهذين الإلهَيْن -كلٌّ في جهته- الجيوشَ من نورٍ ونارٍ وماءٍ وظلام، وجعلنا تقديسهما والتقرُّب لهما بالنّذور والطّقوس هو السَّبيلُ للنّجاة من عواقب تلك الحرب؛ وعلى أطراف ساحة المعركة فزنا نحن بالغنائم!

هكذا صنعنا الواقعَ من آلهة الباطل التي تُعبَد بغير حقّ، نجمعُ عنهم جباياتِهم. طمسْنا أعينَ الناس بالجهل والخوف من بطش الآلهة؛ أثقلْنا ظهورَهم بالطّقوس والفروض حتّى نشغلَ عقولَهم ونُعمي بصيرتَهم عن نور الحقّ؛ فرَّقنا بينهم في العقيدة والمُعتقَد، فَسُدناهم وتسيَّدنا عليهم ببركة الآلهة المكذوبة، والجهل.

أصبحْنا حبلَ النّجاة الذي يَربُطُ آمالَ النّاس بقدرات الآلهة؛ ادَّعيْنا امتلاكَنا مفاتيحَ الرِّزق والغيب، فصرنا الواسطة بين العباد وربِّهم، نُعطي ونمنعُ كما نشاء؛ نصَّبْنا أنفسَنا وزراءَ للآلهة، ولا بدَّ للوزراء من ملوكٍ يُمدُّونهم بالقوَّة والجبروت والجنود، فتحالفنا مع أصحاب السُّلطان.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

ببريقِ الدِّين سحرْنا أعينَ النّاس وغنِمْنا الجباية، وبحِلفِ السُّلطان نُلنا الحماية، فعَلَتْ مكانتُنا، وتعالى بُنيانُ معبدِنا حتّى بلغ أسبابَ السّماء.

خادم النّار: سيِّدي الكاهن، أتيتُكَ بالخبر اليقين، «زرادوستار» هو اسم الوليد ابن «بوراشاسب» الرّاعي، أمّه تدعى «دوغدوما». يتهامسُ العامّة أنَّ مَلَكان من نورٍ أعطيا «بوراشاسب» نبات الهوما المقدَّس أثناء رعيه لماشيته على ضفاف نهر «أراس»، فشرِبَ عُصارتَها هو وزوجتُه، وبعدَها بتسعة أشهرٍ وُلد لهما «زرادوستار» وهو يضحك وسط هالات من نور؛ يزعمُ النّاس أنّه نورُ «أهورا مازدا» ونبيُّه القادم.

ما من سبيلٍ لنا إلى الطِّفل في حاضر الأيّام، يا سيّدي، حيث يتوافد النّاس على الوليد لالتماس بركة «أهورا مازدا»، فلا يخلو بيتُهم من الزوّار، في اللّيل أو في النّهار.

ألتمسُ منكم المغفرة والسّماح في أن تفسحَ لي من الزَّمن أسبوعًا، حتّى يكون ذلك الرَّضيعُ بين يديك.

«دوران سرون»: لك ما شئت، ولكن إيّاك والخِذلان. أمّا الآن، فاجمع أتباعك وأُؤمُرْهم أن يُشيعوا بين الناس أنَّ ما رأَوْه ليس بنور، إنّما هو ضلالُ وتضليلُ وتدبيرُ «بوراشاسب» وزوجتِه من

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

سحرٍ لعين، أرادا أن يفتِنا به عيون النّاس لينالا بعضًا من أموالهم. وعلى النّاس اجتنابهم كي لا يَحُلَّ عليهم سُخْط «أهريمانَ» العظيم، وتُرفَعَ عنهم مِنَحُ «أهورا مازدا» الكريم.

والّذين زاروهم ابتغاء البركة المفتراة، فهم من الملاعين، وحلَّ عليهم رِجْسٌ عظيم، لا كاشفَ له إلّا أثمن القرابين، يقدِّمونها غير متأخِّرين على مذبح النّار بمحراب المعبد الكبير.

أمّا «بوراشاسب» وزوجته فقد دَنَّسَ السحرُ روحَيْهما، وحلَّت عليهما لعنات الكهنة والمعبد والآلهة أجمعين، وما لهم من سبيل إلّا سفك دمِهم اللّعين.

اِذهبْ من فورك ولا ترجع حتّى يُمسي ما أمرْتُ واقعًا ويقينًا لأهل «ميديا» أجمعين.

وبإيعازٍ منّي بادرَ أهلُ السُّلطان إلى شدِّ قبضةِ العسسِ بعد ارتخاء، وساروا في الناس بطشًا، الفالحُ كالطالح سواءٌ بسواء. وجُلدَتْ ظهورُ العباد بسياط الضَّرائب والجباية والإتاوات، فاستحالت أيّامُهم كدَرًا وكبدًا. وأشاع خُدّامُ النّار بين الناس أن: هذا ما اقترفَتْ أيديكُم، وهذا قطرٌ من زخّات ما هو قادمٌ من عذاب. فاقتلوا طفلَ الفتنة والسِّحر والخطيئة، وأبوَيْه اللّذَيْن دنّسا بخطاياهم أرض «إريانا فيجا» الطّاهرة. أُقتلوهم قبل أن يتحوَّلَ غضبُ الآلهة سُخطًا فتُهلكَنا بحمَمٍ من السماء.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

خادم النار: سيِّدي صاحبُ قداسة النّار، مرَّت أيّامٌ سبعة، وتغيَّر حالُ النّاس من الإيمان ببَرَكة الوليد إلى الإنكار. وطمسَ سحرُ كلامنا ما أصاب قلوبَهم من نوره، ليحلَّ محلَّه الكُرهُ والحقدُ والنّقمة لِما أصابهم من إيذاءٍ أحلَّهم دارَ البوار بعد العمار. وبعدما كانوا يَطوفون ببيت «بوراشاسب» طلبًا لِبَرَكة «زرادوستار»، أصبحوا يُطَوِّقونه طلبًا لرأس الوليد وأهله.

ونُصبَتْ محاكمُ النّار، وصدرَ ما أمرْتَ قداستُك من حُكم: أن يُحرقَ الطِّفلُ في النّار، ويُنفى أبواه إلى غير أرض وغير دار.

ها أنا وخدمُ النّار والجُند بين يديك، ننتظر منك الإشارة لننفِّذَ إرادةَ النّار المقدَّسة.

«دوران سرون»: ببركة «أهريمان» إله النّار العظيم، فلتنزلْ عليهم زخّاتُ العذاب الأليم. اِذهبْ وخذْ قبسًا من نار المعبد الكبير إلى جواره، واستوقدْ بها ما استطعتَ، وما إن تستعرَ ألقموها ذلك الرَّضيع. وليشهَدْ حرقَه أبواه وكلُّ من حضر من الميديّين.

وما إن مرَّت ساعةٌ من الزّمان، حتّى كان لهيبُ النّار يكوي جباه من حضر من أهل «ميديا»، ويُغشّي عيونَهم ما تطايرَ من دخان. وكان الرّضيع بين أيدي خُدّام النّار، وأبواه تحت حماية الجنود.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

اشتعلتِ النّار في السّاحة على يسار المعبد الكبير. آثرْتُ الصعود إلى أعلى أبراج معبدنا، لأشهدَ موتَ البشارة وميلادَ عهدٍ تُستدامُ فيه لنا الغلبةُ والسِّيادة. وما إن اعتليْتُ قِمَّةَ البرج حتّى رأيتُ النّارَ وقد احتلَّتِ النِّصفَ الجنوبيّ للسّاحة، ولشدّة ضخامتها حجبَتْ عنّي رؤيةَ مدخل بلدتنا الجنوبيّ، ورأيتُ النّاسَ يحلِّقونها من الشّمال في أقواسٍ تَضيقُ عند النار، حيث يتقدَّمُهم الجندُ وخدمُ النّار بالطِّفل وأبويه، وتتَّسعُ شمالًا إلى داخل البلدة.

تعالَت ألسنةُ اللّهب، ومعها تعالَت أصواتُ النّاس وصرخاتُهم طلبًا لصفح «أهريمان». تطايرَ دخانُ النّار الرماديّ ليحجبَ عن عينيّ كاملَ المشهد. ولكنّني لمحتُ القاضي يُعطي إشارة تَنفيذ الحكم، فقذفَ خادمُ النّار بالرّضيع إلى لهيب النيران، بعد أن تلا على مسامع من حولَه ما حفظَهُ من صلوات. وسادَ الهرجُ والمرجُ والصّخَبُ بين الحضور. ووسطَ الدَّهشة والترقُّب، رأيتُ الجنودَ وقد ارتخت أيديهم عن أبوَي الطفل، فإذا بهما يتفلَّتان من الحرّاس ويهرعان ركضًا إلى داخل النيران، بحيث أصبح اللّحاق بهما بعيدًا عن الإمكان!

سادَ الصَّمتُ محلَّ الصَّخَب، واشرأبَّت أعناقُ النّاس إلى ألسنة اللّهب مشدوهةً تنتظر، واكتسَتْ ملامحَ بعضِ الحضور فرحةُ الخلاصِ من رجَسٍ

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

وسحرٍ دميم، والنجاةِ من ويلاتِ عذاب «أهريمانَ» العظيم؛ بينما كسا وجوهَ آخرين وجومُ الشكِّ والترقُّب، في انتظار مُنقذ -وما له اليومَ من مُنقذ-. طالَ الانتظارُ وطالَتْ أعمدةُ الدُّخان إيذانًا بانخماد النيران.

أتَتْ نيرانُ «أهريمانَ» العظيم على بُشرى «أهورا مازدا»، واستحالَ وجودُها إلى العدَم؛ انقطعَ دابرُ أسرة «بوراشاسب» تمامًا، ولم تُبقِ النّار لهم من أثر.

تلاشوا ببشارتهم كما تلاشى كلُّ أملٍ في أن ينازعَنا في المُلك مُنازِع؛ اليومَ الدّين والسُّلطة لنا ولحلفائنا، وبأيدينا مفاتيحُ السّماء!

فاليوم لا سائلَ يسأل:

لِمن المُلكُ اليوم؟!

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

(٤) بورجين كورس

« أهو – را – مازدا » ... « أنا – خالقُ – الوجود»!

«بورجين»: كما يصطفي خالقُ الكونِ من بني الإنسان والأيّام والأرضين، اصطفى لنفسه هذا الاسمَ العظيم، الذي يصفُ به ذاته التي كانت سببًا لوجود كلِّ ما هو موجودٌ في شاسع الوجود. فبفضله ابتدأ هذا الكون، وإليه منتهاه، وما من كائن إلّا وسوَّتْه يداه.

كان هذا ختام ما قُلته في درس اليوم لحاضري مجلسي العلميّ من الطّلّاب. وعلى غير عادة طلّابي في مثل هذه السنّ ولمثل هذا الدَّرس، لمحْتُ نورَ الخشوعِ والخضوع يُشعُّ من وجه أحد الأطفال الذي لا يتجاوزُ عمرُه السَّبعةَ أعوام.

انتابتني الحيرةُ، فاللّهوُ والتَّهامس مع فيضٍ من الضّحكات والابتسامات هي كلُّ ما يشغلُ طلّابَ هذا العمر. نغرِسُ فيهم في هذه السِّنّ الصغيرة -من خلال هذا الدّرس- ما يحمله اسمُ إلهِنا العظيم من معانٍ ومدلولات

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

تَهديهم في قادم أزمانهم الصِّراطَ المستقيم، لتقيَهم بعد مديدِ العمر نارَ الجحيم. كان ذلك الطِّفلُ سببَ حيرتي! أنّى له بمثل هذا الخشوع وهذا الإنصات في مثل هذه السِّنّ؟! وما هذا النّور الذي أشعَّ من جبينه ما إن أسهبْتُ في حديثي عن «أهورا مازدا»؟ أهوَ نورٌ حقًّا أم انتابتني هلاوسُ خرَفِ الكِبَر؟!

في قريةٍ نائيةٍ على أطراف «إريانا فيجا»، أقطنُ في منزلي هذا منذ سنين. مضَتْ قافلةُ عمري مرتحلةً بين واحات العلم وصحراء الشكّ، حتّى حطَّتْ رحالَها ها هنا. وبما حَصَّلْتُه من علمٍ خلال رحلتي، حَصَلتُ على لقبٍ جديد، اِلتصقَ باسمي وصار يسبقُهُ كأنَّه وليدي الوحيد. صارَ النّاسُ يدعونَني «غورو بورجين كروس»؛ يا لها من منزِلَة! «غورو» أي «الشيخ الحكيم». فما من شكٍّ أنّني صرت شيخًا بعدما شاخ جسدي. ولكن، من ينزِّهُ نفسَه إلّا «أهريمان» وعبيدَه؟! فمَنْحُ ثوبِ الحكمة عند البشر لا يخلو من دنَس الرّياء، والشّكُّ رفيقُ الحكمة في رحلة الوصول إلى اليقين، والحكمةُ الحقيقيّة منحةٌ لا يجود بها إلّا ربُّ العالمين.

ذاعَ صيتي بين أهل تلك البلدة وما حولها، بما منَّ علي به الإله من قليل العلم والحكمة، فصارَ بيتي لطلّابِ العلم وأهليهم كالبئر في أرضٍ مقفرة، يرسلُ الآباءُ أبناءَهم إليه لينهلوا ما تيسَّرَ لهم من علوم الدُّنيا

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

والدّين، وما يكفيهم لإشباع عقولهم، ويضمنُ مستقبلًا تَشبعُ فيه بطونُهم، إذ تَقيهم شُربَةُ العلم تلك ظمأَ الجهل اللّعين.

حسنًا سأنتظرُ قدومَ ذلك الفتى عند الدَّرس التّالي، لأرى إن كان حقًّا ما رأيت فيه من مسحة نور، أم هي أفعال الزّمن في عجوز يتهيّأُ جسدُهُ لِلَحْدِ القبور؟

أمضيتُ ليلتي في صحوٍ تتخلَّلُه بضعُ غفوات، يُنازع نشاطُ عقلي كسلَ عينيّ في استحضار صورةِ ذلك الطِّفل مرّات ومرّات. ظلَّ الفضولُ يصارع رغبة النَّوم إلى أن شقَّ نورُ الشّمسِ ظُلمةَ اللَّيل، إيذانًا ببزوغ فجرِ يومٍ جديد، أتطلَّعُ فيه إلى ما يَشفي شوقي إلى بُشرى كانت تُلاحقني من زمنٍ فات. لعلّها بُشرى حقيقيّةٌ هذه المرّة! أم سترافقُ ما سبقها من انتكاسات؟!

عندما حان ميعادُ درسي اليوميّ، دلفْتُ إلى غرفة الدّرس أَفرِزُ وجوهَ الحاضرين من التلامذة، بحثًا عن ضالَّتي. فظَفَرَتْ عيناي برؤيته بدون جهد يُذكَر، فقد كان إشراقُ وجهِه وهدوءُ ملامحِه يفرضان حضورًا يطغى على خلّانه الذين يساوونه في العمر أو حتّى الذين يفوقونه.

بدأْتُ حديثي بما هو معتاد، وأبحرْتُ من بحر اللُّغة إلى بحور العلوم الأخرى... وما إن رسَتْ سفنُ الحديثِ على شاطئ الدِّين، بدأْتُ كلامي على «أهورا مازدا»:

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

«بورجين»: مِن بين آلهةٍ تُعبَد وأربابٍ تُحْمَد، يظلُّ النُّور من فضله ووصفه. ولتعلموا يا أبنائي أنّ غيماتِ الظَّلام تستطيعُ أن تحجبَ نورَ الحقِّ لبعض الوقت، لكن، مهما طال هذا الوقت أو قصُر، حتمًا سيشقُّ نورُ الحقِّ قلبَ غيماتِ الظَّلام، ليكسوَ وجهَ الأرضِ ضياءً ودفئًا وعدلًا، وليجفِّفَ ما خلَّفتْهُ غيماتُ الظّلام من وحلِ الظُّلْمِ والهوان.

فكما غمَرَ نورُ الحقِّ من قبلُ الأرضِين، وأغرقَ بفيضِه الظّالمين، وكتَبَ النّجاةَ لعباده الصّالحين، ستعلو من جديد رايةُ الحقّ، وستكونُ الغلبةُ لخيرِ ونورِ «أهورا مازدا» العظيم.

أسرَ جوارحي قبلَ عينيَّ ما أحاط بوجه هذا الطِّفل من هالات نورٍ ما إن بدأْتُ حديثي عن إله النّور! فكادَ يتفلَّتُ منّي خيطُ حديثي وأضَلُّ الطريقَ إلى نهاية رحلة هذا اليوم من الدّروس. لملمْتُ شتاتَ نفسي وعقلي الذي فطِن لِما يحتويه هذا النّورُ من علامة، واستجابَ -فورَ يقينِه من ماهيَّته- لما له من دلالة! فإن صدق ظنّي، إنّما هو ما ينتظرُه مَن هُم مثلي مِن رسالة!

وما إن فرغْتُ من دورسي وشرع الطُّلّاب يودِّعون باب بيتي، حتّى غلبَ فضولي قدراتِ جسدي العجوز، فسارعْتُ خلفَ هذا الطِّفل، وأوقفته سائلًا:

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

«بورجين»: أي ولدي الحبيب، إنَّ ما لك من حضورٍ وحُسْنِ انتباه لَيبشِّرُ بما فيه خيرٌ عظيم! هل لي أن أعرفَ من أنت، ومن هو أبوك الكريم؟

فأجابني بصوت خفيض:

«زرادوستار»: سيّدي «غورو» صاحبُ العلم والحكمة، اسمي «زرادوستار»، وأبي يدعوه أهلُ قريتِنا «بوروزهازيو».

أصابَ اسمُ الطِّفلِ قلبي في صميمه، فاسمه يتطابقُ مع اسم طفلِ النُّور الذي حُرِقَ بالنّار منذ سبعِ سنين! ولو أنّه عاش لكان في مثل عمره. ولكنّي أعلمُ مدى انتشار هذا الاسم بين مواليد الفترة ذاتها -اِلتماسًا للبركة- إلّا أنّ اسمَ أبيه أشعلَ نارَ الشكِّ وأوصدَ البابَ في وجه اليقين، فسألتُه:

«بورجين»: ولدي «زرادوستار» أريدُكَ ألّا تأتي في الغد إلّا بصُحبةِ أبيك. واحرصا على أن تأتيا قبل ميعاد الدّرس بساعة. أخبرْه أنّي حريصٌ على رؤيته لِما التمستُ فيك من براعةٍ، وحُسْنِ استماعٍ، وطاعة.

ذهب الفتى إلى غير محلّ، تاركًا في عقلي ألغازَ مُعَقدَّةً ما لها من حلّ! استحالَ مخزوني من العلوم إلى سراب، لا يُجدي ولا يَنفع. ذهبَ بنوره الفريد ليترَكَ لُبِّي في ظلماتٍ لا أرى فيها ولا أسمع!

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

أيُعقلُ أن يكونَ «أهورا مازدا» قد بثَّ الرُّوحَ من جديد في تراب بشارته التي تلاشَت واحترقَت يومَ احترقَ ذلك الطِّفلُ وتلاشى؟!

يعلمُ الرّاسخون في العلم أنَّ هذا هو زمنُ رسولِ آخرِ الزّمان، الذي يَختِمُ به «أهورا مازدا» زمانَ النّار والرِّجْس والأوثان. تراقص الأملُ في قلوبنا فرحًا حين سمعْنا عن طفل النُّور والبشارة. ولكن، سرعانَ ما تساقطَتِ الآمالُ صريعةً تحت أقدام كبيرِ الكهنة وخُدّام النار.

مرَّتْ ليلتي كسابقتِها، يتأرجحُ فيها عقلي بين الشكِّ والأمل. وعنَّفَ قلبي عقلي أن تركَ الطِّفلَ يمضي وحيدًا. فأجاب عقلي قلبي أن: «اِصبر، فإن كان هو صاحبَ البشارة، لا يصِحُّ أن نذهبَ إليه في بيته فينكشفَ المستور من أمره؛ وإن لم يكن، فلا يصِحُّ أن نُعطيَ قيمةً لمن لا يستحقّ».

مضَتْ ساعاتُ اللّيل كالسَّنواتِ العجاف: ما لها من ثمرة ولا تحملُ من ذكرى. إلى أن باحَ الصّباحُ بنوره الوضّاح، ليقلبَ سكونَ اللّيل الكئيب إلى حركةٍ ودبيب. وحملَتْ خيوطُ شمسِ اليوم الجديد دقّاتٍ تقتل الصّمْتَ الكامنَ في بيتي منذ المساء. فرحتُ أطوي الخُطى إلى باب بيتي، وعندما فتحتُه رأيتُ الطِّفلَ وقد خالطَ نورُه نورَ الشّمس حتّى غلبه، ومن خلفه أبوه. فبادرْتُ أدعوهما إلى داخل داري، وسط ما فاض عليَّ به الكريمُ من آياتِ التّرحاب.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

كان الطِّفلُ جميلَ الملامح، يعكِسُ وجهُهُ الهدوءَ والثِّقة. أمّا أبوه فلم تُخْفِ ابتسامتُهُ العريضة ما في قلبه من حيرةٍ ووجل.

وحين فاضَ توتُّرُه من بئر الصَّمت، بادر بالحديث:

«بوروزهازيو»: سيّدي «غورو» الحكيم، أبلَغَني ابني أنَّ لك حاجةً عندي، فكيف لي أن أخدمَ سيّدي الحكيم؟ أم أنَّ لك شكوى من سلوك ابني، فيتوجَّبَ عليَّ أن أُحسنَ تربيتَه وتهذيبَه؟!

فأجبتُهُ باسمًا، لأطفئَ نارَ التوتُّر المستعرة في قلبه:

«بورجين»: أخي الكريم، أمّا «زرادوستار» فإنّه نِعْمَ الابن والتلميذ. وما كانت دعوتي لك إلَّا لما التمسْتُ فيه من إنصاتٍ ونباهة وحُسْنِ خُلْق. أمّا عن حاجةٍ لي عندك، فإنّي لا أبغي إلّا الصِّدق.

لم تُفلحْ ابتساماتي في أن تطفيءَ ما استشعرْتُه من حرِّ بركانِ التّوتُّر الذي يغلي داخلَهُ. فاستطردْتُ إلى لُبِّ الحديث مباشرة، محاولًا إخماد ذلك البركان، لأمنعَ تطايُرَ ما فيه من حِمَم:

«بورجين»: أخي «بوروزهازيو» أكادُ أجزمُ أنّي أعلمُ ما بك من توتُّرٍ وقلق. ولكن، قبل أن أسترسلَ في حديثي، لك منّي أمتنَ العهود -إن صدّقتَني- ألّا أفضحَ سِرَّك أو أَضُرَّك.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

وقبلَ أيِّ إنكارٍ منك أو إثبات، يجبُ أن تعلمَ أنّي رأيت في ابنك ما يؤيِّدُ ظنّي من علامات. فجديرٌ بمن هو مثلي، أن يَميِّزَ هذا النّور وتلك الهالات. فأصدِقْني القول، كيف نجوتُم من النّار، وكيف خرجتُم منها بدون أذًى، ومن دون أن يلحظَكُم الجنودُ والكهنةُ وخُدّامُ النّار؟!!

أخي «بوراشاسب» أصدحُ بالحقّ، وأُقسمُ لك بنور «أهورا مازدا» العظيم، إن بُحتَ لي بسرِّكَ لأكونَنَّ عليه حفيظًا أمينا.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

(٥) بوراشاسب

سهام الحرب

كانت كلماتُ « غورو بورجين» تنطلقُ كسهام الحرب من نبالِ فمه. كنتُ أستقبلُها بصدرٍ عارٍ ومن دون دِرع، فقد كان ما مرَّ من أحداثٍ خلال سبعِ سنوات فائتة، يسيلُ كالدِّماء من صدري وعقلي أمام عينَيّ، لِما أحدثَتْه سهام «بورجين» من جراحٍ غائرةٍ، نفذت إلى قلبي ولُبّي، لتصلَ إلى أعماق هذا الماضي.

معركةٌ غيرُ متكافئة، كُتبَ عليَّ فيها الاستسلام قبل أن تبدأَ. فقد كانت سِهامُه كفيلةً بأن تقطعَ سُبُلَ المقاومة، وتُردي ما أتقنْتُهُ عبر سنين من فنون التخفّي، صريعةً. فخارَ ما لديَّ من قوى دفاع، وأصابني الذُّهول. وكأنّما غشيتني سكراتُ الموت، إذ رأيتُ الذِّكريات تتسارعُ أمامَ عينَيّ.

كانت الفَرَس الأسبق أمام عينيَّ ذكرى يومِ الحريق، وما سبقه من أيّامِ ضيق. لا نعلمُ كيف انقلبَ النّاس علينا بعد فترة وجيزة تبعَثْ ميلادَ

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

«زرادوستار»! فبعدما كانوا فرحين مستبشرين، يتوافدون إلينا سعيًا لالتماس التبريكات، انقلبَ الحال، وضَيَّقوا علينا خِناقَ الحياة! وباتَ سعيُهم في ما تلا من أيّام، طلبًا لبركةِ رؤيتِنا من الأموات!

وسريعًا تعالَتْ وتيرةُ الأحداث، وزاد الصَّخَبُ حول بيتي، وحالَ النَّاسُ ما بين عائلتي وأيَّةِ فرصةٍ للهرب، أو حتّى للخروج من الباب لنقتات. وذات صباح، تعالتِ الصَّيحاتُ أمامَ الباب، وتلَتْها طَرَقاتٌ شديدةٌ، بدلَ أن تحطِّمَ الباب حطَّمت قلبي وقلبَ زوجتي «دوغدوما». فقد أدركْنا ماهيَّة الطَرْقِ وهويّةَ الطّارق.

مع تتابُع الدقّات وازدياد شدّتِها، لم يعدْ لنا مندوحة من أن نفتحَ الباب؛ وإذا بجنودٍ مدجَّجين بالسّلاح، ومن خلفِهم خَدَمُ النّار، يهرولون من فُتْحة باب المنزل إلى الدّاخل، بحثًا عن وليدنا الصغير. خرجتُ وزوجتي التي استماتَت في دفاعها عن الطفل من دون نتيجة، مكبَّلَيْن بالأصفاد، ووليدُنا في الخلف، يحملُهُ أحدُ خدمِ النّار الأوغاد.

كانت أُذناي تقاومان تَدافُعَ ضجيجِ الأصوات من حولهما، وتُجاهدان بحثًا عن صوت «زرادوستار». ولكن، باءت كلُّ محاولاتهما بالفشل! فنظرْتُ إلى زوجتي، لعلّي أرصدُ في ملامحها ما يطمئنُني، ولكن هيهات! ومن غير اتِّفاق، التفتنا في اللّحظة ذاتِها نستطلعُ حالَ ابنِنا في الخلف. ما

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

إن طالعْتُه حتّى شعرْتُ وكأنّي أستطلعُ البدرَ في ليلة التّمام! كان يُشعُّ نورًا تقشعرُّ له الأبدان!

لم نكنْ نسمعُه، لأنّه -ببساطة- لم يكن يبكي، بل كان -كما عند ساعةِ ولادتِه- يتبسم! زرعَت ابتسامتُه في قلبي بُذورَ الأمل، ورواها سكونُهُ بالسكينة، إذ فاضَ وهجُ نورِه حتّى أنبتَ في قلبي الطّمأنينة! انتقلْتُ بناظريَّ نحو زوجتي «دوغدوما»، لأجدَ شجرةَ الأمنِ والثِّقةِ تُظلِّلُنا بأغصانِها الوارفة، وتَحجُبُ عنّا حرَّ ذلك اليومِ العصيب!

بَرَكةُ «زرادوستار»، ونورُه وابتسامتُه، حجبَتْ عنّا ما كان يحيطُ بنا من كُرْهٍ، وغُلٍّ، وشرٍّ، وصَخبٍ وصراخ؛ لننعمَ بطمأنينةٍ لم يظفرْ بها يومًا كهنةُ المعبدِ في بنيانِهم العتيد!

اِقتادونا إلى ساحة البلدة الكبيرة، عند مدخلها الجنوبيّ، إلى جانب معبدها الكبير.

قبل ولوجِنا السّاحة، غشّى أعينَنا دخانٌ كثيف يتصاعدُ من فوق ألسنةِ نارٍ عظيمةٍ أتَتْ على ثُلثِ مساحة السّاحة. حجبَتِ النّارُ بدخانها مدخلَ القرية الجنوبيّ بالكامل، والتفَّ النّاسُ من حولِنا في أقواس. وإذا بخِدْرٍ غريبٍ يدِبُّ في جسدي، حالَ بيني وبين إدراكِ ما حولي من أصواتٍ وأحداث.

وإذا بألسنةِ النّار تكوي قلبي وعقلي من دون أن تمسَسْني! وخوفًا على وليدي، وحنَقًا وغضَبًا على أناسٍ يُقَلِّب ساستُهم عقولَهم وأهواءَهم

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

كما يُقلَّبُ الجمرُ في النار، اشتعلَتْ في قلبي نارُ الحقدِ والكره على خُدّام المعبدِ وجنوده. فانطلقتُ كالممسوس دون أن أدري، أستبيحُ أجسامَهم ضربًا، وأعراضَهم هتكًا وسبًّا، لعلّي أُنقذُ طفلي الوحيد. وما كان لي من رادعٍ عن قتلهم جميعًا بيديَّ العاريتين، لأطفئ النارَ المستعرة في قلبي، إلّا يدُ الحارس الموكَلِ بتقييدي، والتي شدّت قيدي. استفقْتُ من غفوتي وأحلامي وأوهامي على النّار إيّاها التي تستعرُ في قلبي، وقد بتُّ من دون حوْلٍ ولا قوّةٍ لأنقذَ عائلتي، وما من بصيصِ أملٍ لنا في النجاة!

وفجأة تقدَّمَنا خادمُ النّار حاملًا «زرادوستار» الذي لم تفارقْ وجهَهُ الابتسامة، وكان يُجيل عينيه ما بيني وبين أمِّه، باثًّا فينا الطّمأنينة. مرَّ وقتٌ لم أُقَدِّرْه، ودارت أحاديثُ لم أفقهْها. وإذا بذلك الخادم اللّعين يقذفُ بابني لتلتقفَهُ ألسنةُ النيران!

بعد لحظاتٍ من الوجوم، زادَتْ حدَّةُ الخَدَرِ في أوصالي؛ وإذا بصوتٍ يهمسُ من داخل النّار: «أُدخلا، لا خوفَ عليكُمُ اليومَ آلَ «زرادوستار.» وارتخَتْ عنّي فجأة قبضةُ الحرّاس، وسبقَتْ قدمايَ عقلي في تلبية النِّداء! فرُحْتُ أركضُ باتِّجاه النّار، وما سبقني إلى الدّاخل إلّا زوجتي «دوغدوما»، فقد سمِعَتْ مثلي النِّداءَ ذاته! عبَرْنا أسوارَ الدُّخان وألسنةَ النيران، فكان عبورًا من الجحيم إلى فسيحِ الجِنان!!!

ليس هذا من قَبيلِ الارتباك، فقد كنّا في جحيمِ الحقدِ والغدر، تُكبِّلُ أيديَنا زبانيةُ المعبد، ومِن حولِهم حرّاس وأهلُ النار. وما إن دخلنا النّارَ

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

حتّى تحوَّلَ لهيبُها وحرُّها إلى روضةٍ منَ الجِنان، حُجِبَ عنّا ما في خارجِها من صخَبٍ وشرّ، وتوسَّطَها «زرادوستار» باسمًا مُنيرًا! فاستحالَ الحرُّ بردًا، والخطرُ أمانًا!

وقبلَ أن نستوعبَ حجمَ المفاجأة، دنونا من «زرادوستار»، فحملَتْهُ أمّه، واحتضنّاه سويًّا. وما إن اقتربْنا منه حتّى كُشِفَ عنَّا غطاءُ الغشاوة، فصار بَصَرُنا حديدًا. تحوَّلَ الدُّخانُ والنَّارُ إلى نور وبلَّور، فبتنا نرى النّاسَ في الخارج بوضوح، كأنَّ على رؤوسهم الطَّير، يغوصون في بحرِ الوجوم. وفي الطَّرف الآخر، رأيْتُ طريقًا مُعَبَّدًا بالنّور والزّهور!

كانت إشارةً أخرى من «أهورا مازدا» العظيم، أنّه منجِّينا، وأنّه مُتِمٌّ نورَه ورسالتَه رغم أنفِ عَبَدة النّارِ الملاعين. خرجْنا من بوّابةِ القريةِ الجنوبيّة، تحملُنا بَرَكاتُ الإله. وحالت نيرانُهم بدُخانِها دون أن يرانا أحدٌ من الحضور. فانطلقنا مسرعين إلى مكانٍ آخر نقيمُ فيه إلى حين.

بعد ارتحالِنا من بلدةٍ إلى أخرى، استقرَّت رحالُنا في قريةٍ طابَ أهلُها وريحُها.

ومع تبدُّلِ النّاس والدِّيار والأحوال، ما كان من بدٍّ أن أستبدلَ اسمي حفاظًا على ابني. لكنّنا آثرنا أن نترَكَ له اسمه كما اختارَتْهُ السّماء، وأعاننا في هذا انتشارُ الاسمِ لدى كثيرٍ من مواليد الشهر نفسه. وصار الناسُ يدعونني في القرية الجديدة «بوروزهازيو».

كانت بَرَكاتُ «أهورا مازدا» تُلاحقُنا أينما حلَلْنا، كغيثٍ من السّماء، فاض علينا من واسع رزقه بسخاء. ومع مرور السّنين، سمعْتُ برَجلٍ ذي

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

عِلْمٍ عظيم، يدعى «غورو بورجين»، يُحيط بعلوم الدّنيا، وهو لِـ«أهورا مازدا» من المؤمنين المُخْلصين، فانتقلنا إلى قريته حين كانَ «زرادوستار» ما دون الخمس سنين. ومع بلوغه السّابعة، اِلتحقَ بدارِ العالِمِ الكريم، ليستقيَ منه العلومَ وأصولَ صحيحِ الدّين.

وها أنا اليومَ هنا بين يدَيْ الشَّيخ نفسه، أواجِهُ بالحقِّ والصِّدق بصيرتَهُ وعِلْمَه، كاشفًا له سرَّ عائلتي الدّفين.

«بوراشاسب»: سيّدي «غورو» الحكيم، ها قد بُعِثَ بين يديك اليومَ ما كان دفينًا في قلبي من أسرارٍ وأخبارٍ لسنين. ولم يكنْ بَوحي لك لما اغلَظْتَ من الأيمان، وإنّما لما لمستُهُ في سيرَتِكَ من الإيمان. فانظُرْ ماذا أنت فاعل بي وبابني؛ وما أتوقَّعُ منك غيرَ الإحسان.

أجابني بِوَقارٍ تُخالطُهُ الدَّهشةُ والفرحة:

«بورجين»: أخي «بوروزهازيو»، مضى جُلُّ عمري، وما تبقّى لي سوى بضعِ سنين. بعد استقراري في هذه القرية كنت أَفرِزُ من يتردَّدُ إلى مجالس علمي من تلامذة، بحثًا عن خلَفٍ قادرٍ على أن يحملَ الشُعلةَ من بعدي، لأغرسَ فيه بذورَ ما حصدْتُ في حياتي من علوم، فيظلَّ نورُ العلمِ يضيءُ طريقَ النّاس ويبدِّدُ الغيوم. وإنّي لألتمسُ في ابنك النّبيه أكثرَ من أمارة، لعلّه يحملُ الشُّعلةَ ذاتَها، ويكونُ من بعدي للنّاسِ بشارة.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

فأرجوكَ أن تسمحَ له بالمكوثِ معي ومرافقتي لثمانِ سنين، حتّى يُتِمَّ نضوجَه بين يديّ، ويتسنّى لي تعليمُه بالشَّكل السليم. وما من حرَجٍ عليك وأمِّه أن تزوراه كلَّ مساء. فهل تقبلُ عرضي هذا، أم يكونُ مصيرُه الإباء؟

كان عَرْضًا لا يُرَدّ، ورسالةً تلقَّيْتُها بفرحٍ ووِدّ.

آن أوانُ درسِهِ الأوَّل لهذا اليوم، وبدأ التلامذةُ بالتوافد على مجلسه. فودّعتُه بعدما استودعْتُ «زرادوستار» عنده، بل بالحريّ القول، استودعتُه بين يدَيْ «أهورا مازدا» ليرعاه، ويؤهِّلَهُ بنور العِلْم لنُصرة الحَقّ.

مضتِ السَّنواتُ الثمانية كسحاباتِ الصَّيف الخفيفة. أذهلني فيها ما أدركَهُ «زرادوستار» من براعةٍ في علوم اللُّغة والأدب والطِّبِّ والدّين والزراعة. حتّى أنّه لبراعته صار قِبلةً لكثيرٍ من النّاس للتّداوي، إذ فاقَ معلِّمَه مرارًا في اكتشاف الدّواء الشّافي، لحالاتٍ جانبَها الأملُ في التعافي.

تُوِّجَ نورُ وجهِه، وجمالُ ابتسامته، بجَلالِ العِلْم والحكمة. وصارَ ابنُ الخمسةَ عشرَ عامًا مِثالًا للأخلاقِ والعلمِ والإيمان، وبوقاره وعطائه اكتسبَ حُبَّ كافّةِ أهل القرية.

ها قد حانَ وقتُ الاحتفالِ ببلوغه، ويتوجَّبُ علينا الحفاظُ على ما لهذا الاحتفالِ من طقوسٍ وعادات، لنصرفَ عنه أنظارَ المتطفِّلين وأصحابِ الوشايات.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

كنتُ غارقًا في أحلامي، متطلِّعًا إلى ما سيحمله المستقبلُ لابني الحبيب من مِنَحٍ وعقبات، حين اقتحمَتْ زوجتي خلوتي، وبدأَتْ تُحدِّثُني بوجه ترك فيه الخوفُ الكثيرَ من العلامات:

«دوغدوما»: أي زوجي الحبيب، هل أتاك نبأُ غارات الطُّورانيّين على أطراف البلاد؟ إنّهم يسعون لانتزاع أراضينا وإذلالِ العباد!

نزلَ عليَّ الخبرُ كالصّاعقة! من جديد سيَذوقُ النّاسُ ويلاتِ العذاب، تحت راياتِ مُلكٍ زائف، ويتساقط المئات من الضحايا بل الآلاف. فما السبيلُ لكبحِ لجام الفتنة، والنجاةِ من نارِ حربٍ وَقودُها ضُعفاءُ الناس؟!

أيُّ مَلِكٍ يسفكون تحت عرشه الدّماء لتجري كالأنهار؟! ألا يعلمون أنَّ المُلكَ كلَّه يؤول لخالقِ اللَّيل والنَّهار، لإله النّور والنّار؟!

يومًا ما سيستوي الحقُّ على عرشه مناديًا:

لمن المُلكُ اليوم؟!!

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

(٦) أهريمان

اِستخففتُهم فأطاعوني

أليسَ لي مُلكُ «إريانا فيجا» الآن، وأنهارُ الدَّمِ تجري من تحت عرشي؟!!» احتَنَكْتُ عقولَهم بلجامِ المُلك، فامتلكْتُ زمامَ أمورِهم، وتحوَّلَتْ ناصيتُهم صوبَ إرادتي. تسارعوا ركضًا خلفَ جزرة السُّلطة، فتصارعوا قتلًا تحت وطأةِ ضرباتِ عصا الحرب.

نثرْتُ غيماتِ الفُرقَةِ والعصبيَّةِ في سماء بلاد أهل «ميديا» والطّورانيّين، فحجبْتُ عنهم نورَ التَّسامح، وأمطرتُهم بالغلِّ والكره، فساءَ مطرُ الظّالمين، وغرقوا في سيول الحرب، وامتزجَ ترابُ أوديتهم بالدّم، حتّى جرفَتْ تيّاراتُ الدَّم جثثَ الطّين الهالكة إلى النهر.

اصطبغَ نهرُ «أكسوس» الفاصلُ بين الميديّين من الغرب، والطّورانيّين في ما وراء النهر، بلون الدّم، وطافَتْ فوقَ صفحتِهِ أشلاءُ الطّين.

وأيُّ عرشٍ أعظمُ الآنَ من عرشي هذا، الذي تُزيِّنُه النّارُ المقدّسة، ويحملُهُ على أعناقهم التابعون من كهنة المعبد، والسّاسةُ الفاجرون؟! عرشٌ أعمِدَتُه الظُّلمُ والظَّلام، ومن تحته تجري أنهارُ دم البشر، جزاءً لظُلمِهم وجشعِهم.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

أحفادُ آدم، ابنِ الطّين الأوّل، زيَّنْتُ لهم عقولَهم، وهَيَّأْتُ لهم -بما غَرَستُ فيهم من كِبْر- الاعتزازَ بأنسابٍ مزعومةٍ وأصولٍ واهية. أليسوا جميعًا لآدم، وآدمُ من تراب؟! كيف صار الطّورانيّون قوقازًا، والميديّون آريّين؟ أيُّ أسماءٍ تلك يبتدعُها الطّين؟!

حشدْتُ أتباعي على جانبَيْ النّهر، وسقيتُهم سَمَّ العصبيّة، فانتابَتْهم حُمَّى الكِبْر، حتّى صار كلُّ طرَفٍ على جانبَي النَّهر يتعالى على الآخر، وانتشرت عدوى الكُره في ما بينهم. وغَشَّيْتُ أعينَ أسيادِهم ببريق المُلْك والسُّلْطان، فسعى كلُّ طرفٍ كالمحموم يحشدُ أتباعَه أتباعًا لي. نشبَتْ بينهم حربٌ أبديَّةٌ لا تنتهي، تفصِلُها فتراتُ هِدْنة تطولُ أو تقصر. ولكنَّ سَمّي طويل المفعول، سرعان ما يعودُ ليجري في عروق بني الطّين من الطرفَيْن، فتتأجَّج حُمّى الحرب فيهم من جديد.

وكلّما تمكَّن السَّمُّ من عروق وأوصال بني آدم، أَرسلَ «أهورا مازدا» التِّرياق من عليائهِ. هكذا كانت سُنَّةُ الوجود منذ هبطْنا إلى صعيد الأرض: معركةٌ تلوَ معركة، وتستمرُّ الحرب. أُغوي بني الطّين، أستخفُّهم، فيُطيعوني، ويتبعوني. أحشُدُهم حشدًا، وأُجَيِّشُ جيوشَ الباطل حتّى يَسُودَ، وأحاربُ بياضَ النّور حتّى يَسْوَدَّ، فأُرسي قواعدَ النَّصر وأعتلي عرشَ ذلك العصر. وكلّما اقتربَتِ المعركةُ من نهايتها الحتميّة لصالحي، أَرسلَ إلهُ النّور قَبَسًا

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

جديدًا من نوره، يبدِّدُ به ما نشرْتُ من ظلام، ويكون هو التِّرياق الذي يَشفي بعضًا من أتباعي، ويُبطلُ مفعولَ سَمّيَ لأزمان.

كان اشتدادُ الظُّلمة واحتدامُ الظُّلم في سماء «إريانا فيجا»، في هذا الزمان، إيذانًا ببزوغ فجرِ رسول «أهورا مازدا» الجديد. أدركْتُ هذا حتّى قبل ولادة «زرادوستار». وعرفْتُ نورَ ولادتِه، وتيقَّنْتُ منه حين شَهِدت نجاتَه من نار كاهن المعبد الكبير. وقتَها صار راسخًا في أعماق عقلي أنّا مقبلون على إحدى المعارك الكبرى الحاسمة.

فشيَّدْتُ قلاعَ وحصونَ الظّلام في قلوب وعقول أتباعي على طرَفَي النَّهر، وأمددْتُهم بسلاحَيْ الحقد والغِلّ. وبما أنّ ولادة «زرادوستار» كانت في طرف النّهر الغربيّ عند أهل «ميديا»، زوَّدْتُ الطَّرَفَ الآخر بالعُدَّةِ والعتاد، واستكثرْتُ من الأتباع والقلاع، وروَّيْتُ حطب الطّين في الطّورانيّين بوَقود كره الميديّين.

فعندما حانَ ميعادُ بلوغ «زرادوستار»، كان أتباعي في ما وراء النَّهر جاهزين للاشتعال؛ وكان ما غرسْتُ من طمع وكِبْر عند قادتهم يُأَجِّجُ فيهم نارَ الحرب ضدَّ الميديّين، والرَّغبةِ في اغتصاب ما يملكون من أرضين. سقيتُهم خمرَ السُّلطة والاستعمار، فأغاروا على أهل «ميديا» بدون رحمة،

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

تحت سكرةِ القوّةِ والافتخار. اجتهدوا في سفك الدِّماء، واغتصاب الأراضي والأملاك والحُرُمات. فما كان هناك من مندوحة للميديّين من الردّ، فواجهوا الهجمات بالصَّدّ. وثار صغيرُهم قبل الكبيرِ للأخذ بالثّأر، وبات صوتُ العصبيّة والانتقام، ومن خلفهما موجاتُ الدّم، تحكمُ أهل الطّين. فاستوى عرشي فوق ظهور أتباعي المُخْلِصين.

من جديد ظهرَ نورُ «أهورا مازدا» على أرض المعركة، يحاولُ أن يبدِّدَ ظلامَ الحقدِ والثأر، ويدمِّرَ ما بنيْتُ عبرَ عقودٍ من قلاع الظّلام.

ها هو «زرادوستار» يعتلي فرَسَ النُّور ممسكًا بلجام الحكمة بيد، وباليد الأخرى يُشهرُ سيفَ العلم والرّحمة في أرض المعركة، على عكس أقرانه من الطّرفَيْن. لم يأتِ حاملًا سلاحَ الحقد، متعطِّشًا للثّأر والدَّم، بل أتى بما يحمله في قلبه من رحمة، وفي عقله من عِلْم، كالماء محاولًا أن يُخمدَ نيرانَ الحرب، ويُزيلَ آلامَ المُصابين.

كان يتحرَّكُ بين الجرحى في كلِّ المعسكرات، كنسماتِ الصّيف الخفيفة، تُزيلُ عن كاهل الجنود حرَّ الحرب. ذاعَ سيطُه كالعبير، فطغى بسحرِ رِيحِه على ريح الدّم الذي ملأ أنوفَ الجنود وساحاتِ المعارك.

عرفَهُ الناسُ بغزير علمِه، وطيبِ خُلقِه، وبَثِّهِ المستمرِّ للطمأنينة والثِّقة في نفوس الجنود. كما عُرفَ عنه العطفُ والرَّحمةُ في التّعامل مع كافّة

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

المصابين، ليصلَ فيضُ كرَمِه إلى كلِّ المقيمين عند جانبَي النّهر، الطُّورانيّين منهم قبلَ الميديّين. حتّى الحيوانات نالَها نصيبٌ من فيض رحمته وعطفه وعلمه ودوائه.

عجيبٌ أمرُه! كان يتحرّك صوبَ المرضى والمصابين قبل أن تأتيَه دعوةُ عيادتِهم. مع احتدام الحرب، أضحَتْ سيرتُه العطرة وعلاجُه الفعّال، محورَ أحاديث الجنودِ، ومحطَّ أَنظارِهم من الطَّرفَيْن. كان وجودُه يبثُّ روحَ القوَّةِ والثِّقة في المحاربين من الميديّين، ويُحبِطُ ويَهدُمُ قلاعَ الظَّلام في نفوس الطُّورانيّين، ويبني بدلًا منها قلاعَ الشَّكّ.

إنَّ ولادةَ الرَّحمةِ بين الجنود من الطَّرفين، استوجبَت ولادةَ الشَّكِّ لوأدِ تلك العاطفة الوليدة قبل أن تنمو، فتُطيحَ بمُلكي سريعًا، وتُخمِدَ نيران حربٍ عملْتُ على إشعالها لعقود. فعكفْتُ أُوَسوِسُ في صدور المُخْلِصين من أتباعي إلى أبعد مدى، وأوغلُ قلوبَهم تجاه «زرادوستار». وسرعان ما استجاب لصوتي الصّدى! فبعدما قُطعَتِ السُّبُلُ أمام أتباعي من الطُّورانيّين لقتله في أرض القتال، صارَتِ المكيدةُ هي الحَلُّ في تنفيذ أخسِّ الأعمال.

أغويْتُ أحدَ قادةِ الطّورانيّين، فأنبَتَ ما زرعْتُ في عقلِه من وساوس، كيْدًا عظيمًا. فجاء بأحد البصّاصين وأمرَهُ أن يَعبُرَ النّهرَ في اللّيل، ويتعقَّبَ

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

أثر «زرادوستار»، ويشيعَ في أقرانه والمقرَّبين من الجنود والمصابين أنَّ أحدَ القادة الطّورانيّين به جرحٌ عظيم، ولا يوجدُ على طرف النّهر الآخر طبيبٌ قادرٌ على علاج آلامه أو حتّى التَّسكين، فإن استطاع «زرادوستار» -بما أوتيَ من علمٍ- معالجتَه، لَيكوننَّ له من الشّاكرين. ولهذا القائد من السُّطوة ما يستطيع به أن يوقفَ هذه الحرب إلى حين، أو حتّى يشيرَ على مَلِكِهِ بهدنة توقفُ نزيفَ دم الميديّين. وإنّي لأعرفُ من الطّرف الآخر من هو على العبور به إلى خيمة القائد قويٌّ أمين. فسارِعوا بهذا الخبر لِـ«زرادوستار» لعلَّه يكون لنا من المنقذين.

انتشر الخبرُ بين الميديّين بالسرعة نفسها التي انتشر فيها بين الطُّورانيّين، إذ كان دَهاءُ هذا القائد كفيلًا بأن يَنشرَ الخبر أيضًا بين جنوده، كي يصلَ لجنود «ميديا» عبر بصّاصيهم، فيُغلقَ كلَّ أبواب الشَّكّ، ويفتحَ أبوابَ الطّمأنينة والأمل للميديّين.

وزيادةً في الإحكام، لم يشاركْ كيدَهُ إلّا مع صاحبه البصّاص الذي بقي على طرف النّهر الغربيّ لدى الميديّين، ليضمنَ إتمامَ المكيدة. واستعدَّ القائدُ لاستقبال «زرادوستار» في خيمته، بما هو كفيلٌ بأن يُجهزَ عليه وعلى حِلمه وعِلمه، ويقطعَ سيرته من العالمين.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

ما هي إلّا سويعاتٌ حتّى اجتمعَ نفرٌ من الميديّين حول «زرادوستار»، يُنبئونَهُ بالخبر والبُشرى، وأنّ بين يديه نجاتَهم من ويلات الحرب، وحَقنِ دمائهم، والخلاص من معاناتِهم. فما كان منه إلّا أن استجاب. وبمساعدة أحد القادة الميديّين النّافذين، استعملَ عينًا له لدى الطورانيّين، أكّدَ له الخبر، ونصح بأن يُصبحَ دليلَ «زرادوستار» في رحلته لمعالجة قائد الطورانيّين، فيضمنَ سلامته، ويمنعَ عنه الأذى.

وأردفَ أنَّ سرعةَ التحرُّك ستقضي على أيّةِ فرصة للكيد، وتقلِّصُ وقتَ الاستعدادِ للغدر -إن وُجد- وتساعدُ في إنقاذ ذلك المُصاب.

رافقَ «زرادوستار» الدّليلَ إلى معسكر الطّورانيّين، وما إن عبروا النّهر حتّى لحظَ الدّليلُ عجيبَ تصرُّف رفيقِه، فكان كثيرًا ما يتركه حاملًا حقيبةَ العلاج، ويتوجّهُ إلى خيمات بعينِها، يدخلُها بدون استئذان، فيتبعُه الدّليلُ وجِلًا، وما إن يدخل من خلفِه حتّى يجدَ بين يدَيْ «زرادوستار» مريضًا صعْبَ الحالة، مكتومَ الأنين، يُطبِّبُهُ ويداويه. تكرَّرَ الحالُ غيرَ مرَّةٍ، حتّى تأخَّرَ الوقت، واقتربَ بزوغُ شمس الفجر. فتوسَّلَ إليه الدَّليلُ سرعةَ التوجُّه إلى خيمة القائد المنشود، فاستجابَ بعد إلحاح. ومع اقترابهما من الخيمة دنَتِ الفرحة والبهجة إلى قلبي.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

أي «زرادوستار» الرَّقيق، ابتلعْتَ الطُّعمَ وأتيتَ إلى حتفك مهرولًا. هل ستنجّيكَ رقَّتُك الآن بعدما داويت نصف مُصابي الطّورانيّين في طريقك إلى قدرِكَ المحتوم؟ فبداخلِ هذه الخيمة التي تقتربُ منها، أفعى عظيمة ستحتضنكَ حالما تدخل، تعتصرُكَ وتنفثُ سَمَّها بين عينيك، وتفتحُ بابَ قبرِكَ الأبديّ.

اِقتربْ يا رفيقي، فالمُلْكُ لي، وسيظلُّ لي، ولن ينازعَني فيه أحد.

هيّا يا صديقي اللّدود، الآن تُزَفُّ إلى أرض الخلود. أليس هذا وعد «أهورا مازدا» لكم؟ فلتنعمْ أنت بجنّات النّعيم، وأنا فليستدِمْ لي نعيمُ مُلكي العظيم.

وبعد لحظاتٍ من الثِّقة والنَّشوة والفرح، كان «زرادوستار» على بُعدِ بضع خطوات من الخيمة المنشودة؛ وإذا به يتوقّف، ويسألُ الدّليل إن كانت هذه هي حقًّا خيمةَ القائد المريض، فيجيبُه الدَّليل بالإيجاب والتّأكيد.

ما هي إلّا لحظات حتّى تهاوَتْ أفراحي وأحلامي، وراحت في مهبِّ الرّيح! فها هو يستديرُ بدون أن يبديَ أيَّة علامة، ويعودُ من حيث أتى، وسطَ ذهولِ الدَّليل، وحماية وحفاوة زملاء من عالَجَهم من الجنود الطّورانيّين!

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

وما هي إلّا دقائق حتّى عبَرَ النَّهرَ ثانيةً، وعاد أدراجَهُ وسطَ أهلِه الميديّين سالمًا.

يا ويلاه! كيف نجا بنفسه واكتشف ما حيك له من تدبير؟!

حسنًا «زرادوستار» الرَّقيق، هذا اليومُ لك، أمّا الحربُ فلي، والعزُّ لي، والآن وغدًا المُلك لي وحدي.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

(٧) هانويه

سنواتٌ عجاف

مضَتْ خمسُ سنواتٍ عجاف، سنواتٌ حُفِرَتْ بحروفٍ من دمٍّ ومرضٍ وفقرٍ في تاريخِ أهلِ «ميديا».

وضعَتِ الحربُ أوزارَها بعد أن أحالَت غزارةُ الدَّم المسفوك فيها بياضَ نهرِ «إكسوس» إلى حُمرة. كان أوَّلُ سطلِ ماءٍ يُسكَبُ على نار تلك الحرب، إيذانًا بإخمادها، يومَ ارتدَّ كَيْدُ قادةِ الطّورانيّين إلى نحورهم. يتذكَّرُ أهلُ «ميديا» كيف كادَ ذلك القائدُ اللّعين للطّبيب الشّابِّ الطيِّب «زرادوستار»، وكيف هيّأَ له حقدُهُ وكرهُهُ أن يدبِّرَ لقتله غيلةً وظلمًا.

عالجَ هذا الشّابُّ قلوبَ الجنود -منَ الطّرفَيْن- بالحُبّ، قبل أن يعالجَ أبدانَهم ببراعته في الطِّبّ. سُمعتهُ العطِرَة وحُسْنُ خُلْقِه كانت تبثُّ في نفوس جنودِنا العزّةَ والرغبةَ في الانتصار، وفي نفوس أعدائنا الشّكّ، وتضعُهم على حافَّة الانهيار.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

ويومَ ذهب هذا الشّابُّ تحت رعاية قادة الميديّين لعيادة قائدٍ جريحٍ من الطّورانيّين، وعالجَ في طريقه العديدَ من جنود الأعداء، ألانَ قلوبَهم بعد تحجُّرٍ، وزرعَ فيها الرَّحمةَ بدلًا من القسوة. وعندما كان على أعتاب خيمة القائد اللّعين، فطِنَ إلى المكيدة، إذ لم يكنْ يصدرُ من خيمته أيُّ أنينٍ أو إشارةٍ إلى وجود مريض.

في هذا اليوم كُشفَتْ لنا معجزةٌ تخطَّت إدراكَنا كبشر، وبشَّرَتْ بمستقبلِ شابٍّ ذي شأنٍ عظيم؛ إذ أظهرَت تلك الحادثة أنّ «أهورا مازدا» قد منَّ على «زرادوستار» بآيةٍ فريدة، وأُذُنٍ تُميِّزُ المرضى والمصابين، فيسمعهم عن بُعد ويَهُبُّ لنجدتهم من غير دعوة.

لذلك كان هذا الشّابُّ دائمًا سبّاقًا في الذّهاب إلى المرضى لتطبيبهم من دون دعوة، إذ يشعرُ بهم ويسمعُ أنينَهم، وهذا سبب اقتحامه خيامَ الأعداء لتطبيب مرضاهم في طريق ذهابه للقاء القائد المُخادع.

وبفضل هذه المعجزة والآية، فطِنَ الشَّابُّ للمكيدة، وعَلِمَ أنّه مكرٌ دُبِّرَ له للنّيلِ منه ومن الميديّين، فولّى مُدْبرًا إلى جانب النّهرِ الغربيّ ولم يُعقِّب. وحينَ علِمَ القادةُ أنباءَ ذلك الغدر والتدبير اللّئيم، وخلاص «زرادوستار» بمعجزة، بثَّتْ فيهم تلك الأنباء، وفي جنودهم، روحَ الإصرار على الانتصار والانتقام، ورَدِّ ذلك العدوان. فقوِيَتْ شوكةُ الميديّين بعد ضعف، وانكسرَتْ

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

نفوسُ أعدائنا لِما ارتدَّ في نحورهم من غدر، وانقلبَتِ الحربُ لصالِحِنا، إذ تقهقرَ المعتدون إلى أراضيهم، وخمدَتْ نارُ الحرب إلى حين.

لم تكنْ أهوالُ الحربِ كافيةً لإشباعِ أهلِ «ميديا» من الويلات، فبعد سنين من الحرب والدّم والدَّمار، أبى نهر «أكسوس» أن يستعيدَ بياضَ مائه من جديد، بل جفَّ وجفَّت كلُّ الأنهار في أراضي «إريانا فيجا»، وقبضَتِ السَّماء عنّا مطرَها، فماتت في الأراضي المحاصيلُ والزُّروع، ونضبَ عند الماشية الحليبُ من الضُّروع.

فانتشرَ الجوعُ والفقرُ والعوَز، وراحَ النّاسُ يذوقون ويلاتِ الموت من جديد. وتحت موجاتِ العذاب العاتية، بعد حربٍ ودمارٍ ومجاعة، واصلَ الفتى إيّاه، بالهمّة والبراعة ذاتِها، بثَّ الأمل والاطمئنان بين عامَّةِ الناس، ومعالجةَ من استطاع أن يصلَ إليه من المرضى. فكان «زرادوستار» للناس -من جديد- كطوق النّجاة، يأخذُهم من ظُلُماتِ بحرِ المرضِ وموجاتِه العاتية إلى برِّ الشِّفاء والطُّمأنينة.

وبعدَ طولِ انتظارٍ وعناء، بسطَتِ السّماءُ ما كانت قد قبضته من قَبْلُ من أمطار، وفاضَتْ بالماء الأنهار، فعادتِ الأرضُ لتُنجبَ الزّروعَ والأشجار، وطالَتْ أيدي أهلِ «ميديا» -من جديد- حلوَ الثِّمار.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

إذًا فاضَ الخير، وعمَّ الرّخاء، وسكنَتِ الآلام، وامتلأتِ البطون. ها هي السُّنون السِّمانُ تتبع، وتَجُبُّ ما سبقها من سنواتٍ عجاف.

اِنقضَتْ خمسُ سنواتٍ من الويلات التي ما لها عدٌّ ولا حدّ، كان خلالها بريقُ نور «زرادوستار» هو بصيصُ الأملِ الوحيد لكافّة أبناء «إريانا فيجا».

وصلَتْني حكاياتُه وبركاتُه -كحال الجميع في موطني- فقد كان ذكرُه وعِطرُه يملآن أجواءَ الأحاديث في كلِّ بيت وكلِّ مكان يدور فيه رحى الحديث.

زارَ أحلامي غيرَ مرّة، كغيري من الفتيات أترابي، اللّواتي يتطلّعنَ إلى قدوم الزّوج والحبيب. أتاني ليلةً تلو ليلة، تحملُهُ رياحُ الشَّوق والإعجاب، ليعالجَ ببراعته قلبي العليل، وما به من داء غيرُ الاشتياق والحنين، لرجلٍ نصَّبَتْه سيرتُه فارسًا لأحلام كلِّ فتاةٍ، بحُسْن خُلْقِه وطيبِ ذكره بين النّاس أجمعين.

لم تكنْ بطولتُه كأقرانِهِ من الشَّباب، بالسَّيْف والصَّرعة، وإنّما كانت بالرَّحمةِ واللّين والرِّقَّة، وحُسْنِ الخُلْق والصَّنْعة، فزادَ اختلافُهُ وتفرُّدُه بَريقَهُ بريقًا.

كَسَّرَ الشَّوْقُ المشتعلُ داخلي لتحرّي أخبارِه حاجزَ الخجل، ورحْتُ أُطوِّفُ على حلقاتِ ومجالسِ ذِكْرِ حكاياتِه وسيرتِه، على غير عادتي؛ فقد

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

كنتُ خجولة، أتوقُ إلى العزلة والهدوء، فضلًا عن اجتنابي مجالسَ النِّساء، لما تحمله من فتنةٍ وكذبٍ ورياءٍ في بعض الأوقات.

تعلَّقْتُ بأخباره تعلُّقَ الرَّضيع بصدر أمِّه، إذ كانت أخبارُه مصدرَ غذاءٍ لروحي، كما الحليب للرّضيع. وكانت أيضًا مصدرَ أمان، كما حضن الأمِّ للطِّفل يمنحُهُ الأمانَ والاطمئنان.

كانت كثرةُ الأخبارِ المتداوَلَة عنه وقتَ الحربِ والمجاعة، مصدرَ الإشباعِ لروحي، والإمتاعِ لعقلي. فكنت أتغنّى بما رسخ في ذهني -بعد طول الإنصات والسَّمع- كما يتغنّى الطِّفلُ الرَّضيع بعدما يفرغُ من الرِّضاعة، ويتذوَّقُ حلاوة الشَّبع. وصارَ خيالي يُسابقُ أذنيَّ في رسم صورةٍ لذلك الشابِّ الفريد، فأتخيَّلُه -في صحوي ومنامي- يفعلُ المعجزات، وبعلاجه يوقفُ الأنّات. رسمَ له خيالي أكثرَ من هيئةٍ وصورة، ودخل قلبي حلبةَ السِّباق، فصارَ يَخفقُ لذكره، ويشتاقُ لشكله وكسمه، ويُحبُّ وصفَهُ واِسمَه.

في هذا الوقت، لم أكنْ أعلمُ أهذا حالي وحدي، أم تشاركُني باقي الفتيات المشاعرَ والأفكار ذاتَها؟ فحبسْتُ في نفسي ما كان يدور داخلي، وكتمْتُ شوقي وانشغالي، وتركْتُ خيالي يصولُ ويجولُ في مستحيل الأماني.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

ولكن، مع انحسار الحرب والمجاعة، قلَّت أخبارُهُ ونَدَرت؛ فثار خيالي وقلبي وعقلي كما يثورُ الرَّضيعُ عند الجوع. وبتُّ أَخرُجُ مع طلوع كلِّ شمس إلى الشّوارع والحارات، أُفتِّشُ عن اسمه في ما يَنطقُ الناسُ من كلمات. آهٍ من الإنسان والنِّسيان! أحقًّا سُمِّيَ الإنسان إنسانًا نسبةً لأنُسه برفاقه من البشر، أم أنَّ اسمَه من مشتقَّاتِ النِّسيان؟!

كان انصرافُ النّاسِ عن سيرته، واهتمامُهم بواقع أحوالهم بعد سنينِ الحرب والمجاعة، مفاجئًا وعجيبًا! فكيف يقاطعون وينسَوْن من كانت سيرتُه مِلءَ أفواههم وآذانهم لسنين؟! ولكن، يبدو أنَّ هذه هي طبيعة الإنسان!

انتظرْتُ أن تجتاحَ عدوى النسيانِ تلك قلبي وعقلي، ولكنَّ كلَّ جوارحي أبت أن تنسى، وآثرَتِ الاشتعال بنار ذكراه العطِرة وأمَلِ لقائِهِ المستحيل. وأيُّ مستحيلٍ يبقى كذلك، أمام ما يُعِدُّ القدرُ من أفراح وأتراح؟!

فبينما كنت في سريري أتقلَّبُ على جمر الاشتياق، إذا بجلَبَةٍ غير معتادة خارج غرفتي؛ فدفعني الفضولُ لأخرجَ وأتحرّى ما يجري. وما إن خرجْتُ حتّى وجدْتُ أبي يذكرُ «زرادوستار»، فانطلقَ اسمُه كالسَّهمِ ليصيبَ قلبي! حاولْتُ أن أُخفيَ ما انتابَني من لهفةٍ وفرحةٍ وأنا أجلسُ

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

بين يدَي أبي أستقي ما عنده من أخبار «زرادوستار»، لعلّي أُشبعُ جوارحي بسيرته من جديد.

كان الخبرُ هديَّةً من القدر، وهو أنَّ عائلةَ ذلك الشاب اليافع قد اختارت بلدتنا للإقامة، وذلك لما لها من مكانة، ففيها المعبدُ الكبير، ومنها تُدارُ أمورُ «إريانا فيجا» الدينيّة كاملةً. اختاروها ليتسنّى لـ«زرادوستار» تحصيلُ المزيد من العلم من علماء بلدتنا، وأيضًا ليُتاحَ لمزيد من الناس الانتفاعُ بعلمه وحكمته وطبّه.

لم يتوقَّفْ سيلُ مفاجآتِ أبي السَّعيدة عند هذا الحدّ، بل زادني أنّهم اختاروا بيتًا يجاورُنا للسّكن! وهنا قفزَ قلبي متحرِّرًا من مكمنه، ليعبرَ بابَ الدّار ويجوبَ حولَها لعلّه يرى سجَّانه للمرّة الأولى.

لم يكنِ الحظُّ حليفي في الأيام التالية، على الرغم من محاولاتي المستميتة والمستديمة في أن تحظى عيناي بمطالعة وجهه ولو عن بُعد، فكلُّ هذه المحاولات كان مصيرُها الفشلَ. تخيَّلْتُ أنَّ القدرَ قد قبضَ يدَه عنّي بعد بسط، وأصابَني فشلي بالهمّ، فأعرضْتُ عن تناولِ الطّعام إلّا القليل، وجافى النَّومُ عينيَّ إذ حلَّ محلَّهُ السُّهاد، بسببِ تلاطُمِ الأفكار في رأسي، وأنينِ جسدي طلبًا للرّاحة والزّاد. وكنت على وشك الخروج كي

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

أمارسَ عادتي اليوميّة في البحث عن ظِلّه، حين تهاوى جسدي وأنا أخرجُ من باب الدّار، ولم يعدْ يستجيبُ لتوسُّلاتِ عقلي بالصُّمود. فاسودَّتِ الدُّنيا من حولي، وتهاويْتُ فاقدةً الإحساس بالزّمان والمكان.

نفذ عطرٌ خلّابٌ من أنفي مباشرة إلى كلّ خلايا مُخّي، مُنبِّهًا جفوني لتستيقظ. فتحْتُ عينيّ وإذا بي أُطالعُ البدرَ بجماله وضيائه! لم يكنِ القدرُ يتلاعبُ بي، ولم يتخلَّ عنّي -كما خُيِّلَ لي- بل كان حُسْنُ تصريفه يفوقُ كلَّ توقُّعاتي وأحلامي!

إنّه «زرادوستار»! أضاءَ نورُهُ سماءَ غرفتي، وملأَ وجودُهُ حيِّزَ الزَّمان والمكان. أسرَتْني ملامحُه السّاحرة، فأردَتْني صريعةَ نظراتِه وتفاصيلِه؛ فما إن أفقتُ من غَشْيَتي حتّى غشيَني حضورُهُ الأخّاذ من جديد، ففقدْتُ الإحساسَ بأيِّ شيءٍ سوى وجودِه.

لم يكنْ وصفُه يطابق ما كان خيالي قد رسمَهُ، فنحن البشرُ يمكنُنا أن نتخيَّلَ من يُشبهُنا من البشر، أمّا هو فكان من فصيلٍ وجنسٍ آخر؛ بياضُ وجهه وما يُشعُّ منه من نور ملائكيّ، ملامحُهُ الدَّقيقة الرَّقيقة التي لا تخلو من قوَّةٍ ورجولة، شعرُهُ الأسودُ الكثيفُ المموَّجُ الذي يشقُّ خصلاتِه لونُ الذَّهب، لحيتُه المنمَّقَة وجسدُهُ الفارعُ الممشوق! كان رجلًا ملاكًا، بكلِّ ما تحملُهُ كلمة «ملاك» من معانٍ.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

«زرادوستار»، من سواه بمثل هذه الخِصال؟! عرفتُه قبل أن يُعرِّفَني بنفسه أو أن ينطقَ فمُه بكلمة. دارتِ الأفكارُ في عقلي سريعًا، فأدركْتُ أنّه حين سقطْتُ مغشيًّا عليّ عند باب الدار، استدعاهُ أبي لينقذَني ويداويني، ولم يكنْ يعلمُ أنَّ حضورَهُ وحدَهُ سيُنقذُني من زخّات عذاب الشَّوق التي كانت تحطِّمني لشهور.

تأمَّلتُهُ طويلًا وهو يفحصُني ليعرفَ ما بي من عِلَّة، وكنت أنتظرُ بفارغ الصَّبر أوَّلَ سهام فمه التي ستصيبُ قلبي؛ لكم خشيتُ أن ترديَني سهامُهُ تلك صريعةً من جديد. لم يكن خوفي على حالي، وإنّما كان خوفًا من أن أفقدَ بضعَ ثوانٍ بوجوده، فلا أشعرَ به عند فقداني الوعي.

بادرَني بالسؤال، ولم تكنْ كلماتُه -كما توقَّعْتُ- سهامًا، بل كانت أنغامًا:

«زرادوستار»: يا ابنةَ عمي، ما لكِ يتملَّكُ الضَّعفُ من جسدِكِ النَّحيل؟ لماذا استسلمتِ للهمِّ وهجَرتِ الطعام؟

عجِبْتُ من سؤالِهِ، كيف عرفَ هذا عنّي ولم أخبرْ بحالي أحدًا؟! ولمحَ هذا العجبَ من دون أن أتكلَّمَ، فأكملَ:

«زرادوستار»: إنَّ بياضَ عينيكِ يَميلُ إلى الصُّفرة، وجسدَكِ نحيلٌ للغاية، ممّا يَدلُّ على أنَّكِ هجرْتِ الطَّعامَ منذ فترة. أمّا محيطُ

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

عينيك فمنتفخٌ، واصطبغَ بياضُهُ بالسُّمرة، وهذا دليلٌ على الهمِّ الكبير، والسَّهرِ ليلًا، وكثرةِ التفكير.

كان يتكلَّمُ والابتسامةُ لا تفارقُ وجهَه، وإن كان يشوبُها القلقُ والرِّثاءُ على حالي. فمنحتني ابتسامتُهُ الطُّمأنينة، وشجَّعتني على مبادلته الحديث، فقلت له بدون تفكير:

«هانويه»: إنَّ الأحلامَ إذا ما كانت بعيدةَ المنال كانت كالبركانِ الخامد، وكلَّما اقتربَتْ من باب صاحبها، يثورُ البركان في قلبه وعقله، قاذفًا داخلَهُ حِمَمَ القلقِ واليأس والإحباط. فإذا ما تحقَّقَتْ تلك الأحلامُ ودخلت بابَ واقعه، عادَ البركان إلى سكونِه، في انتظار أحلامٍ أخرى وثورات أعنف.

تعجَّبْتُ ممّا قلت، وكذلك الحاضرون من أهلي، مع اختلاف أسباب العجب؛ فقد كنت أتعجَّبُ وأتساءلُ كيف جرى هذا الكلام على لساني بتلك السُّهولة، على الرَّغم من ارتباكي؟! وكان عجَبُ أهلي بسبب عدم فهمهم لحديثي، وشكِّهِم في مدى إدراكي.

أمّا «زرادوستار» فقال وهو محافظٌ على ابتسامته:

«زرادوستار»: يحوِّلُ العَجَلُ والجزعُ الأحلامَ إلى كوابيسَ هدّامة؛ أمّا بالصبر والتأنّي فتتحقَّقُ الأحلام، وتتلاشى الأوهام.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

كانت كلماتُه -على قِلَّتِها- تُوْقِفُ نزيفَ جروحِ قلبي وتُداويها، وتَكسِرُ أمواجَ الهمِّ العاتية في عقلي، وتَمحيها.

لكَم تمنَّيْتُ أن يطولَ حديثُنا إلى يوم الدّينونة. ولكنّه سرعان ما أوصاني بتناول المُفيد من الطعام، والاستعانة على الهمِّ بالصبر. ووصفَ لي بعضَ الأعشاب التي تساعدُني على النَّوم وتفتحُ شهيّتي، ثمَّ غادر!! ليثورَ بركانٌ جديدٌ في قلبي، ولكنّه هذه المرّة أشدُّ عُنفًا وأكثرُ تدميرًا.

في مساء اليوم نفسه أتى أبواه لزيارتنا وعيادتي، فتوطَّدَتْ أواصرُ الصَّداقةِ بين عائلتَيْنا، وصارَتْ أمُّهُ تُمضي الكثير من الوقت معنا. وتَسنّى لي في تالي الأيّام، الاستزادة من مطالعة «زرادوستار». وبعدما كان حلمًا بعيدَ المنال وتحقّق، دبَّ عشقُهُ في قلبي، كما يدبُّ الجنينُ في رحِمِ أمِّه، وأصبحَ حلمًا جديدًا يكادُ يكونُ مستحيلَ الحدوث؛ مستحيلٌ لما لمسْتُ من انشغال حبيبي بالنّاس والعِلم، حتّى عن نفسه وأهله. فجُلُّ همِّه تحصيلُ العلوم، وتبديدُ الآلام والهموم.

ولكن، هل سيظلُّ المستحيلُ صامدًا أمام تصاريف القدَر؟!

صارَتْ رؤيةُ «زرادوستار» مِلحَ حياتي وسكَّرَها؛ فبمروره أمام عينيَّ يحلو مُرُّ الحياة. وبتتابعِ الأيّام، أصبحَتْ حركةُ الجنين بداخلي أكبرَ من

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

احتمالي، وأصبحَ يستنزفُ طاقتي وروحي وقلبي؛ صارَ يُصارِعُني للخروج إلى الحياة، وفَضْحِ أنّي حُبلى بعشقِ «زرادوستار»! يبدو أنّه المخاض، وأنَّ ولادةَ تلك المشاعر وانكشافَها أمام النّاس صارت حتميَّةً وقريبة.

وكما كانتِ العادةُ في الشُّهور الماضية، كنتُ مع أمّي نُمضي الوقت سويًّا بين يدَيْ السَّيِّدة «دوغدوما» في صحن الدّار، فإذا بها توجِّه بُوصَلَة الحديث صَوْبي.

«دوغدوما»: اِبنتي «هانويه» الغالية، لقد استحوذْتِ بحُسْنِ خُلقِك وحيائِك وجمالِك من قلبي على عظيم المكانة. وما لمسْتُه من كرَمِ أهلِكِ وودِّهم وإحسانِهم، شجَّعني أن أحدِّثَ والدتَك في أمرٍ مهمّ، وكان ردُّها إيجابًا على ما طلبْت، نِعْمَ الحافز لأنفِّذَ ما اتَّفقْتُ معها عليه، وأفتحَ معكِ الموضوع نفسَه، آملةً أن ألقى منك أيضًا القبول. بدون مقدِّماتٍ أخرى، لا أرى مَن هي أجدرُ منك لتكونَ زوجةً لابني، ولا نرى أفضلَ من «زرادوستار» لك زوجًا، فماذا تقولين؟

من جديد تهاوى المستحيلُ أمامَ تدابير القدرِ وأفعالِه، وصارَ المستحيلُ جائزًا!

لم أتمالكْ نفسي من فرط المفاجأة! وعلَت وجهي حمرةُ الخجل، وأساريرُ الفرحة، وانتابت جسدي الرِّعْدَة، ففررْتُ من بين يديْها إلى غرفتي. لقد كان عرضُها مفاجأةً لا أقوى على استيعابها!

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

في خلال أيّام، دخل الحلمُ حيِّزَ الواقع، واقتربَ يومُ زواجي من حبيبي وعشقي وحلمي الوحيد. فبعد بضعة أيّام سيربطُني به رباطُ الزّواج المقدّس الذي يستحيلُ حَلُّه.

آن لقلبي أن يفرحَ، ولعقلي أن يستريح. ها هي آمالي تتحقَّق، وسيضيءُ «زرادوستار» عتمةَ حياتي، ويُداوي آلامَ لوعتي وأشواقي.

سيجمعُنا بيتٌ واحد، وحلمٌ واحد، بل حياةٌ واحدة.

أيّامٌ وسيكونُ مُلكي وحدي، ويستحيلُ على من يملكُ كلَّ هذا العشق لـ«زرادوستار» أن يُفرِّطَ فيه بقيَّة عمره، ولو للحظة.

ولكن، كالعادة، هل سيبقى المستحيلُ صامدًا أمامَ ضرباتِ القَدَرِ وأفعالِه؟!

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

(٨) زرادوستار

زرادوستار و السَّمّ

لا إله؟!!

- أأزليٌّ هذا الوجود، أم من العدم أنشأهُ واجبُ الوجود؟!!

- ولو أنّه الواجب، أهو واحدٌ؟!!

نوبةٌ جديدةٌ تُخمِرُ بصري، بل إنّها نَوَّةٌ تجتاحُ جوارحي وعقلي. ففي بحر الدِّياناتِ الفاسد الذي يُسَيْطرُ عليه قراصنةُ الدّين «كهنةُ المعبد»، حمَلَتْ رياحُ الشَّكِّ الصَّرْصَرُ العاتية موجاتِ العقائدِ والعباداتِ والمعبودات، لتتكسَّرَ على صخور الإنكار في شطآن قلبي الذي يمقتُ هذه المعتقدات الفاسدة، المُنافية للعقل والقلب والجوارح وحتّى للفطرة.

نَوَّةٌ لبَّدت فيها غيماتُ الكُفرِ سماءَ عقلي، فأغمضْتُ عينيَّ من شدَّة سنا برقٍ يحاولُ أن يُنيرَ ظلماتِ الجهل، ووضعْتُ أصابعي على أذنيَّ خوفًا من صوت رعدٍ لا يعلو على دقّاتِ طبول حربِ الآلهة التي لا تنتهي.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

فأمطرَتْ غيماتُ الكُفر زخّاتٍ من الرّفض لواقعٍ فرضَ علينا معايشتَه، في أرض لا يحرثُها إلّا كهنةُ المعبد، ويزرعونها ببذور الفُرْقة، وعقائدِ التعدُّد والجهل، فلا تُنبتُ من هذا المطر إلّا الظُّلمَ والظَّلام.

أما لهذه النَّوَّة من نهاية؟! متى تنقشعُ تلك الغيماتُ الثِّقال، وتُشرقُ شمسُ الحقّ، ويضيءُ نورُ الإيمان سماءَ عقلي وقلبي؟!

لا أتذكَّرُ متى تجرَّعْتُ أوَّلَ جُرعةٍ من سَمِّ الشَّكّ، ولكنّي أتذكَّر جيِّدًا أعراضَ انتشار هذا السَّمِّ في روحي؛ كانت أولى الأعراض، «الوحشة». فقد استوحشْتُ دروسَ ونقاشاتِ الدّين، لِما تحملُهُ من جدلٍ كبير، ومنطقٍ يَحيدُ عن الاستقامة.

كان الحديثُ عن الآلهة مُربِكًا مع اختلاف معتقدات أقراني، لِما يُحدثُه هذا الاختلاف من تنافُرٍ في ما بينهم. فمنهم من هم مثلي، يحملون كلَّ الولاء لـ«أهورا مازدا»، ومنهم من كان يرى «أهريمان» أعظمَ الآلهة، لما له من قدرة على التّدمير، ومنهم من يغالي في تقديس النّار حدَّ العبادة، وآخرون يتعبَّدون للشمس والقمر والكواكب والرّيح والماء؛ حتّى الحيوان والإنسان والحجر كان لهم نصيب من التّقديس حدّ العبادة.

في خضمِّ هذا التعدُّدِ، تشتَّتَ فكري، ولم تخلُ دروسُ الدّين من التطرُّق إلى هذا الكمِّ من العقائد، والعبادات لآلهةٍ صار إحصاؤها من المُعْضِلات.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

فبعد «الوحشة» أصابني «النفور»، وزَهِدْتُ في دروس الدّين وأحاديثه، وكرَّسْتُ وقتي كلَّهُ لعلوم الطّبِّ والزِّراعة وغيرها. ولكنَّ هذا الزُّهدَ لم يرفعْ عن عاتق عقلي حِمْلَ التَّفكير في الدّين والآلهة، وصرت أتساءل:

- لماذا هم آلهة كُثُر؟!

- من فيهم صاحبُ الأمر والنهي؟

- كيف تعاونَتِ الآلهة في الخلق؟ أم أنَّ الخالقَ واحدٌ؟!

- وإن كان الخالقُ واحدًا، كيف يسمح لمن خلَقَه بيديه أن يشاركَه في حكمه؟!

- وإن لم يكنْ هو قد خَلَقَ نُظَراءهُ من الآلهة، كيف يُعطيهم الحقَّ في حُكم ما خَلَقَ؟!

- وإن كانوا أكثرَ من خالِق، لمَ لا ينفردُ كلُّ خالقٍ بخلقِه؟

- وإن كانوا أكثرَ من إله، كيف لا يتنافسون ويتحاربون كما تتنافسُ ملوك الأرض؟!

كانت تلك قطرةً من بحر أسئلةٍ أغرقَتْ عقلي لشهور. وحين استشعرْتُ أنَّ هذه الأعراض تُسيطرُ على عقلي، بدأْتُ أبحثُ عن تِرياقٍ لهذا السَّمّ. فاجتهدْتُ في باقي العلوم لعلّي أتناسى تلك الأسئلة المحيِّرة، ولكن هيهات! فلجأْتُ إلى شيخي، لعلّي أجدُ عنده التِّرياق.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

وعندما صارحْتُهُ ببعض ما يدورُ في خَلَدي، كان ردُّهُ عجيبًا، ولم يزِدْني إلّا حيرة! فقد قال لي والابتسامةُ مرتسمةٌ على شفتيه:

«بورجين كورس»: أنتَ وحدك رُبّانُ سفينةِ الإيمان في بحر الشَّكّ، وعقلُكَ وحدَه هو البُوصَلة التي ستَهديكَ إلى برِّ اليقين؛ فافرُرْ إلى نفسك، واطرحِ الأفكارَ والأشرارَ عن سفينتك، لتنجوَ بنفسك وذاتك، وتصلَ سالمًا إلى وجهتك.

وعندما تُرخي أشرعةَ سفينتِكَ عند مرسى جزيرةِ ذاتِك، اِهبطْ وحدَكَ، واستكشفْ تلك الجزيرة البديعة؛ نقِّب في أرضها، وحلِّقْ في سمائها، واستكشفْ ثمارَها وحدك. هناك إذا ما بحثْتَ بجِدٍّ، ستجدُ التِّرياق الشّافي، ولكلِّ سؤال أرَّقَكَ ستجدُ الجوابَ الوافي.

عمِلْتُ بجِدٍّ لأُنفِّذَ وصيَّةَ شيخي، ولكنّي لم أصلْ إلى التِّرياق الشّافي لهذا السَّمِّ الذي يَسري في جسدي. وبمرور الأيّام والأحداث والدُّروس والعلوم، كانت تَزيدُ أعراضُ السَّمِّ في عقلي، فيُفرزُ أسئلةً أكثرَ تعقيدًا، استحالَت على عقلي الإجابةُ عليها. فتملَّك الشَّكُّ منّي في كلِّ ما تطالعه عيناي، وصرْتُ أتساءل:

- كيف كان الخَلْق؟ وممَّ كان؟ ومتى وأين كان؟

- وإن كنّا مخلوقاتٍ، فمَن خلقَ خالقَ المخلوقات؟

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

- وإن كان لكلِّ شيءٍ نهاية، ألهذا الخالق أيضًا نهاية؟

- أين يوجد هذا الخالق؟

- كيف يسمعُنا إن ناجيناه؟

- أتسمعُ الأصنام؟ أللرياح والنّار والشّمس والكواكب آذان؟

- لِمَ تحتاجُ الآلهةُ للصّلاة والعبادة والقرابين، وهي من خلقَتْنا وخلقَتْها؟!

- أحقًّا خُلقنا؟!

تملَّكَ الشَّكُّ منّي حتّى خشيتُ أن أصارحَ شيخي بما يُنازع نفسي من شكٍّ، خوفَ أن يطردَني ويحسبَني مختلًّا مُهَرْطقًا. واكتفيْتُ بإثارةِ بعض التلميحات ممّا صرَّحْتُ له به سابقًا، فما وجدْتُ عنده غيرَ إجابتِهِ الأولى.

وعندما أتممْتُ سنيني الثمانيةَ معه، انطلقْتُ أجوبُ البلدانَ من حولي، مُنَقِّبًا عن كلِّ عالِمٍ معروفٍ أو غيرِ معروف، بحثًا عن تِرياق السَّمِّ الذي تمكَّنَ منّي. ولكن، من دون جدوى! كانت إجاباتُهم أقلَّ من أن تَشفيَ غليلي أو تُخمدَ نارَ عقلي.

وقبلَ أن أُبحِرَ في جولةٍ جديدة بحثًا عن التِّرياق، اشتعلَتْ نيرانُ الحربِ بين الطّورانيّين وأهلي، وراحَتْ تلتهمُ الشّبابَ والرِّجالَ من الطّرفين، قاذفة عليهم حِمَمَ الذُّلِّ والفقْدِ والألم.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

هَرَعْتُ إلى جبهة القتال أنصرُ أهلي بما تعلَّمت من طِبّ، وهناك كان حجمُ الأهوال والمآسي أكبرَ من أن يسمحَ لعقلي حتّى بالتفكير بشيء خارجَ نطاقِ استيعابِ تلك الأهوال، وكيفيّة التعامل معها.

مرَّتْ سنونُ الحرب تاركةً في نفسي جروحًا لا تندمل، وذلك قبل أن تهدأ نفسي وأُلملمَ شتاتَ عقلي المرتبك.

ثمَّ ضربَتِ المجاعةُ والجفافُ كلَّ بلاد «ميديا». وبعدما شهِدْتُ أهوالَ الحرب، رحْتُ أطوف القرى والبلدان، لأشهدَ نوعًا آخرَ من الآلام والأهوال... فحاولْتُ مرَّة أخرى أن أمحوَ الألمَ بالأمل، والدّمعةَ بالبسمة، وأخفِّفَ عن النّاس بالطّبِّ آلامَ المرض.

كانت كمِّيَّةُ الشُّرور التي شهِدْتُها في تلك السّنوات العجاف، من حربٍ وجفاف، مزلزِلة حقًّا! وما إن شرعَ عقلي يسترجعُ ذكرياتِ تلك السّنين، حتّى سرى في شراييني سَمُّ الشَّكِّ من جديد، وسيطرَ هذه المرّة على كلِّ ما أوتيتُ من جوارح.

وكان العرْضُ الأبرزُ لهذا السَّمِّ، في تلك المرحلة، «الإنكار»!

- هل تخلَّتِ السَّماءُ عن الأرض؟

- ما الدّاعي لكلِّ هذا العذاب؟!

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

- تحتَ رعاية أيِّ إله هذا الخراب والدَّمار؟

- كيف ترضى الآلهةُ عن هذا الكمِّ منَ القتل وسفْك الدِّماء؟

- أَلَمْ تعتبرْ كلُّ الأديان أنّ الدّمَ كلَّه حرامٌ؟ تحت أيِّ شريعةٍ تُستحَلُّ المحرَّمات وتُسفَك الدِّماء؟!

- كيف تَتركُ الآلهةُ طواغيتَ الأرضِ تحكمُ كالآلهةِ في الأرض؟!

- أَنَصَّبَتْ آلهةُ السَّماء آلهةً للأرض من البشر؟

- إنَّ طواغيتَ الأرضِ يَسفُكون الدِّماء، ويستحلّون الحرُمات، ويَنهبون الأراضي والثَّروات... فأين هم من عدالة السماء؟

- كيف تُرسلُ إلينا السّماءُ الأوبئةَ والأمراضَ والمجاعاتِ والمِحَن، ونحن مخلوقاتُها الضَّعيفة؟! ألسنا أَوْلى برحمتها من عذابها؟

- أحقًّا هناك آلهة في السماء؟!!!

قال لي معلّمي ذات يوم: «تأمَّلْ في ذاتك تجدِ التِّرياقَ والدَّواء.» إلّا أنّ تطلُّعي إلى ذاتي ما زادني إلّا شكًّا فوق شكّي، وما فرَّجَ همّي بل ضاعفَ غمّي.

آآآآآه!!!...

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

يا إلهي أنت ملجئي ولا مفرَّ لي منك إلّا إليك. أرهقَني الشَّكّ، وتثاقلَتْ عليَّ أسئلةٌ وأفكارٌ لا طاقةَ لي بها. شكوكٌ كالسُّموم تسري في فكري مجرى الدَّم في العروق؛ يتخبَّطُ عقلي كالمحموم من أثَرِ تلك السُّموم، حتّى صار «على شفا جُرُفٍ هارٍ»، إذ أكادُ أتهاوى في هُوّة الكُفر.

الكُفر، الإنكار، الشَّكّ، العُزلة، الوِحشة...

الرّحمةَ يا إلهي! أرشدْني إليك، مُنَّ عليَّ بقَبَسٍ من نورِكَ العظيم ليُنيرَ طريقي. اِهدني إلى التِّرياق يا خالقَ الدّاء والدّواء، تِرياقٍ شافٍ من سَمِّ الشَّكِّ اللّعين.

إلهي، نفِدَت مِنّي الحِيَل، وأُغلِقَتْ في وجهي السُّبُل، وما لي من سَنَدٍ غيرَكَ، فبعزَّتِكَ وبكَ وحدَكَ أستعين، فاهدِني صِراطَكَ المستقيم، وجنِّبني سُبُلَ المغضوبِ عليهم والضّالّين. يا ربَّ العالمين!

لم يكنْ سوءُ حالي ليخفى على أبي، رغمَ اجتهادي وعملي الدؤوب على كَتْمِ ما يدورُ داخلي من صراعات. وقد واجهني غيرَ مرَّة بالعديد من الأسئلة، علَّهُ يحصُلُ على إجابة تَشفي غليلَه وتُزيلُ قلقَه، ولكنّه لم يتحصّلْ عليها. وكانت نظراتُه القلقة تُشعل النّارَ في قلبي، وتَزيد إلى همومي همًّا جديدًا.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

زرادوستار والحُبّ

الرّحمةَ يا إلهي...

كنتُ أعملُ بجَهدٍ في علاج أهل القرية الجديدة التي انتقلنا إليها بعد انقشاع همِّ المجاعة. وخصَّصْتُ أيّامًا من أسبوعي للتّجوال في القرى المجاورة، أُداوي مرضاها، وأزورُ علماءَها لعلّي أجدُ عندهم ما يَشفيني.

ويبدو أنَّ أبي كان يُناقشُ أمّي حول ما حلَّ بي من اضطراب. وفي صبيحة أحد الأيّام كشفا لي عمّا خلَصا إليه من تدبير. فبعد نظراتٍ تتأرجحُ ما بين الودِّ والحُزن، تملّكَتْ أمّي زِمامَ المبادرة بالحديث:

«دوغدوما»: وليدي الحبيب الوحيد، لا يَخفى عليك أنّكَ أنت النّور الذي يضيء لي ولأبيك دروبَ الحياة الحالكة، وأنت السَّنَدُ لاقتحام دروبِها الوعرة.

وما نُسديه إليك اليوم من نصيحة ليس إلّا بدافع الحبِّ والخوف. الحبّ -وقد حدَّثْتُك عنه- ما هو بخافٍ عنك، أمّا الخوف -يا وليدي- فلا أُخفيك سرًّا، إنّي أشعرُ قبلَكَ بألم الشّوكة إذا ما شاكَتْك، فما بالُكَ

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

بما حلَّ بك خلال الفترة الماضية من همٍّ واضطراب؟! أخافُ عليك -أنا وأبوك- حدَّ الموت، ممّا اعتراك. وحسبُنا أن نفتديَكَ بأرواحِنا لتعودَ إلى سابق عهدك من فرحٍ وبهجةٍ وسكينة. لسنا هنا لحسابٍ أو لومٍ أو عقاب. نحدِّثُكَ اليومَ ابتغاءَ المشورةِ والنَّصيحة، وخلَصْنا بعد عدّة نقاشات إلى أنَّ الحلَّ في زوجة تُؤنِسُ وحدتَك، وتملأُ صَدَعَ قلبِك بالحُبّ، وتدفئُ حياتَك بالوِدّ؛ تكون لك سَكَنًا وعونًا، وتُزيِّنُ حياتَكَ بالبنين والبنات، ويا لها من زينةٍ وبهجة، يا وليدي لو تعلم!

أي وليدي الحبيب، الزّواجُ منجاةٌ من الفتن، وللشّريد خيرُ سكَن، ودواءٌ لكلِّ علّةٍ في القلب وكلِّ آفةٍ في العقل.

كانت الخطَّةُ مُحكَمَةً، وقضى الهجومُ على كلِّ فُرَصِ المقاومة؛ تَحالفَ حُسْنُ التّدبير وحسنُ الحظِّ مع مخطَّطِ أمّي، فتوافقَ مع ما وَقَرَ في قلبي من إعجاب وتقدير لجارتِنا الجميلة «هانويه».

فقد اختارَتْها أمّي لتكونَ هي الزّوجة، والأداةَ لتنفيذ مخطَّطِها المُحْكَم. وما أدري إن كان هذا التّوافق عن علمٍ حازته، أم من حظٍّ تحالفَ معها لصالحي!

فقد مالَ قلبي إلى تلك الفتاة منذ زرتُها أثناءَ مرضِها، لجمالها ورقَّتها. لا أُنكرُ أنَّ شيئًا ما في أعماق قلبي قد تحرَّك تجاهها. ولعلَّ حديثَنا المتقطِّع

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

يومها، كان له الأثر الأكبر في ما جرى. ما زلت أتذكَّرُ كلماتِها الرّقيقةَ العميقةَ عند حديثِنا الأوّل، حين قالت:

«هانويه»: إنَّ الأحلامَ إذا ما كانت بعيدةَ المنال كانت كالبركانِ الخامد، وكلَّما اقتربَتْ من باب صاحبها، يثورُ البركان في قلبه وعقله، قاذفًا داخلَهُ حِمَمَ القلق واليأس والإحباط. فإذا ما تحقَّقت تلك الأحلام ودخلَتْ بابَ واقعه، عادَ البركان إلى سكونِه في انتظار أحلامٍ أخرى وثورات أعنف.

آهٍ منَ الأحلام والأوهام!

فهي حلمٌ، ووصالُها حلمٌ، والسّكينةُ حلمٌ، والإيمانُ حلمٌ... فمتى تُبحرُ الأحلامُ من بحار الأوهامِ إلى شواطئ الواقع، لتُخمِدَ براكينَ النّفس، وتتجرَّعَ الروحُ تِرياقَ الإيمان؟

وسَطَ مشاعر متضاربة ومضطربة ما بين خوفٍ وفرح، وأملٍ وخجل، قابلْتُ عرض أمّي بالقُبول؛ وكان لهذا مفعول السِّحرِ على بيتنا الصغير، فغمرَتْهُ الأفراح، واستحالَ حالُ أبويَّ إلى أحسنِ حال.

وفي أيّام معدودة تمَّ القرانُ والبناء، واجتمعْتُ مع الرَّقيقة «هانويه» تحت سقفِ بيتٍ واحد، نتطلَّعُ لنملأَهُ بالأبناء.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

أشرقَتْ شمسُ «هانويه» في بيتنا الصّغير، وكانت تُشعُّ حُبًّا، وتغمرُنا بدفءِ الودّ؛ دقَّتِ الفرحةُ بعد سنين بابَ قلبي، فهل يَفتحُه لها لتستكينَ داخلَه، وتصطحبَ معها الحبَّ والودَّ والسَّكينة؟ هل يتذوَّقُ قلبي الأمانَ والسَّكينةَ بعد طولِ ارتباك؟

هل «هانويه» هي حقًّا التِّرياق لما في نفسي من سُمومِ الشّك، أم سَيُرْديني الشَّكُّ في هوَّةِ الكُفر من جديد؟!

الرّحمةُ يا إلهي...

أسرَ حضورُ «هانويه» الطّاغي فؤادي وعقلي، وبالفعل ملأَتْ صدَعَ قلبي بالحبِّ والودِّ والحنان. وكلّما مرَّتْ بنا الأيّام، حوّلَتْ مُرَّها إلى عسلٍ يَشفي القلبَ والبدن. ولم يَحجِبْ فيضُ حنانِها وحبِّها رجاحةَ عقلها؛ فما ناقشتُها في مسألةٍ إلّا وكان المنطقُ في صفِّها، وكان فيضُ الحكمة موصولًا من عقلها إلى لسانها، وكان حلوُ بيانِها يُثَبِّتُ منطقَها ويعضُدَه.

أعجبني فصيحُ حديثِها، وطلاقةُ لسانِها، وجمالُ منطقِها. وفي أيّامٍ معدودةٍ أصبحَتِ الزّوجةَ والصَّديقةَ والرَّفيقةَ وخيرَ شريكة.

ولكنَّ رياح الأيّامِ أجَّجَتْ من جديد النّارَ في جمر الشَّكّ، بعد أن كنتُ حسبتُهُ صار رمادًا. يا له من سَمٍّ لعين، يُصرُّ على إهلاكي ولو بعد حين!

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

كلّما حسبتُهُ قد فارقَ عروقي، يتأجَّجُ من جديد ليعيدَ الحُمّى والآلام إلى عقلي وقلبي!

ومع اجتياح النّوبة الجديدة خيامَ الفرحِ والحبِّ والسَّكينة في قلبي، شعرَتْ زوجتي «هانويه» أنّي أعاني من خَطْبٍ عظيم، فأدركَتْني من فورها، تُلملِمُ شَتاتَ عقلي ولُبّي بين ذراعَيْها، وتُريحُ جوارحي المنهَكَة على صدرها.

كانت لي المأوى والسَّند. وحين لمحَتْ في سماء ذهني بعضَ صفاء، لِما أغدقتْني به من عطفٍ وحنان، سألتْني عمّا يُنغِّصُني ويَشغل بالي. وعندما لاحظت في عينيَّ الخوف، وأدرَكَتْ أنّي أميل إلى كتمان الهَمّ، بادرتْني بأطيب الكلمات تطمئنُني، وكأنَّها تحملُ في نبرة صوتِها مفاتيحَ خزائنِ أسراري. فاحتوتني وغزت كلَّ المواقع الحصينة في جوارحي غزوَ الفاتحين، وما تركَتْ بابًا يكتمُ سرًّا إلّا وفتحتْهُ على مصراعَيْه، بجميل فعلِها وقولِها.

فأقبلْتُ بين يدَيْها مُستكينًا كالطِّفل يبوحُ لأمِّه بعظيم أسرارِه، أحكي بدون انقطاعٍ عمّا يدورُ بخَلَدي من شكوكٍ وأفكار، عن رحلةٍ بدأْتُها منذ زمنٍ، في البحث عن تِرياقٍ لِما أصابني من سَمٍّ، ولم أتمكّنْ إلى الآنَ من إيجاده.

حدَّثْتُها عن علماءَ وشيوخٍ وكهنةٍ وعارفين، ارتحلْتُ إليهم بحثًا عن ذاك الدّواء، وما نفَعَتْ وصفاتُهم ولا أجوبتُهم في شفاء ما حلَّ بي من داء.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

سألَتْني عن ذلك الحُلْمِ اللّعين الذي يؤرِّقُ نومي، فقصصْتُ لها ما أراه:

«زرادوستار»: أراني كلَّ ليلةٍ في سفينةٍ ضخمة، وكأنّما اجتمَعَ عليها أهلُ الأرض جميعًا، بحيواناتِهم ونباتاتِهم وحتّى أشجارِهم، في بحرٍ لُجَيٍّ مظلم، موجاتُهُ كالقلاعِ وأكبر، وعلى متن السَّفينةِ يتناحرُ الرُّكّابُ ويقتتلون، فتهيجُ الحيواناتُ وتنفلتُ. وما تمرُّ إلّا ثوانٍ حتّى تشتعلَ السَّفينةُ بمن فيها، وما لأحدٍ فيها من ملجإٍ ولا مفرّ، ولا يجدون لإخمادِ تلك النّيران سبيلًا! أشاهدُ تلك الأحداثِ وأنا مشدوهًا مسلوبَ الإرادة، أحاولُ التحرُّكَ للمساعدة أو حتّى للهرب، ولكنَّ قدميَّ لا تطيعاني.

سرعانَ ما انقلَبَتْ دهشتي من اندلاع النِّيران بسفينة تسير في عرض البحر، إلى فزعٍ، وأنا أرى ألسنةَ اللّهب تتحوَّلُ إلى رؤوس أفاعٍ عملاقةٍ تبثُّ السَّمَّ في الأجواء، قبل أن تنتبهَ إلى وجودي وتتقدَّمَ نحوي لتطاردَني! ومرّةً أخرى تخونُني قدماي، وكأنّهما جذعا شجرة ملتصقة بسطح السّفينة، وتخونُني حنجرتي! فلكم حاولت الصُّراخَ، ولكنَّ صوتي لم يتعدَّ جوفي.

فجأة يسطعُ على سطح السّفينةِ نورٌ أبيض، كأنّه هبط من السّماء، ويأخذُ في الاقتراب منّي زاجرًا، مُبعدًا ألسنةَ اللّهب والأفاعي. وما إن أرنو إليه بعينين زائغتين، حتّى ينفرجَ عن وجهِكِ الجميل!

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

تأخذينَ بيدي، تساعدينَني على الحركة، وفجأة، تقذفين بي من فوق سطح السّفينة إلى عرض البحر! فأرتعدُ خوفًا من السّقوط في اليمِّ والغرق. وإذا بقاربٍ صغيرٍ بجانب السّفينة المشتعلة -لا يتّسعُ إلّا لي- يلتقمني، فأنظر إلى أعلى وأراكِ باسمةً تلوّحين لي بيديك!

وسرعان ما يتحرّكُ القاربُ بي وحدي، بعيدًا عن السّفينةِ وخطَرِها. وبمرور الوقت، تَزيدُ الوحدة والظّلام، وتتقاذفُني الأمواج حتّى أتيقَّنَ من الهلاك، فأرى في البُعد نورًا مثلَ نورِكِ، أبيضَ برَّاقا، يكسو جزيرةً ليست ببعيدة، ويجعلُها تشعُّ كالقمر في اللّيل، وتضيءُ ظلماتِ البحر!

فيجوبُ بصري في عرض البحر بحثًا عنك وعن سفينتِك، لعلّي أكونُ الدّليلَ والسَّببَ لإنقاذكِ والسّفينةِ وأهلِها، ولكن، من دون جدوى.

عند هذه النُّقطة ينتهي حلمي كلَّ مرَّة.

وهنا بدأَتْ «هانويه» تُلِحُّ في معرفة ما ردَّ به العلماءُ على شكوكي، بالأخصّ معلّمي «بورجين كورس»، وتسألُني إن كنتُ قصصْتُ عليه بعضًا من أحلامي تلك. فأخبرتها بما دار بيننا، مُرَدِّدًا أمامها حديثَه لي كما قاله، حرفًا ونصًّا:

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

«بورجين كورس»: أنتَ وحدك رُبّانُ سفينةِ الإيمان في بحر الشَّكّ، وعقلُكَ وحدَه هو البُوصَلة التي ستَهديكَ إلى برِّ اليقين؛ فافرُرْ إلى نفسك، واطرحِ الأفكارَ والأشرارَ عن سفينتك، لتنجوَ بنفسك وذاتك، وتصلَ سالمًا إلى وجهتك.

وعندما تُرخي أشرعةَ سفينتِكَ عند مرسى جزيرةِ ذاتِك، اِهبطْ وحدَكَ، واستكشفْ تلك الجزيرة البديعة؛ نقِّب في أرضها، وحلِّقْ في سمائها، واستكشفْ ثمارَها وحدك. هناك إذا ما بحثْتَ بجدٍّ، ستجدُ التِّرياق الشّافي، ولكلِّ سؤال أرَّقَكَ ستجدُ الجوابَ الوافي.

وقلتُ لها: إنّ أحلامي في ذاك الوقت لم تكُ بذاك الوضوح، أو تتابُع الأحداث، أو حتّى التّكرار، وإنّي لما حدَّثْتُ بها معلِّمي، حدَّثَني عن البشارة والإشارة.

هنا لمحْتُ في عينيْها بريقًا أعرفه، يَظهرُ عندما يَسيلُ فيضُ الحكمة من عقلها. فتطلَّعْتُ إليها صامتًا، منتظرًا أن يَجريَ ذاكَ الفيضُ على لسانِها. ولكنَّها استرسلَتْ في صمتٍ يُغلِّفُهُ الذُّهول، وحجبَتْ قطراتٌ منَ الدّمع ذاكَ البريق، قبل أن يختفيَ ويحلَّ محلّه الانكسار!

هالَني ما رأيْتُ منَ انقلابٍ مفاجئٍ في حالها! ومع تساقُطِ قطراتِ الدّمعِ من عينيها أصبحَ قلبي لُقمةً سائغةً في فم القلق. ورحْتُ أتطلّعُ

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

إليها مستجديًا بأرقِّ كلماتِ العينِ قبل اللّسان، أن تبوحَ لي عن سبب هذا التحوُّل في حالها. وبعد دقائقَ تمالكَتْ نفسها وتحدَّثَتْ:

«هانويه»: يا ربيعَ عمري ونورَ حياتي، قبلَك كان بردُ الشِّتاءِ ينخَرُ في أوصال قلبي، وكانت غيماتُه تُلبِّدُ سماءَ عقلي حاجبةً عنه نورَ الفرح، وكانت حياتي تغمرُها أمطارُ الوحشة والكآبة. وما إن أشرقَتْ شمسُكَ في سمائي، حتّى تفتّحَتْ زهورُ قلبي، وأثمرَتْ أشجارُ روحي واخضرّت، وداعبَتْ نسماتُ الحُبِّ أوراقَها! فأنتَ الرّبيع، ومِن بعدِكَ أخشى حلولَ الصَّيف، فيَحرُقَ حرُّ شمسِ الوحدة قلبي وعقلي، وتجفَّ الدِّماءُ في عروقي كما تجفُّ الأنهار، فتموتَ روحي ظمآنةً لقطرةٍ من حبِّكَ وقربِكَ.

يومَ أحببتُكَ، كان يومَ ميلادي الأوّل والوحيد، إذ منحَ حبُّكَ جسدي روحًا عاشقةً حيّةً. حينها انفجرَتْ أولى صرخات روحي في الحياة «صرخةَ حبٍّ»! حبٌّ ملأَ جوفي بهواءِ العشق، فأصبحْتُ أتنفَّسُ قربَكَ وودَّكَ، ومنحْتَني الحياة! من دونك تفنى الرّوح، وتتوقّفُ الحياة. فما نفْعُ الجسدِ البالي بدون روحٍ تنعمُ بقربك وحبِّكَ؟!

لكَم أُحِبُّ نفسي بقربك! ولكنَّكَ أَحَبُّ إليَّ من نفسي، وأغلى عندي منّي.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

تبوحُ لك روحي بسرِّ وجودِها وهي تخطو أولى درجات منصَّة الإعدام، تتقدَّمُ إليها سعيدةً راضية، وتُقسمُ عليك أن تحقِّقَ لها آخرَ أمانيها.

احتويْتُها بين ضلوعي، محاولًا تخفيفَ ما ألمَّ بها من ألمٍ وشَجَن، واحتوتني بفيضِ مشاعرِها الحنونة الصّادقة. شرعْتُ ألملمُ الألفاظَ والجملَ لعلّي أقول بعضَ كلماتٍ تواسيها، ولكنّ لساني انعقدَ مرّةً جديدة، وأبى أن ينفَكَّ ولو عن حرفٍ واحد. ولكن، هذه المرّة لم تكنْ في حلمي كما العادة، لم تكنْ أضغاثَ أحلام، إنّما هو واقعٌ أليمٌ أشلّ لساني، فلم تتخطَّ حلقي كلمةٌ واحدة. ووسط وجومي وحيرتي ومحاولاتي البائسة لتخفيف حدّة المشهد، استطردَتْ متمَّةً حديثَها من دون أن تنتظرَ منّي ردًّا أو صدًّا:

«هانويه»: إكسيرَ حياتي، مَن تعطّرَتْ آذانُهُ بسيرتك يُدركُ أنّك مميّزٌ؛ ومَن حظيَ بمخالطتك -ولو لفترةٍ- يُدركُ إلى أيٍّ حدٍّ أنتَ فريدٌ؛ ومَن يحيا بقربِكَ يعلمُ أنَّكَ نادرُ الوجود، عظيمُ الشأن. أمّا أنا وقد سكنْتَ روحي وملأتَها نورًا وضياء، فقد أدركْتُ أنَّكَ بُعِثْتَ شمسًا لتملأَ الكونَ ضياء. وما أرى ما أنت فيه من شكٍّ إلّا مخاضًا لولادةِ تلك الشّمس. ولو تدبَّرْتَ ردَّ معلِّمِك -وأنت أعلمُ به منّي- لفهمْتَ أنّه ينصحُكَ بالاختلاء بذاتك، لتجدَ التِّرياقَ والدواءَ

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

في نفسك، فيشفى بك الكون، كما الشَّمسُ تحرقُ ذاتَها لتملأَ الكونَ ضياءً ودفئًا.

وعلى الرَّغم من أنّي لست بتأويلِ الأحلام من العارفين، إلّا أنه يتجلّى لمن تدبَّرَ حلمَكَ أنّ الخَلْقَ بتناحُرِهم وتنافُرِهم وحروبِهم ونارِهم، همُ العَقَبَةُ الكبرى التي تَحولُ بينك وبين ذاك التِّرياق. وتلك هي الإشارةُ التي أفصحَ عنها حلمُكَ، وأرادَ القدرُ -على علمه أنّكَ أحبُّ إليَّ منّي- أن يكلِّفَني أن أكونَ أنا الدّافعَ لتذهبَ في رحلتِكَ في البحث عن الإجاباتِ الشافية في ذاتك. وأنا، بنفسٍ راضية، أُضحّي نفسي فداك. فإن كان دواؤُكَ في الرّحيلِ عنّي واعتزال النّاس، فلتحيَ ويحيَ بك الكون، ولتكُنْ روحي القربانَ في محرابِ حبِّكَ.

أمّا عنِ الجزيرة التي في حلمك، وما بها من نور، فهي البشارة. فيا حبيبي وروحي وزوجي، أستحلفُكَ أن تُحقِّقَ لي أمنيتي -وإن كانت سببًا في موتي- فكما أردَفْتُ لك، هي كآخرِ أماني المحكوم عليه بالإعدام، واجبةُ التّنفيذ. عليك بالفرار لنفسك لتجدَ التِّرياق، لا لتنقذَ نفسك فحسب، بل لتنقذَ كافّةَ أهلِ الأرضِ منَ الخرابِ والدّمار. فإنّي أُقسمُ أنّك ما إن تَشفى سيشفى على يديْك الناسُ جميعًا.

أمسكَ الوجومُ بدفَّةِ جلستِنا، فقادني إلى الدّهشةِ والصّدمة، وقادَ «هانويه» إلى الصّمتِ والحزن؛ كان كلامُها كالسِّهامِ المُباغِتة التي أصابَتْ صميمَ الهدف! ولو صوَّبَ أمهرُ الرُّماةِ سهمًا ناريًّا فأصاب قلبي، ما بلغَ

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

منّي الألمُ بقدْرِ ما آلمني كلامُها. فقد كان منطقُها نافذًا غيرَ قابلٍ للدّحض. فاستسلمْتُ بين ذراعَيْها، وأسلَمَت قدَرَها بين ضلوعي، فواسى جسدُ كلٍّ منّا الآخر، بعد أن أُنهكَتِ العقولُ والأفواهُ والأفئدة. وواصلَ الوجومُ قيادتَنا إلى سكونٍ لا تطرِفُ معه عين، وصمتٍ لا يقطعُهُ نَفَس، فكنّا كالأموات الأحياء.

مرَّتْ تلك اللّيلةُ الكاشفة، التي أزاحَتْ فيها «هانويه» بكلماتِها الغشاءَ عن عقلي، فأَصبحَ بصري حديدًا، أرى ما أوكِلَ إليَّ وما يتوجَّبُ عليَّ فعلُه. قَطَعَتْ كلَّ شكوكي بالحَلِّ الناجعِ الأكيد، ولكنَّ قلبي لم يكنْ ليطاوعَني أن أمضيَ في هذا الطّريق وحيدًا، وأترك قلبَها جريحًا شريدًا. قاومْتُ، وقاومْتُ كثيرًا، فقاومَتْني بدورِها، ولم تطاوعْني على ما أفعل، بل كانت تدعمُ جانبَ العقلِ أن: «اِذهبْ إلى ربِّكَ لعلّهُ يَهديك».

ومع استماتةِ قلبي في المقاومة، زادَتِ الكوابيسُ والأحلامُ والرؤى، وجافى النّومُ عينيَّ، وحلَّ محلَّهُ الأرقُ والسُّهاد، وصرْتُ كالمحمومِ المريضِ المُقبلِ على الهلاك.

وعلى هذا الحال ازدادَ ضغط «هانويه»، أن: «لَبِّ النِّداء». فما كان من مندوحةٍ مع الضّغوط المتوالية، والحال المتدهورة، إلّا الانصياع، وسَطَ نظراتٍ تذهبُ منّي وترتدُّ مبلَّلةً بالدّموعِ الحارّة، دموعِ وَداعٍ لا

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

ينطوي على لقاءٍ قريب؛ ونظراتِ تَرَقُّب، ولهفة، تحملُ وعودًا غيرَ موثوقة، وتعهُّداتٍ غيرَ مضمونة، وآمالًا مقطوعة، وشرايينَ وصلٍ مبتورة، وقصّةَ حبٍّ لم تُتِمَّ أولى فصولِها!

آهٍ من القَدَر وتدابيرِه!

يا إلهي!! كيف أنجو بنفسي وينجو من معي؟ أمَا من طريقٍ أُلبّي به النِّداءَ دون تضحية؟ يا إلهي أغثني، يكادُ قلبي ينشطرُ ما بين حلمٍ في الشِّفاء وأملٍ في البقاء، ويكاد عقلي يشتُّ طمعًا في الوصول إلى حقيقةٍ غائبةٍ محجوبةٍ عنه!

عزمْتُ على الرَّحيل، تاركًا خلفي للوفاء عهودًا ووعودًا لا تُنقَضُ؛ رحيلٌ وسَطَ ابتساماتٍ وأنّاتٍ لا تخفُت.

ورحَلْتُ في رحلةٍ اختارَني لها القدر، فاخترتُها؛ أحملُ فيها من حُبِّ «هانويه» في قلبي زادًا لا ينقطع، وفي عقلي حلمًا ما زال يكسوهُ ظلامٌ لا ينقشِع.

يا إلهي، إنّي اخترْتُ السَّبيلَ إليك، فيسِّر لي هذا السَّبيل، واصرِفْ عنّي دروبَ الشَّكّ، واهدِني بفضلِكَ صراطَكَ المُسْتقيم.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

زرادوستار والصُّدفة

صُدفةٌ، وأيُّ صدفة!!

ريحُ السَّمومُ تكسِرُ صمْتَ ليلِ شتاءٍ قارسِ البرودة؛ قمرٌ يحاولُ أن يتلصَّصَ بخيوطِ نورِه من وراءِ غيماتٍ حُبلى ثَقُلَ حملُها، توشِكُ أن تسلِّمَ جنينَها ليبلِّلَ أديمَ الأرض. تحتَ جُنْح هذا اللّيل قرَّرْتُ الارتحالَ، ذهبْتُ مستترًا بالظّلام لألبّي نداءً كادَ صداهُ يُفقدني سمعي وعقلي. خوفًا من آلامِ الوداع ودموعِه، وأملًا في لقاءٍ قريب، تركْتُ «هانويه» مستسلمةً لنومٍ انتصرَ على سُهادٍ استدامَ عدّة ليالٍ سابقة، وكان النّصرُ فيها لسُهادٍ تسلَّحَ بالفكر والهمِّ والدُّموع، فما كان النَّومُ يستطيعُ أن يَقْرُبَ أجفانَها قبل تلك اللّيلة، فاستسلمَتْ لنداء الجسد، وخفَتَ صوتُ العقل.

حاملًا على كتفي ما قد أعدَّتْه لي مسبقًا زوجتي من زاد وكساءٍ لجسدي، وفي قلبي وعقلي أحملُ الحبَّ والأملَ والرغبةَ والشغفَ كزادٍ لنفسي، تحسَّسْتُ طريقي مستعينًا بما نفذ من خيوطِ نورِ القمر من بين

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

الغيوم، بحثًا عن الميناء التي أُرسي على شاطئها سفينةَ نفسي. ولكنَّ إرادةَ الرِّياح كانت لا تشتهي شراعَ سفينتي، فكانت وكأنَّها تقاومُني كي أَحيدَ عن وجهتي. وحين قاومْتُها زادَ بأسُها، واشتدَّتْ، فكادَتْ تقتلعُني من الأرض أو تطيحُ بي عن الدّرب؛ وكدْتُ أفقدُ ما أحمل، حتّى ما أحتمي به من البرد من ملابسَ لم تسلمْ من أذى تلك الرّياح، وكادَتْ تصبحُ هباءً منثورًا.

كانت قواي قد خارَتْ، فراحَتِ الرياحُ تطاردُ ما بقيَ في نفسي من فلول القوّة، أوشكْتُ أن أنقلبَ على عقبي وأعودَ أدراجي حاملًا راياتِ الخيبة، لكنّي قاومْت، فتحالفَتِ الغيماتُ مع الرِّياح وأجهضَتْ ما بها من ماء، زخّاتٍ فوق رأسي؛ اِرتبكَ عقلي من هول ما أواجهُ من ريحٍ ومطر! أهذه حقًّا الطّبيعةُ تعاقبُني، أم أنّها رياح الشَّكِ وأمطارُ الكُفرِ تعصفُ بجسدي وعقلي؟!

اختلطَ عليَّ الخيالُ بالواقع، وظللْتُ أحبو بلا قوّة ولا دافع؛ أغرقُ في بحرٍ من الأمطار، بل من الأوهامِ والأسئلةِ والألغام، تموُجُ بي الطُّرُقات وسْطَ غاباتٍ موحشة. أهذه غاباتُ «إريانا فيجا» أم أنّها غاباتُ الوحدة التي يسكنُها عقلي؟! لاهثًا متلهِّفًا رحْتُ أبحثُ عن ملجإٍ لجسدي، ومخرجٍ لعقلي، من تلك الدّوّامة.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

وفجأة سادَ السُّكون!

ما بين الصَّحوِ والغفوة، رأيتُ «هانويه» بوجهها الوضّاء تقتربُ منّي وتبتسم، وتمسحُ على جبيني بماءٍ باردٍ نزلَ على رأسي كأنّما ينزلُ على جمر، وحدَّثَتْني:

«هانويه»: أي حبيبي، أنتَ النُّور وما أنا إلّا مرآتُك، فاطلقْ لنورِك العنانَ لتضيءَ «إريانا فيجا» وما حولَها، ولا تنسَ أن تحفظَ عهدَكَ ووعدَك.

ثمّ ذابَتْ «هانويه» في وهج نورِها الوضّاح الذي حجب عنّي رؤيتها، فاستسلمَتْ عيناي للنّوم. لا أعلمُ كم بقيتُ نائمًا، ولكنّي حاولْتُ أن أستفيق، وتحاملْتُ على نفسي لأفتحَ عينيّ، فوجدْتُ أبويّ إلى جانبي يتطلّعان إليَّ بشغفٍ وأمل، وحين لمحا في عينيَّ بصيصَ انتباه، قالت أمي:

«دوغدوما»: يا وليدي، أنت المريضُ والطّبيب، وفي نفسك الدّاءُ والدّواء، ومن رحِمِ الشَّكِّ يولد الإيمان، وفي المِحَن تعلو الهِمَمُ وتأتي المِنَح، فاستعِنْ بنفسِكَ على نفسِكَ، ولا تخذُلْنا فيك.

ثمّ نزلَ الغمامُ على عينيَّ وحجبَ عنّي الرؤية، فرحْتُ في غفوة جديدة. تتابعَتِ الغفواتُ والصّحوات، وظلَّتْ وفودٌ من المحبّين والمعلّمين والأهل والأصدقاء، الّذين التقيتُهُم طيلةَ حياتي، يتناوبون عليَّ ما بين الغفوة

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

والأخرى، حتّى اختلطَتْ عليَّ الوجوهُ والكلمات. لم أكنْ أُدركُ ليلًا من نهار، ولا ظُهرًا من سَحَر. وفي استفاقةٍ أخيرةٍ وجدْتُ معلِّمي «بورجين كورس» يقفُ بين يديَّ وهو يحملُ بين يديه الكثيرَ من الكتبِ والمخطوطات، ثمّ حدَّثَني بحزم:

«بورجين كورس»: هاكَ يا بنيّ الرِّسالة والأمانة، فلتحملْها عنّي، وما نقصَ عندي من جهدٍ أو علمٍ فلتبحثْ عنه في ذاتكَ لتُتِمَّ الرِّسالةَ وتؤدّي الأمانة. هيّا يا بنيّ، اِنهضْ، فإنَّ الحِمْلَ ثقيلٌ والدربَ طويل.

ثمَّ سادَ الظّلامُ من جديد.

أشجارٌ من زقُّوم لها أشواكٌ كالسّيوف نبتَتْ في حلقي، وراحَتْ تفتُكُ به مع كلِّ شهيقٍ وزفير، ومع كلِّ قطرةِ لُعابٍ تتسرَّبُ إلى جوفي. يا له من لُعابٍ يُفرَزُ من ينابيعِ المُرِّ في حلْقي، كأنّهُ شرابٌ من غِسلين يتسرَّبُ إلى جوفي، فيَكوي أينما يَسري.

أين «هانويه»؟! أين أمّي وأبي؟! أين المعلِّمين والزوّار؟!

أين أنا؟!!!

تقبعُ عينايَ في قاعِ بحرٍ منَ الظّلام الدّامس. هباءً راحَتْ جُلُّ محاولاتي

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

في الضّغط على مقلتيَّ لإدراك ما يُحيط بي، ولكنّي لا أدري أكان الظّلامُ أشدَّ كثافةً من قدرتي على الإبصار أم أنِّي فقدْتُ تلك القدرة بكلِّيَّتها؟

أحقًّا فقدْتُ بصري؟ أم انتهَتْ حياتي وأُعلنْتُ من أصحاب الشِّمال، وأنا الآنَ في قاع الجحيم ألاقي صنوفَ العذاب والألمِ جَزاءً وفاقًا؟!

آه!! أوتاد!! أوتادٌ من نارٍ دُقَّتْ في أطرافي ومفاصلي وأوصالي.

أوتادٌ غُرِسَتْ في جبهتي، تكادُ تُشِلُّ عقلي.

ما هذا الكمُّ من الألمِ والجوعِ والعطش؟!

أين أنا بحقِّ السّماء؟ ماذا حلَّ بي وبجسدي المُتيَبِّسِ المُهترئ، الذي أعجزُ أن أحرِّكَ شعرةً منه أو حتّى ذرّة؟!

لَمْ يُغيِّرِ الوقتُ في حالي شيئًا بمروره، إلَّا مرارةً تستعرُ في حلقي؛ وكانت دقّاتُه كالمطرقة تدقُّ الأوتادَ أكثر فأكثر في أطرافي وأوصالي؛ أشعرُ بجسدي يحترقُ من الخارج، وقلبي يتجمَّدُ في داخلي. أدركوني يا أُولي الألباب!

وقبل أن يدركَني مُدرِكٌ، رأيْتُ نوراً بدأ رويدًا رويدًا ينفذُ عبرَ قضبانِ سجنِ الظّلام الأسود، الذي ظلَلْت حبيسَه لفترةٍ طالت على استيعابي. وسرعان ما حطَّمَ النُّورُ جدرانَ العتمة حتّى أحرقَ وهجُهُ عينيّ، فعجزَت

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

عيناي ثانيةً عن الإدراك. ولكن، سرعان ما استوعبْتُه، وبدأْتُ أتحسَّسُ ببصري المكان، وببصيرتي الزّمان.

يبدو أنّي أمضيْتُ حينًا في ظلمةِ ليلٍ، استطالَ حتّى فلقَهُ نورُ الإصباح، مُعلنًا ميلادَ فجرِ يومٍ جديد!

تسرَّبَ النُّورُ الوليدُ إلى قلبي، لينبضَ بالاطمئنان والأمل، مُزيحًا ستائرَ الظّلام عن معالِم غرفتي التي غمرَها دفءُ حبِّ «هانويه» الجميلة، والأملُ في أن تقَرَّ عيناي برؤياها. لكم اشتقْتُ إليكِ يا «هانويه»! غمرَ النّورُ قلبي بالاطمئنان بالقرب من أبويَّ الرحيمين، أستمِدُّ منهما القوّة والحياة. لكم أفتقدُ ضَمَّةً من أمّي، ونصيحةً من أبي!

تبدَّدَ الظّلامُ من حولي، ولكن، سرعانَ ما تبدَّد معه الأملُ من قلبي، إذ لم يُزِحِ النُّورُ ستائرَ الظَّلام عن جدرانِ غرفتي وأهلي إلى جانب السرير، وإنّما أزاحَه عن صخورٍ وأحجارٍ وخضرةٍ وأشجار! لقد أعطى النُّورُ القدرةَ لعينيَّ لترى، ولكنّه لم يعطِ الطّاقة لعقلي ليعملَ ويستوعبَ بعد.

عملَتْ حواسي بجدٍّ لتساعدَ عقلي ليستوعبَ كُنهَ المكان. وبعد جَهْدٍ جَهيد ووقتٍ مديد، بدأَ عقلي يُحسنُ استخدامَ معطياتِ العين واليد والأنف، ليُخرجَ النَّتائج والاستنباطات؛ فأدركْتُ أنّي مُلقًى على ظهري في

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

كهفٍ فسيح، على جذوعِ وبعضِ أخشابِ الصَّنْدَل الذي تفوح رائحتُه العطرة المميّزة.

الصندل!! الحمّى!! آلامٌ وهلاوسُ وأحلام!! عطشٌ وجوع!!

وفي لحظاتٍ برقَتْ أمامَ عينيَّ الأحداث والذِّكريات تباعًا، فأدركَ عقلي -بعد عناء- الحقيقةَ جليّةً. لقد قادتني الصُّدفة إلى هذا الكهف، من دون إدراك منّي أو تخطيط، بعدما اشتدَّ عليَّ البردُ والمطر، وكادَتِ الرياح تَقتلعُني في الغابات على أطراف الجبال المحيطة بقريتنا. ونال منّي البرْدُ والبلَلُ والرّيح، فأصابني المرض، واشتدّت عليَّ الحمّى. ومرّةً جديدة، هدتني الصّدفة لأنامَ على أخشاب الصّندل تلك، لِما لها من تأثيرٍ في تخفيف الحمّى وامتصاص الحرارة. وما كانت رؤيا أهلي وزوّاري إلا هلاوسَ وأضغاثَ أحلام. وما تلك الآلام التي أكادُ أميِّزُها تفصيلًا الآن -من آلام الحلق، ومرارة اللُّعاب، وتيبُّس الأطراف- إلا أعراضٌ لتلك الحمى.

صُدفةٌ، وأيُّ صدفة!!

لا بُدَّ أن أستكشفَ المكانَ من الدّاخل والخارج الآن، حتّى أجدَ ما يسدُّ جوعي، ويَروي عطشي، ويُساعدُني على الشِّفاء.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

زرادوستار والزّائِر

العزلة، الوحدة، الخلوة.

تعاظمَ قَدْرُ تلك الصُّدفة الفريدة في قلبي وعقلي، وشغلَتْ جُلَّ فكري -في أوّل أيّامي بعد التّعافي- تلك الصُّدفة التي ألقت بي بدون حولٍ منّي ولا قوّة، في هذا الكهف، حيث اهتديْتُ بقليلٍ من الاستكشاف، بعدما أَفقْتُ واستردَّ جسدي بعضًا من عافيته، إلى ما يَسدُّ رمقي واحتياجاتي من ماءٍ وغذاءٍ ودفءٍ وسترٍ ودواء.

العزلة، الوحدة، الخلوة.

تلك الغاية التي ارتحلْتُ من أجلها، وها أنا ذا قد اغتنمْتُها، ويا لها من غنيمة، لو تعلمون!

فالخلوةُ مفتاحُ التَفكُّر، والتَفكُّرُ مفتاحُ التَدَبُّر، والتَدَبُّرُ مفتاحُ الصِّدق، والصِّدق مفتاح القناعة، والقناعة مفتاح الهداية، والهداية مفتاح الإيمان، والإيمانُ قاتلُ الشَّكّ ومفتاح الدُّنيا والآخرة معًا. ويا لها من غنيمة لو تتدبَّرون!

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

ولكنَّ تلك الخلوة لا تخلو منَ الحنين والحزن والأنين، الحنين لأحبابٍ نفتقدُهم ونحزنُ ونئنُّ لبُعْدهم. ليتني أستطيعُ أن أعرفَ مصدرَ تلك العواطف ومنبعَها: «حنينٌ، شوقٌ، حبٌّ، عطفٌ، شفقةٌ، ألمٌ، حزن...» يا لها من عواطف!! أيُّ صُدفة أنبتَتْها في النَّفس البشريّة؟! وأيُّ قُدرة أوجدت تلك العواطف ذاتَها في حيوانات تكادُ لا تفقَه ولا تَعقل؟! أهي الصُّدفة ثانيةً؟

رحْتُ أُحلِّقُ في سماء تلك الأفكار من دون أجنحة، وكلّما سما بي عقلي إلى السّماء، غابَت عنّي وجهتي، وتداخلَتِ الاتِّجاهات. طالعْتُ ما حملْتُ معي من بيتي من مخطوطات تتضمّنُ عُصارة ما فهمْتُه وأدركْتُه من دروس وخُبرات، لعلّي أجدُ البوصلةَ التي تَهديني السَّبيل، وتصلُ بي بعد إقلاعٍ مضطرِبٍ عسير، إلى هبوطٍ سالم يسير، في ميناء المعرفة واليقين.

هكذا مرَّت عليَّ الأيّام: نهارًا أقرأ وأتفكّر، وفي ظلام اللّيل أسترجعُ ما قرأْتُه وأتدبَّر، وأُحلِّقُ في سماء الأفكار الملبَّدة بغيوم الشَّكِّ والغواية، بحثًا عن أرض الهداية.

وفي ليلة كان فيها الظّلامُ والسُّكونُ والوحشةُ والأرقُ أهمَّ الحضور، وغاب عنها القمر، فزادَ غِيابُه الوحشةَ والظّلام توحُّشًا، إذا بوقْعِ خطواتٍ

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

بعيدة آخذة في الاقتراب، يشقُّ صمْتَ تلك اللَّيلة الموحشة، ويَفتحُ البابَ لحضورٍ جُدُد كان أبرزُهم الخوفَ والتربُّصَ والقلق!

تسارعَتِ الخطواتُ مقتربةً، وتسارعَتْ معها دقّاتُ قلبي مضطربةً. استعصى غطاءُ الظّلام على سهام العين أن تخترقَه لتكشفَ الغريبَ القادم. فاستجمعْتُ بقايا الشّجاعة، وحاولْتُ أن أصيحَ كاسِرًا حاجز الصّمت، مستفسرًا عن كُنْه القادم، لولا أنَّ عقلي قطع الطَّريقَ على لساني خوفًا من أن تكونَ الخطواتُ لوحشٍ أو حيوانٍ مفترس، فينتبه لي وتسهل عليه مهاجمتي، فآثرْتُ السّكوت، وتعاظمَ في قلبي الخوف!

ما هي إلّا لحظات، تلاطمَتْ خلالها الاحتمالاتُ في عقلي، فجعلتُها تمرُّ مرورَ السِّنين. أهو حيوانٌ أم جانٌ أم أحدُ بني الإنسان؟ ومع اتّساع حدقتيَّ بسبب الفزعِ والانتباهِ والقليلِ من التكيُّفِ مع الظّلام، استطاعَتْ عيناي -بعد عناء- الكشفَ عن هيئة القادِم مع اقترابِه، فإذا هي هيئةٌ بشريَّة. ولكنّني عجِزْتُ كلَّ العجز عن كشْفِ ملامحِه، عندها أطلقَ عقلي سراحَ لساني، فخاطبَ الزّائرَ صاحبَ الخطوات، لعلَّهُ يَشفي غليلي، ويُخمدُ نارَ خوفي، ويُخبِرُني مَن هو وما الذي أتى به إلى هذا المكان في هذا الوقت!!

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

فأجابني بصوتٍ هادئ لكنَّه غليظ، استنكرتُهُ، ولم أجِدْ فيه ما يَنزعُ الخوفَ والقلق؛ فقد استغربْتُ نبرتَهُ الهادئة التي خلَتْ من أيِّ مفاجأة لوجودي داخلَ الكهف، حين قال لي:

الزائر: على رُسْلِكَ يا بُنيّ، أنا حطّاب، أجمعُ الخشبَ من الغابات والجبال، وأبيعُه لمعبدِ النّار بعدما أجهّزه ليكونَ خيرَ غذاءٍ ووقودٍ لنار المعبد الدّائمة.

«زرادوستار»: وما أتى بك إلى هذا الكهف في هذه السّاعة المتأخِّرة وهذا الظّلام؟!

الزائر: لعلّي أنا مَن يجب أن يسألَ هذا السؤال! ولكنّي سأجيبُك. أثقلَ النَّومُ رأسي بينما كنْتُ أعملُ وقتَ العصر، فأخذتْني سِنَةٌ من النّوم تحتَ شجرة إلى جوار هذا الكهف، وما أيقظني إلّا هطولُ الأمطار والبرْدُ في الخارج، فقرَّرْتُ أن آوي إلى هذا الكهف، وأُتمَّ فيه ليلتي حتّى تُشرقَ الشَّمس ويَنقطعَ المطر. والآن آن لي أن أعرفَ من أنت، وما أتى بك إلى هنا!

حاولْتُ أن أتغلَّبَ على حدْسي الذي لم يكنْ ليطمئنَّ لهذا الزّائر -على الرّغم من كلامه المنطقيّ- فاستسلمْتُ لصوت العقل، ورحتُ أبادلُهُ أطرافَ الحديث؛ فأجبْتُ عن أسئلته، وأخبرتُه من أكون، وكيف وصلت

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

إلى هذا المكان. منعني الظّلام من استكشاف ملامحِه وردودِ أفعاله حولَ ما قصَصْتُ عليه من أخباري. سألني بعد ذلك عن سبب نزوعي إلى تلك العزلة، وترْكِ أهلي وناسي وأعمالي، وزهدِ الحياة، واللّجوء إلى هذا الكهف. لا أدري إن كان الظَّلام قد ازاحَ حِجاب الخجل، أو ألبسني قناع الشّجاعة، حتّى وجدتُني أفتحُ له بعضًا من خزائن عقلي وقلبي، وما يعتريهما من شكوك وحيرة. فصرَّعَتْ هذه الصّراحة أبوابَ حديث لم أكنْ أتوقَّعُه أو أتخيَّلُه مع شخص غريب مثله، وفجَّرَت في عقلي أفكارًا وإجاباتٍ خرجَتْ من كهوفِ عقلي المظلِمة الضيِّقة إلى أرجاءِ هذا الكهف المظلم في فضاء العالم. واشتعلَتِ الشَّرارةُ الأولى لهذا الحوار عندما علَّق الزائر على شكوكي قائلًا:

الزّائر: عن أيِّ سُخْفٍ وهُراء تتحدَّث؟

عن ماذا تبحث، وماذا تتوقَّع أن تجد؟

ألم يغيِّر فيك العِلْمُ شيئًا؟ ألم يفتحْ مدارِكَك؟ ألم يطوِّر عقلَك؟

أيّة آلهة تلك التي تزعمُ بوجودها ويزعمون؟

ألم تحدِّثني منذ قليل عن الصُّدفة كيف أتت بك ها هنا، وأنقذَتْ حياتَك من على شفا جُرُفٍ هار؟

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

أين كانت الآلهة منك وأنت توشكُ على الموت؟

أين هي من الحروب والدِّماء والأمراض والفقر والظُّلم؟

أهي حقًّا تلك الأحجارُ التي ينحتُها النّاس، ثمّ يخضعون لما صنعَتْ أيديهم صاغرين؟

أم هي تلك النّار التي يوقدونها بأيديهم، ولا تصمدُ أمامَ حُفنة ماء؟

أم الماء، أم الهواء، أم النُّجوم، أم الشّمس، أم القمر، أم هم بأجمعهم؟

أم هم آلهةٌ في علياء السّماء لم ولن نراهُم يومًا، ولم ينزلوا قطّ من عليائهم لإغاثة مفجوعٍ من ظلمِ بعضِ البشر لبعضهم وطغيانهم؟

أتؤمنُ حقًّا بهذا الهُراء؟! أو حتّى تبحث عن إثباته؟!

ظننْتُ أنَّ العِلْمَ قد غيّرَكَ بعدما أخبرْتَني بتلك العلوم التي درسْتَها. لكن أنت لا تزالُ على الدّرب ذاتها، تبحثُ عن السّراب ذاتِه في الصّحراء القفر ذاتِها.

كانت أسئلتُه كالرِّياح تُذَرّي التُّرابَ من فوق أتون نارٍ حسبْتُها أوشكَتْ أن تموت، لتؤجِّجَ حوارًا قد يستمرُّ لسنين مع هذا الزّائر الغريب. فقد

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

فتحَتْ أسئلتُه أبوابًا كانت موصَدَة في عقلي الذي كان كأرضٍ بور، سقطَتْ كحمم البراكين لتصيبَ تلك الأرض، وجعلَتْها -من بعد أن خمدَتْ نيرانُها- أرضًا خصبةً، وتربةً غنيّةً بالمعادن والكنوز.

أصبحَ الزّائرُ يتردَّدُ على كهفي بشكلٍ مستمرّ. كان يَحضرُ في اللّيالي التي يغيب عنها القمر، ولا أدري -إلى الآن- السّببَ في ذلك، ولم أسألْه. كانت حرارةُ الحوار الدّائم بيني وبينه تحرقُ ما خلاها من أخبارٍ وأفكار، خلال سنين طالت واستطالت، في الحرب الفكريّة ما بيني وبينه.

وجدْتُ نفسي جنديًّا من دون استدعاء، أُدافعُ عن أفكارٍ لم أكنْ أملُكُها، وأتسلَّحُ بأسلحةٍ لم يكن لي عليها سلطانٌ من قبل! كنت أقضي نهاري أقرأُ وأراجعُ المخطوطات وأتغذّى بالعلوم، وفي اللّيل أُرتِّبُ الأفكارَ والإجاباتِ والحججَ، لأفنِّدَ ما أحسبُها ادِّعاءاتِه لعلّي أُقنعُه أو يقنعُني. وفي ما يلي بعضٌ من كثيرٍ ممّا دار بيني وبين ذاك الزّائر.

في الجولة الأولى -ليلةَ ألقى عليَّ تلك الحِمم- أتذكَّرُ جيِّدًا كيف تفتَّحَ ذهني وانطلقَ لساني، لأردَّ عليه بما تَبادرَ إلى قلبي قبل عقلي، ففجَّرْتُ ينابيعَ الأفكارِ والخواطر، ووجدْتُني أقول له:

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

«زرادوستار»: أيُّها الضّيف الكريم، لا ألومُك على ما تقول، وإنّما أراكَ صدقْتَ في بعض ما قلت، كما أرى أنَّكَ جانبْتَ الصّوابَ في البعض الآخر.

دعْنا نبدأُ من حيثُ بدأْتَ: «عمّا أبحثُ، وهل بالفعل ثمّة آلهةٌ تُعبَد أم لا؟» وهنا تَحْضُرُني الشّرارةُ الأولى التي توهَّجَتْ في عقلَيْنا معًا حينما التقَيْنا. كان أوَّلُ ما قفزَ إلى ذهنَ كلٍّ منّا، ذلك السُّؤال: «ما الذي حملك على المجيء إلى هذا المكان؟»

فالبديهةُ تقتضي أن يكونَ لكلِّ علَّةٍ معلول، ولكلِّ حدثٍ مُحْدِث. فوجودُ الطّاولة يقتضي وجودَ النّجّار، ووجودُ السَّيْف يقتضي وجودَ الحدّاد، والبيوتُ وجودُها يقتضي وجودَ البنَّاء، ووجودُ النّار يقتضي وجودَ الشّرارة. وبالتبعيّة تقتضي البداهةُ أنَّ لكلِّ علَّةٍ معلولٌ أحدثَها. وقانون العلِّيَّة هذا هو أبسطُ النّظريّات، وأقربُها إلى النّفسِ البشريّة وفطرتِها.

وقياسًا على تلك القاعدة البديهيّة البسيطة، ألا يقتضي هذا القانون وتلك الفطرة أن يكونَ أَوْلى بهذا الكون وهذه المخلوقات -بما فيها الإنسان- وجودُ خالقٍ أنشأَ وأبدعَ هذا الكون بمخلوقاته ومفرداته أجمعين؟ وهذا الخالقُ هو الإله، وهو حتميُّ الوجود، وجديرٌ بالعبادة والطّاعة؟

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

وبناءً على القانون ذاتِه، دعني أسألُك: هل يُعيبُ النّجّارَ أن يأكلَ السّوسُ تلك الطّاولةَ التي صنعَها في أبهى صورة؟ أو يعيبُ الحدّادُ أن يتملّكَ الصّدأُ من ذلك السَّيْفِ الذي صنعَهُ وصقلَه؟ على ذلك القياس، إن كان الخالقُ قد خلقَ الإنسانَ والكونَ كلَّهُ، ووضعَ نظامَ حركتِه ودَيْمومتِها، ومنحَ الإنسانَ العقلَ ليفعلَ ويختار، فهل يُعيبُ الصّانعَ أن يَّضِلَّ أو يَفسُدَ المصنوعُ من سوء استخدامٍ، أو من تأثيرِ العواملِ الخارجيَّة التي قد تعتريه وتغيّره؟ - قطعًا لا.

فكيفَ تجعلُكَ هذه التغيُّرات التي طرأَتْ على نفسِ الإنسان المخلوق، من طمعٍ أو انحرافٍ أو ظُلم، ممّا زجَّ به في أتون الحروب والطُّغيان والأمراض، تُعيبُ الخالقَ الذي صوَّرَ ذلك الإنسان، بل الكونَ كلَّه، في أبهى الصور وأكملِها، فضلًا عن إنكارِ وجود ذلك الخالِق كلّيًّا؟ فهذا أيضًا لا يستقيم.

بل دعني أَزيدُكَ من الشِّعر أبياتًا، وأسألُكَ: كيف لك أن تعرفَ معنى اليَقَظة بدون تذوُّقِ النوم؟ وكيفَ تميِّزُ النّهارَ بنورِه من دونِ أن تدركَ اللّيلَ بظلامه؟ كيف تميِّزُ الجميلَ وتُحبُّه من دون أن ترى القبيحَ وتُنْكِرَه؟ كذلك الخيرُ والجمالُ والعدلُ والصحّةُ والأمانةُ والصِّدقُ والسَّلام... وكلُّ

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

ما هو جميل، يحتاجُ إلى ضدِّهِ من شرٍّ وقُبحٍ وظُلمٍ ومرضٍ وخيانةٍ وكذبٍ وحربٍ، وكلِّ قبيحٍ ومنكَرٍ، ليثبتَهُ ويبرهنَ على وجوده، بل ويظهرَه.

وما أرى هذا أيضًا إلّا دليلًا على وجود خالقٍ جعلَ تلك الفطرةَ وتلك المتضادّاتِ كدليلٍ على الهدايةِ، تُساعده للاستدلالِ على دربِ وجودِهِ وعظيمِ نِعَمِه. فكيف لك أن تُدركَ نِعَمَ خالقِكَ من دون أن تمرَّ بالابتلاءاتِ والمِحَن؟

عطفًا على ذلك، دعنا نُحصي كم حربًا خاضَتْ أمَّتُنا على مدى ما نملكُ من تاريخ؟ وتلك الحروب، كم استغرقَتْ من وقت نسبة إلى أوقاتِ السِّلمِ والرّخاء؟ كم بشريًّا قضى في تلك الحروب مقارنةً بمن نجوا؟ كم عامًا من المجاعة والمرض والفقر مرَّ على هذا العالَم، مقارنة بقرونٍ عديدةٍ خلتْ من المجاعات والأوبئة؟ بين البشر جميعًا، كيف لك أن تُحصي عددَ الطُّغاة، والظّالمين، والسّارقين، والقاتلين، وما شابه، مقارنةً بأعداد من هم مثلي ومثلك؟ إذًا، القاعدةُ دائمًا هي الخير والعدل والسّلام والجمال، ولكنَّ الشُّذوذَ غالبًا ما يطفو على السَّطح ويظهر، كما يطفو الخُبثُ فوقَ سطحِ الماءِ العذب. وهذا دليلٌ أيضًا على سلامة الفطرة والخَلْق، ووجودِ خالقٍ جعلَ منَ الشَّرِّ دليلًا على اكتشافِ الخير، وإدراكِ نِعَمِه ووجودِه.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

وبالعودة إلى قانون العلّيَّة البديهيّ، هل يتوجّبُ على النّجار أن يعيشَ معك في بيتك ليتابعَ استخدامَكَ للطّاولة التي صنعها لك؟ هل يرافقُكَ الحدّاد في ساحة المعركة ليرى كيف تستخدمُ السِّلاح، وإن كنت تستخدمُه للخير أم للشّرّ؟ هل يقفُ البنّاءُ حارسًا على غرفةِ نومك ليفرزَ من يرافقُكَ إلى داخلها، إن كان يَحِلُّ لك أم لا؟ قطعًا لا. فإن كان الإلهُ الخالقُ قد خلق الكونَ وبثَّ فيه حركاتِه وسكناتِه ونظامَه وليلَه ونهارَه وأرضَه وبحرَه وزرْعَه وحرْثَه ومَطَرَه... وأنشأَ الإنسانَ وأبدعَ عقلَه وطوَّره، وخلقَ فيه الفطرة، ونفثَ فيه النّزوعَ إلى الخير والقِيَم، والنُّفورَ من الشَّرِّ والظُّلم، فكيف تطلبُ منه أن يتجلّى من عليائه ليوقفَ حربًا كانت باختيار الإنسان ومن صنعه؟! أن يمنعَ قتلًا أقبل عليه إنسانٌ بكامل إرادته واختياره، خلافًا لفطرته؟ يا أخي إنّها خياراتٌ بشريَّةٌ محضة، يتبنّاها الإنسان ويُطبِّقُها في محيطه على البشر والمخلوقات، ويَتحمَّلُ تَبِعاتِها بالكامل. وهنا تتجلّى عظمةُ الخالق، في أنّه جعل هذه الابتلاءاتِ كالرّياح التي تُزيلُ الترابَ عن كنوزِ النِّعَم التي منَحَنا إيّاها، والتي كانت مخبَّأةً في باطنِ العقلِ يكسوها التُّراب.

هنا قاطعني الزّائرُ بعد صمتٍ طويل، وقال لي معترضًا، بنبرة تُوحي بكثير من التَّشفِّي والخُبث:

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

الزّائر: يا صديقي ألا تُدركُ الكمَّ الهائلَ من التّناقض في ما تقول؟ بعيدًا عن قانون العلّيّة ذاك الذي سنناقشُهُ في ما بعد -لعدم اقتناعي بوجوبه وتداعياته التي سأذكرُها لك لاحقًا- ألا ترى في وجود الظُّلم والطّغيان والقتل والمرض -حتى وإن كان الغرض من وجود تلك الابتلاءات هو إظهار أضدادها- ألا ترى في وجودها ذاتِه قمّة الظُّلم؟ فها هم قتلى الحروب يذهبون هباءً، وينعمُ الطُّغاة بالغنائم؛ يقضي المرضُ والجوعُ على أناس أبرياء، من دون ذنب اقترفوه، ويتركون وراءهم من هم أفقر منهم، وأحوج منهم إلى عدْلٍ ومِنَحٍ لا تُدرَك. ألا ترى قمّة الظُّلم في أن يَنْعَم الظّالمُ أو السّارق بظلمه وماله، ويموتَ في القصور والنَّعيم، والمظلومُ والمسروقُ يموتُ كَمَدًا في الجحور بحثًا عن عدلٍ مفقود؟

فأجبته وأنا أشعر أنّي قد وصلت إلى هدفي ومبتغاي:

«زرادوستار»: يا صديقي، إنّ ما تقولُه بالتّحديد هو ما أرنو إليه منذ بدأنا هذا الحوار. فإنَّ فطرتَك استنكرَت أن تضيعَ الحقوق، وألّا يستقيمَ العَدْل، وألا تُرَدَّ المَظالِم. فإن كانت فطرتُك تُنكرُ هذا كلِّيًا، فهذا دليلٌ قطعيٌّ على وجود خالقٍ قد أوجد تلك الفطرة، وشكّلَها، وألهمَها الصَّوابَ من الخطأ، وفطرَها على إنكار المُنْكَر، وردِّ المظالِم والحقوق، وعقابِ المخطئِ، ومكافأةِ المُصيب.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

وهذا دليلٌ على حياة آخِرة تُرَدُّ فيها المظالمُ والحقوق؛ حياةٌ آخِرة بين يدَيْ خالقِ الحياة الأولى وفاطرِها، يُقام فيها الميزانُ القِسْطُ الذي يُعيدُ الحقوق، يَفرَحُ فيها المُصلِحون بصلاحهم، ويُكِبُّ فيها الظالمون والمفسدون على وجوهِهم. فإنكارُكَ لزوالِ العدل -يا صديقي- دليلٌ على وجوبِه ووجودِه في زمنٍ آخر، بمعاييرِ خالقِ تلك الفطرة ومُبدِعِها. تلك هي الفطرةُ والبَداهة التي لا محيصَ منها، وهذا هو التناقضُ الذي يقودُ إلى الحقائق، ويُخرجُ من الظُّلُمات إلى النور.

وبخصوص ما ذكرتَه عن آلهةٍ تُعْبَدُ في الأرض، من دون سلطانٍ أو حقّ، كالأحجارِ والنار وما شابههما، فإنّي أتّفقُ معك تمامًا. فلا يُعْقَلُ أن تكونَ هذه المخلوقاتُ المتغيِّرةُ آلهةً تُعبَدُ أو تُحمَدُ أو تُطاع، وما لها من سلطانٍ على نفسها بالأساس؛ فما بالك بهذا الكون الفسيح؟ ولكن، قد يكونُ الإنسانُ قد لمسَ فيها قوَّةَ الخالق، فتبرَّكَ بها، إلى أن صارَتْ مع مرور الزَّمنِ آلهةً تُعْبَدُ من دون الخالق أو معه.

فقوَّةُ النّارِ والرِّياح، وجمالُ القمر، وحَرُّ الشَّمس... كلُّها هِباتٌ قد وهبَها الخالقُ للإنسان، ليلتمسَ قوَّةَ الخالقِ الحقيقيّة. فعَمَدَ الأجدادُ إلى شُكْرِ فَضْلِهِ تعالى، في التَّبَرُّك بهذه القِوى، خوفًا من بَطْشِه بهم من خلالِها، في بعض الأحيان. وما كانَ من الأحفادِ، مع مرور الزمان وانحرافِ الأفكار

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

واضمحلالِها، إلّا أن حوَّلوا الخوفَ إلى قُدْسِيَّة، فصارَتْ تلك القوى من المقدَّسات. وبمرور الزمن، تحوَّلَتِ المقدَّساتُ إلى معبودات. ولا يخفى عليك أنَّ الحالَ نفسَهُ حدثَ مع الأشخاص أصحابِ الفضلِ والهِبات، وكيف حوَّلَهُم البشرُ إلى خوارق، ثمَّ قدّيسين، ثمَّ آلهة تُنْحَتُ لها الأصنام.

أمّا الصُّدَف، يا سيّدي، فدَعْنا نتَّفق في البداية على تحديدِ ماهيّتِها وكُنْهِها، قبل أن نسترسلَ. ألا تتَّفِقُ معي أنَّ الصُّدفة هي ما تَصادفَ حدوثُه بدون حولٍ ولا قوّة ولا ترصُّدٍ أو تخطيط، أو تدخُّلٍ أو فضلٍ من الإنسان؟ وأنَّ وقوعَها يستندُ -بشكلٍ كلّي- إلى غيبٍ لا علمَ لنا به، ولا دخلَ لنا في حيثيّاته، أو كيفيَّةِ حدوثه؟ وهذه الصُّدَف -وإن كثُرَت- إنَّما تعضُدُ فكرةَ وجودِ قوًى غيبيَّةٍ تتخطّى إدراكَ البشر. وعدمُ إدراكِها لا يعني أن ننكرَها، وإن حاولنا إنكارَ الغيب. فإنَّ الصُّدَفَ، في حدِّ ذاتِها، تَحولُ دونَ إنكارِ ذلك الغيب. قد تسمِّيها صدفةً، أو غيبًا، والآخرون قد يسمّونها قَدَرًا؛ وما من قدَرٍ إلّا وله مُقَدِّرٌ قادرٌ عليه؛ وما من غيبٍ إلّا وبه عالِمٌ عليم. فوجودُ الصُّدَفِ والغيبِ والقدرِ، وما يتخطّى قدراتِ عقلِ وجسدِ الإنسان، وحتّى خيالِه، إنّما يُثبتُ وجودَ الخالقِ القادرِ المتفرِّدِ المبدعِ العظيم.

نَخلُصُ من هذا الحوار، يا صديقي، إلى أنّه لا بدَّ لهذه المخلوقات والقوى

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

من خالقٍ قادر، تَفُوق قوَّتُه وقدراتُه كلَّ القوى، ولا يُشبهُ شيئًا من تلك المخلوقات. وقد بَثَّ فيها من العلامات والإشارات ما يَهدي إلى دربه وصِراطه المستقيم. وما نحن غارقون فيه الآن من انحلالٍ عقائديّ، إنّما نَجَمَ عن الإنسان نفسه، وانحرافِهِ عن الدَّرب، وتشبُّثِهِ بالعلامات فقط.

لا أدري إن كانَ الضّيفُ قد اقتنعَ أو امتنع، لأنّي لم أتبيّنْ ملامحَهُ من الظّلام. وقبلَ انشقاقِ اللّيلِ عن فجرِ يومٍ جديد -وعند هذه النُّقطة- انتهى الحوارُ في تلك اللّيلة، مُعلِنًا بدْءَ جولاتٍ وصولاتٍ ومعاركَ حواريَّةٍ جديدةٍ، أكثرَ تحدِّيًا وعُمقًا وحدَّةً، بيني وبين صديقي الزّائر، لليالٍ كثيرةٍ تالية.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

زرادوستار والعَدَم

جائز ومستحيل وواجب

في ليلةٍ تتشابهُ كثيرًا مع سابقَتِها، سمعْتُ الخطواتِ ذاتَها تقترب، وإذا بالزّائر نفسِه يُقبِلُ من جديد. ومن دون مقدِّماتٍ أمسكَ دفَّةَ الحوار، وبنبرةٍ يشوبُها الكثيرُ من التهكُّم والتحدّي، خاطبَني قائلًا:

الزّائر: يا صديقي، للأسف، لم يكن حلوُ كلامِكَ وفصاحتُه وحماسُكَ بالأسباب الكافية لتسترَ عَوار منطقِكَ، واختلالَ نظريَّتِكَ، وتداعيَ براهينِك. فنظريَّةُ العِلِّيَّة ذاتُها تُبطلُ نَتائجَكَ بشكلٍ كُلّيّ. تلك النّظريَّة التي استندْتَ إليها والتي تدَّعي أنَّ لكلِّ علَّةٍ معلول، ولكلِّ مخلوقٍ خالق، تقودُكَ مباشرةً إلى السؤال الذي ينقُضُ منهجَك، ألا وهو:

- مَن خلقَ ذاك الخالقَ ما دام لكلِّ علَّةٍ معلول؟

- ومَن خلقَ خالقَه؟

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

- وما دامَ النّجّارُ يصنعُ الطّاولةَ من الخشب، والحدّادُ يصنعُ السّيفَ من الحديد، فمِن أيِّ شيءٍ خلَقَنا ذلك الخالق؟

- وإن كان خلقَنا من مادّةٍ ما، مَن خلقَ تلك المادّة؟ وأين هي الآن؟ أم خُلِقَ هذا الكونُ من عدم؟

- وإن كنتَ ستقولُ إنّه العدم، فما هو هذا العدمُ المزعومُ إذًا؟

لا داعي للمقاومة، يا صديقي، الآن. يؤسفُني أن أُعلنَها لك: إنَّ كلَّ محاولاتِك صارت هي والعدم سواء؛ إن كنت تُدركُ حقًّا ماهيّة العدم!

للشّماتة رائحة، تعرَّفْتُ عليها للمرّة الأولى، حين انتهى الزّائرُ من حديثه، إذ ملأَتْ أنفي وعقلي! لم تكنْ عيناي تريان ملامحَ الزّائر من شدّة الظّلام، ولكنَّ قلبي رآه يضحكُ بِخُبث، ظنًّا منه أنّه قضى عليّ، وأسقط حُجّتي.

ساد الصَّمْتُ للحظاتٍ، شعرْتُ خلالها، من صوتِ أنفاسِه، كم هو سعيدٌ بنصرٍ مزعوم، قبل أن أُمسِكَ بزمام الحوار. وككلِّ اللّيالي التي جمعَتْنا سويًّا، لم تكن أسوارُ الظّلام لتسمحَ لعينَي كلٍّ منّا أن تنفذَا لتُدركا إحدى يديه. ومع زُهدي الشّديد، وانقطاعي للتفكُّر والدِّراسة والتَّدبُّر، لم أحاولْ أن

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

أَهدِمَ أسوارَ الظّلامِ تلك، ولو بِمُستصغَرِ الشَّرر. فقد ألِفْتُ الظّلام وألِفَني.

مددْتُ يدي في الظَّلام ما بيني وبين الحطّاب، وصحْتُ به:

«زرادوستار»: ما لك تمتنعُ عن مصافحتي، وتتركُ يدي ممدودةً إليك من دون أن تحرِّكَ ساكنًا؟

فاستفزَّهُ صياحي، وأجاب بعصبيّةٍ بالغة:

الزّائر: وكيف لي أن أُصافحَكَ، أو حتّى أرى يدك الممدودة إليَّ في هذا الظّلام؟ وما يمنعُني إن رأيتُها أن أصافحَها؟

هنا أخذْتُ زمامَ المبادرة، وحدَّثْتُه قائلًا:

«زرادوستار»: إذًا، أنت لم تُنكرْ أنَّ يدي كانت ممدودةً إليك، ولكنَّ عجزَك عن رؤيتِها هو ما منعَكَ من مصافحتي!

دعني أسألُكَ أيضًا، هل عدمُ رؤيتِكَ للشَّمسِ ليلًا ينفي وجودَها؟ هل ترى الأشياءَ بوضوح إذا بالغْتَ في القُرب منها، والتصقْتَ بها؟ هل تستطيعُ أن تميِّزَ الأصوات إذا ارتفعَتْ عن حدِّ مقدرةِ أذنيك على الاستيعابِ والسّمع؟ هل عدمُ سماعِكَ الآن لحديثِ خُدّام النَّار في المعبد ينفي أنَّهم ربّما يتحدّثون الآن؟

دعني أيضًا أُجيبُ عنك: - بالطَّبع لا!

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

هل تُنكرُ وجودَ الرّوح رغم أنَّك لم ترَها؟ هل تُنكر وجودَ الحُبِّ والعواطفِ بشكلٍ كامل، إذ لا يوجدُ دليلٌ مادِّيٌّ واحدٌ تستطيعُ أن تدركَهُ لتثبتَ وجودَها؟

- بالطّبع لا؛ لأنَّ تلك الأمور كلّها تقعُ في نطاق الغيبيّات. فقد غابت عن إدراكِكَ واستيعابِك، أو نظرِكَ أو سمعِك. ولكن، وبرغم غيابها عن حيِّز إدراكِكَ، هي موجودةٌ بالضّرورة ومن دون أدنى شكّ. ذلك هو المنطق المستقيم الذي يتَّسقُ مع العقل والفكر.

ألا توافقُني هنا أنَّ هذا دليلٌ قاطعٌ على وجود الغَيْب، ووجودِ ما يفوقُ قُدُراتِ الإنسان على الرُّؤيةِ أو السّمع أو الإحساس أو حتى التخيُّل؟

إذًا، عدمُ الإدراك لا يُلزمُ بالتبعيّةِ عدمَ الوجود. وهذا دليلٌ دامغٌ على وجود العدم، وإن كنتَ لا تستطيعُ تخيُّلَه. لأنّه، ببساطة، غيبٌ فاقَ قدراتِكَ على الاستيعاب.

أمّا قولُكَ يا صديقي عن خالقِ الخالق، فالمسألةُ بسيطة؛ هل يتساوى المقعد مع النّجّارِ في القدرات والإمكانيّات والخواصّ؟

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

- بالطبع لا. فلا بدَّ من أنَّ صانعَ هذا المقعد يتَّصفُ بصفاتٍ، ويمتلكُ قدراتٍ، تفوقُ ما صنع، وبشدّة.

واستكمالًا للمنطق ذاته، فإنَّ العقلَ البشريَّ ببداهته، يتقلَّب بين ثلاثةِ أحوال، يحكُم ويعقِلُ بها الأشياءَ من واقعٍ وخيال، وهي: «جائزٌ ومستحيلٌ وواجب».

وتقتضي البداهةُ أنَّ لكلِّ ممكنٍ أو جائزٍ صانعٌ «واجبُ الوجود». وما دمْتُ أنا وأنتَ والمخلوقاتُ والكونُ، كلُّنا نقعُ في إطار الممكن، فما كان لي أن أوجَدَ إن ماتت أمّي قبل ولادتي. فأنا ممكنُ الوجود، وتحتِّمُ البَداهةُ وجودَ «واجبِ الوجود»، صاحبِ القُدُراتِ المتناهية والكاملة، القادرِ على جعلِ ما هو ممكنٌ واقعًا وموجودًا. فما من شكٍّ أنّهُ الخالقُ العظيم، القادرُ على أن يُحيلَ المستحيلَ إلى ممكنِ الوجود. وما تجدُهُ من إنكارٍ في عقلِكَ لقدراتِ ذلك الخالق، وخَلقِه الكونَ من العدم، إنّما لعجزٍ في العقلِ البشريّ عن إدراكِ ما يفوقُ قدراتِه، وما هو مُغَيَّبٌ عنه، سواء كان خالقًا أو حتّى عدمًا.

وهذا الخالقُ، بعظمتِهِ وقدرتِه، واجبُ الوجود، ليسَ كمثلِهِ شيء، يُدرِكُ ولا يُدْرَك، ولا يضاهيهِ شيءٌ ممّا خَلَق. فكيف تَقيسُ على

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

عقلِكَ الممكن، قدراتِ واجبِ الوجود، الذي خلقَ عقلَكَ وصنعَه والكونَ كلَّهُ من العدم؟!

عند هذا الحدِّ كانت عادياتُ الصَّباح تُطاردُ فلولَ اللَّيل مدحورةً، وتنشرُ في الدُّنيا أهازيجَ انتصارِ نورِ الخالقِ العظيم! وكان الزّائرُ قد استبقَ الصَّباحَ بالرحيل، وتركَني مرَّةً أخرى لأفكاري وأوراقي.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

زرادوستار والتِّرياق

لا إله إلّا الواحد الخالق الأحد

توالَتْ زياراتُه في ليالٍ مشابهة، وتوالَتِ الأحاديثُ والحوارات، وازدادَ الجدَلُ صخَبًا وحدّةً كلّما مرَّت اللّيالي وزادت حدّةُ الظّلام.

وفي إحدى ليالي زياراته المعتادة قال لي بتحدٍّ كبير:

الزّائر: يا صديقي، أراكَ تُفْرِطُ في التّفكير والتّأويل، ممّا يجعلُكَ تُفَرِّط في الحقِّ البَيِّن، والمنطق الواضح؛ فإن وافقْتُ منطقَكَ على غير قناعاتي ووقفنا سويًّا عند نقطةِ أنَّ هناك خالقًا واجبَ الوجود خلقَ هذا الكون ممكنَ الوجود، فلماذا هو واحدٌ؟! لماذا لا يساويه أو يناظرُهُ كُثُرٌ من أمثاله؟ بخاصّة مع هذا التنوُّع في المخلوقات والمعبودات؟ أتجزمُ أنَّ آباءَنا وأسلافَنا جميعًا مخطئين أن اتّخذوا آلهةً متعدِّدةً، وتقرّبوا إليها وعبدوها؟ فإن حالفك المنطقُ في وجود خالق، فإنّه قد جانبك في أنَّهُ واحد.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

«زرادوستار»: ألم تقل لي، يا صديقي، إنَّك حطّاب؟ فما مصيرُ ما تجمع من أخشاب؟ أليس النّار؟

الزّائر: بلى، ولكن ما لهذا وخالقِكَ العظيم؟

«زرادوستار»: إلامَ يستحيلُ الخشب بفعل النّار؟

الزّائر: إلى تراب.

«زرادوستار»: والإنسان، والحيوان، والنباتات، وحتّى ما يخرجُ من البحر، وما يطيرُ في السّماء من طيرٍ وحشرات، وما يزحف في الأرض من زواحف، ويَنبتُ أو ينمو حتّى في باطن الأرض... إلامَ يتحوَّلُ بفعل النّار ذاتِها يا صديقي؟ - إلى تراب.

ألا تَلفتُكَ تلك النِّهاياتُ المتشابهة، إلى تشابُهٍ في الخلْق ووحدةِ الخالق؟

أيستطيعُ النّبات أن ينموَ بدون ماء؟ أيقدرُ الإنسانُ أو الحيوانُ أو كلُّ ما يدبُّ على سطح الأرض، أو يطيرُ في السّماء، أو يَسبحُ في البحار، أن يعيشَ بدون ماء -قلَّ احتياجُه منه أم كثُر-؟ أليس هذا أيضا تشابُهٌ لافت؟

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

ألَم تتدبَّرْ يومًا في كلمةِ الفطرة؟ من أين يأتي الحبُّ ويعمُّ كافّةَ المخلوقات، في ما نستطيعُ أن ندركَهُ منها؟ حبُّ الأُمِّ لطفلِها، سواءٌ كانت تلك الأمُّ إنسانًا أو حيوانًا؟ العطفُ والشّفقة؟ الجوع، العطش، الخوف، البكاء... كلُّ المشاعر التي فُطِرَ عليها الإنسانُ والحيوانُ معًا، هل تَشكُّ في أنّها تتشابه جميعًا معًا؟ ألا يوحي لك هذا التّشابُه بوحدةِ المصدر؟

درسْتُ الطِّبَّ لسنين، وتيسَّرَ لي أن أفحصَ جسدَ الإنسانِ والحيوان من الدّاخل، ووجدتُ التركيبَ التّشريحيّ الدّاخلي هو ذاته -مع اختلافات بسيطة- لكافّةِ المخلوقات، من عاقلٍ وغير عاقل: العينين، الأنف، الأذنين، الأمعاء، المعدة، القلب، الرئة... حتى التّكاثر! ألا يُثبت لك هذا التوحُّدُ والتّشابُه وحدانيّة الخالق؟

على ذكر التّكاثر، ألم تُفكِّر يومًا في هذا التّطابق الكبير في أسلوب التّكاثر لدى كلِّ المخلوقات؟ حتّى لدى النّباتات، حيث يحتاجُ اللِّقاحُ إلى هواء يحمله نحو شجرة خصبة، فتُنبت ثمارَها وأجنَّتَها بفضل خالقِها؛ حتّى المخلوقات المائيّة، تتكاثرُ بطريقة مشابهة لعمليّة تكاثُرِ الحيوان والإنسان. ألا يُثبتُ هذا التَّشابُه الوحدانيّة؟

صديقي، إنَّ بصمةَ الخالق واضحة جليّة في كافّة المخلوقات، ولكنّها تحتاجُ فقط للتدبُّر والتعقُّل، لتنجليَ لأُولي الألباب.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

ألم تتدبَّرْ يومًا ذلك النِّظام الفريد لنجومٍ تَهدي النّاسَ طُرقاتِها ولم تضلَّ يومًا؟ شمسٌ لم تخلُفْ ميعادَها ولو للحظةٍ، تُشرقُ صباحَ كلِّ يومٍ جديد من دون تكاسُل؛ فصولٌ تتناوبُ ما بين شتاء وربيع وصيف وخريف من دون انحراف أو تقديم أو تأخير! ألم تتدبّر انتظامَ الكون بأكمله؟ أحقًّا تتساءل: «إن كانوا ألهةً كثُرًا، كيف لم يختلفوا، ويحيد هذا النِّظام ولو لشعرة؟!» ولكنَّ هذا الأمر لم يحدُثْ على الإطلاق، وإن حدث لهلكت كافّة المخلوقات.

يا صديقي، لقد كنتَ خيرَ عونٍ لي لأحظى بالتِّرياق، فها أنا قد وجدْتُ ضالَّتي التي بحثْتُ عنها لسنين، واهتديت إليها أخيرًا!

صديقي، لك أن تزعَمَ -خِلافًا للمنطق والعقل والبَداهة والفطرة- أنّهم آلهةٌ كثر، أو تُغالي وتقول إجمالًا: أن، لا إله.

ولكنّي أعلُنها عاليةً مُدوّيةً، وعن يقينٍ دامغ:

لا إله إلّا الواحد الخالق الأحد

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

(٩) أهريمان

نبيُّ آخرِ الزّمان!!

انقضَتْ بضعُ سنين وأنا أُحاولُ بشتّى الطُّرُق مع ذلك العنيد، قبلَ أن تتحوَّلَ أحلامي معه إلى أنقاض.

منذ سبعِ سنواتٍ كانت أحلامي على حافَّةِ الإدراك، يومَ كان عدوِّي الوحيد على حافَّة الهلاك.

تبعتُهُ يومَ خرجَ من بيته في تلك اللّيلة العاصفة، وكادت الرِّياحُ والأمطار تقتلعُ روحَهُ من جذورها. وشهدته في اليوم التّالي، حينما كان وحيدًا منبوذًا مريضًا في ذاك الكهف الذي قادَتْه الصُّدفةُ إليه وسط الظَّلام والعواصف. كان هلاكُهُ حتميًّا، وكان النَّصرُ قابَ قوسين أو أدنى؛ ولكنَّ القوسَ ذاتَهُ أطلقَ سهمَهُ الوحيد ليُرديَ أحلامي وآمالي صريعةً تحت أقدامِ عنادِ ذلك الشّابِّ وتمسُّكِه بالحياة.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

نجا، لا أدري كيف! ولكنّي رأيتُهُ يقاومُ الموتَ والمرضَ والألمَ والوهنَ ويتعافى! يا له من عنيد!!

ثمَّ لمحْتُ الشَّغفَ والإصرارَ ينموان بين عينيه، وفي حركاتِه وسكناتِه. فكان يقضي يومَهُ يقرأُ بنهمٍ كأنَّهُ يلتهمُ المخطوطات، ويقضي ليلَه يتدبَّرُ ويتفكَّر. فما كان يستريحُ نهارًا إلّا القليل، وما كان ينامُ من اللّيل إلّا الأقلّ.

كان لا بُدَّ لي من أن أقتلَ ذلك الشَّغفَ قبل أن يكبُرَ فيقتلَ الشَّكَّ ويولِّدَ محلَّه الإيمان. كان لا بُدَّ للشَّكِّ أن يعيشَ، وينموَ ويكبرَ، فذاك الشَّكُّ هو السَّمُّ القادرُ على قتلِه. وجاء دوري لأمنعَهُ من إيجادِ التِّرياق.

اخترْتُ أن أواجهَهُ بنفسي؛ أن أذهبَ وأغتالَ جنينَ الشَّغفِ، وأقتلعَ بذرةَ الإيمانِ قبل أن تَنبُت. فاخترْتُ مِنَ اللّيالي أحلكَها ظلمةً ووحشة، ومن الوساوسِ أفلحَها وأحكمَها، ورحْتُ أفعلُ ما أُجيدُهُ حقًّا. فتقمّصْتُ شخصيَّةَ الحطّاب، ورحْتُ أتردَّدُ عليه في تلك اللّيالي في كهفه، وأحاولُ أن أجرِّعَهُ من الوساوس والسُّموم ما استطعْت؛ أَسقي شجرةَ الشَّكِّ لتكبرَ وتُثمِرَ، وأغتالُ بذورَ الإيمانِ والحقّ.

ومرَّةً تلوَ الأخرى، كانت مخطَّطاتي وأحلامي، وحتّى منطقي، تتكسَّرُ على صخور عِنادِه أمامَ قوّة حجَّته. إنّه حقًّا عنيد!

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

على عكس ما خطّطْتُ وتوقَّعْت، كانت زياراتي له كالشَّرَرِ الّذي أمسكَ بهشيمِ أفكارِه وشكوكِه، وأحرقَها كاملةً، من دون حَوْلٍ منّي ولا قوَّة على إخمادها، وأنضجَتْ تلك النّار ما كنتُ أخشاهُ من أفكار! فخابَ أملي، واُحبِطَ مَكْري، وتحوَّلَ هو من شابٍّ مُشْرِفٍ على الهلاك يَهيمُ في حُجُرات الشَّكّ، ويُحاولُ طَرْقَ أبوابِ اليقين من دون مُجيب، إلى مُحاربٍ يتشبَّثُ بأفكارِه، ويتسلَّحُ بالإيمان، آخذًا حجَّتَهُ ومنطِقَهُ دِرعًا حصينًا. وفجأة فُتِحت له الأبواب التي كان يطرقُها من زمن، بل حطَّمها، ودلَفَ بثقةٍ وهدوء إلى فسيح جنّات الإيمان واليقين!

تبًّا له من عنيد! هزمَني، وأذلَّني، وقلبَ انتصاري إلى عار! تبًّا له، جعلني أنا التِّرياق لِسَمٍّ دسسْتُه في حياتِه مدى سنين، لأكونَ أنا السَمَّ والتِّرياقَ دونما عِلْمٍ منّي ولا تخطيط.

ليتني، حين مرضِه، أطلقْتُ عليه أحدَ أتباعي لينهشَهُ ويُهلكَهُ في ذاكَ الكهف. ولكن، ما نفعُ التمنّي الآن؟! تلك جولةٌ أخرى ربحَها، ولكنَّ الحربَ ما زالت في بدايتها.

ولكنّي لن أسمحَ لتلك السَّنواتِ أن تمضيَ هباءً، فقد غرسْتُ بذورًا كافيةً في «إريانا فيجا» وما حولها، وعَمِلْتُ على سَقْيِها ورعايتِها بالشَّكل

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

المطلوب، ولا بُدَّ لتلك البذور -صَلُحَ منها ما صَلُحَ، وفَسُدَ منها ما فَسُد- أن تَنْبُت، وأتعهَّدُ أن أرعاها إلى أن تُثمر. ويومًا ما سيَحينُ وقتُ الحصاد. وحينها سيكونُ نصري محتومًا، وستكونُ لي الرِّفعةُ والمكانةُ والغَلَبَةُ على هذا النبيِّ وأتباعِه.

نعم نبيٌّ! لا تتعجّبْ أنّي أَعلمُ وأَعترف. لا أزعمُ أنّي أقرأُ المستقبل، بل أنا أقرأُ الماضي والتّاريخ، وأتعلَّمُ منهما الدُّروس. لسْتُ بِغباءِ البشرِ من أبناء الطّين، أهرولُ نحو سرابِ الغيْبِ والمستقبلِ سبعَ مرّات، بل مئاتِ المرّات. كم نبيًّا عاصرْتُ وصارعْتُ من قبل؟ وعبَرْنا في حروبِنا الفصولَ ذاتَها، كأنّ الروايةَ ذاتَها تعادُ فصولُها، بالترتيبِ ذاتِه، والأحداثِ ذاتِها، مع اختلافِ الشَّخصيّاتِ والأزمانِ والأماكن. وفي كلِّ زمانٍ ومكانٍ يزعمُ بنو البشر أنَّ هذا النّبيَّ سيكونُ نبيَّ آخِرِ الزَّمان، بحنينٍ لا يَنْفَد، حتّى نهايةِ حياتِهم على الأرض، طمعًا منهم، وشوقًا، لنهايةٍ تُحقِّقُ أحلامَهم وطموحاتِهم، وتُنهي شقاءَهم وعذاباتِهم؛ حنينٌ إلى مهدِ أبيهم الأوّل، دارِ النَّعيمِ والخلود. ولكن هيهات! فلمن خُلِقَ الجحيمُ إذًا؟! سيقفُ كَيْدي دائمًا كالجِدار الشّامخِ في وجه أحلامِهم وأمانيهم، يقطعُ طريقَ عودتِهم إلى مهدِ أبيهم، بل يُحَوِّلُهُ إلى رِفقتي في الجحيم الأبدي.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

سَيَدْعُونَهُ نبيَّ آخِرِ الزّمان، إلى أن يأتيَ من بعدِهِ نبيٌّ آخر، يتلوه آخر... حتّى مجيءِ النبيِّ الأخير. ولكنّي لهم جميعًا بالمرصاد. لهذا هبطْتُ، ولهذا هوَتْ مكانتي من أعالي السّماء إلى حضيضِ طينِ الأرض، ولهذا لن يرتاحَ لي جفنٌ حتى أحصُدَ جُلَّ بني الطّين وأحملهم معي إلى قاع الجحيم.

انقضَتْ ثلاثةُ عقود منذ يومِ انقدحَتْ شرارةُ ميلاد «زرادوستار» لتحطِّمَ أسوارَ الظَّلامِ التي شيَّدْتُها حول «إريانا فيجا» لعقود. ها هو يُتمُّ عَقْدَهُ الثّالث في أحد كهوف جبل «سابلان»، باحثًا عن حقيقةٍ سُقْتُها إليه كالأبله! لم أقدِّرْهُ حقَّ قدرِه؛ استهونتُه واستخففْتُ بعقله. غلبَني بعنادِهِ وصَبرِهِ ومَنْطِقِه. ولكنّي تعلَّمْتُ وأدركْتُ، وأنا الآن أقوى!

نثرْتُ بذورَ الشَّرِّ والفتنةِ في أرضِ «إريانا فيجا» وما حولها، لينزلَ من كهفِه فيجدَها أنبتت أشواكَ البُغضِ والظّلامِ والعداءِ والحقد؛ لتُدميَ أقدامَه، وتَحولَ دون متابعتهِ مسيرتَه نحو النّور، وتُعرقلَ التِفافَ النّاس حولَه.

أُراقبُهُ عن كَثَب منذ أتى إلى جبل «سابلان». صرْتُ أعرفُ حرَكاتِه وسَكَناتِه؛ في هذا الوقت من الصّباح، سيخرجُ من كهفِهِ إلى مجرى النّهر، عند سفحِ الجبل من الجهة المعاكسة للبلدة، ليغتسلَ ويشرب. ولكنّي أستشعرُ أنَّ اليومَ لا يشبهُ سابقَ الأيّام؛ ثمّة ريحٌ في الأجواء غيرُ الرّيح المعتادة، والسَّماءُ تنشقُّ

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

عن نورٍ يفوقُ نورَ الشمسِ سطوعًا وإبهارًا. أعرفُ هذا النّور وتلك الرّيح؛ لا بُدَّ أنَّ الميعادَ قد حانَ لقدوم زائرِ السّماء! لننظرْ وننتظرْ.

ما هي إلّا دقائق، حتّى خرجَ «زرادوستار» من كهفه في ميعاده المعهود، متَّجهًا إلى مجرى النّهر. ومن حيث لا أدري، ظهرَ على صفحة النهر، رجلٌ مَهيبٌ أبيضُ الوجه، تُحيطُ به هالةٌ من نورٍ وجَلال، وسار آخذًا في الاقتراب من «زرادوستار». إنّه هو! أعرفُهُ وأميِّزُهُ مهما حاولَ أن يغيِّرَ شكلَه، أو يتجسَّدَ في هيئةِ البشر؛ صاحبُ وجارُ الأمس، وعدوُّ اليوم: «فوهوما» زائرُ السَّماء ورسولُها، حاملُ الرِّسالات الأمين!

لم أتعجَّبْ من قُدومِ «فوهوما»، فكما ذكرْت، كانت كلُّ الظُّروفِ والأجواء تُنبئُ بقدومه، ولكن، ما دعاني للعجبِ حقًّا، كان ردُّ فعلِ ذلك الشابِّ العنيد «زرادوستار»، الذي بدا كأنّه ينتظرُه! علا وجهَهُ السُّرور، وكسَتْ ملامحَهُ السّعادة والثّقة والأمل والبهجة! هل كان حقًّا ينتظره؟ أنّى له تلك الطُّمأنينة وذاك السُّكون؟!

كنتُ أقفُ متخفِّيًا، أسترقُ السَّمعَ والنَّظرَ من حيث لا يُدركان وجودي؛ ولكنّي شعرْتُ بعينَيْ «فوهوما» تخترقاني بنظراتٍ كالسِّهام! فتراجعْت، واكتفيْتُ بمراقبتهما من بعيد. حاولْتُ أن أفهمَ وأستنبطَ ما يَحْدُث. رأيتُهما

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

يتبادلان أطرافَ الحديثِ بكثيرٍ من الودِّ الذي كاد يقتلني، كأنّهما يتعمّدان تعذيبي! لا بُدَّ أنَّ «فوهوما» بلغَهُ الآن نبأُ اصطفاءِ السّماء لـ«زرادوستار» ليكونَ رسولَها على الأرض، بعدما اهتدى إلى حقيقةِ الخَلْقِ والخالق!

أكادُ أُدركُ هذا كلَّه في تفاصيلِ ملامحِ «زرادوستار»، وحميميَّة وجدِّيّة «فوهوما». استمرَّ الحوارُ لدقائق، كنتُ خلالَها أموتُ غيظًا وشوقًا لمعرفة ما يقولانه. ثمَّ رأيْتُ «فوهوما» يحتضنُ «زرادوستار» حتّى ذابَ بين ضلوعِه، وتلاشى الاثنان في نورٍ عظيم أحاطَ بهما! ظلَّ النورُ يزدادُ بريقًا وتوهُّجًا لفترةٍ قصيرة، ثمّ بدأ يتعالى نحو السّماء. في تلك اللّحظة، شعرْتُ بخطرٍ عظيم! هل سيُعَرِّجُ به إلى عرش السّماء حقًا؟! لطالما استخفَفْتُ بهذا الشابِّ العنيد، ولطالما فاجأني!

تتبَّعْتُ هالةَ النُّور التي تخترقُ السّموات متعاليةً، في محاولة يائسة منّي لمعرفة ما سيحدُث. ولكنّي، عند حدٍّ معيَّن، فوجئْتُ بشهابٍ حارقٍ يترصَّدُني، ولو اقتربْتُ أكثر لاحترقْت، فآثرْتُ العودةَ حاملًا أحبالَ الخيْبَة والخُزي.

ها هو الشَّابُّ الذي عجزْتُ عن قتلِه أو حتّى إحباط همّتِه أو إفسادِه، ينالُ المكانةَ والشّرَف اللذين حُرمْتُ منهما للأبد!

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

واحسرتاه!

ستكون الأيّامُ القادمة أيّامًا عُضالًا، ولكنّي سأستعدُّ، ولن أستهينَ به بعد اليوم.

عُرِجَ بـ«زرادوستار» العنيد إلى السماء، وأنا منفيٌّ في أرض الطّين بين خَلْق الطّين. أَنعِم يا صديقي بما ستقضيه من وقت في السّماء، لأنّي أعدُكَ أنّكَ ستُلاقي منّي كلَّ صنوفِ الكَيْدِ والعذاب حينما تعودُ إلى أرضِ الطّين من جديد. مهما طالَتِ الحربُ بيني وبينك، يا من يدعونَهُ نبيَّ آخِرِ الزّمان.

حتمًا سأنتصر!

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

(١٠) ميتيوماه

عودةٌ ثانية

ما زلتُ أتذكَّرُ، منذ سنينَ طويلة، عندما عاد عمّي وابنُه «زرادوستار» إلى قريتِنا بعد غيابهم لسنين. لم أكنْ قد عاصَرْتُ خروجَهم الأوّل من القرية، واختفاءهم، لأنّي لم أكنْ قد وُلدت في ذلك الحين، ولكنّي أتذكَّرُ جيِّدًا عودتَهم إليها، وكيف تعلَّقْتُ بابنِ عمّي النّابغة «زرادوستار».

أتذكَّرُ جيِّدًا ما حكاه لي أبي عن ابنِ أخيه المعجزة، المسكوتِ عنهُ بأمرِ المعبدِ الكبير. فقد كان الحديثُ عنه في العلَن، وعن معجزاتِ ميلاده، من الكبائر. وعندما عادَ عمّي مع زوجتِهِ و«زرادوستار» إلى مسقط رأسهم، كانوا يُخفون هويّاتِهم الحقيقيَةَ، ودخل عمّي القريةَ تحت اسمٍ مستعار.

أتى لزيارتِنا، ولم يعرفْهُ أبي في البداية، لِما فعل الزمان بالوجوه. ثمَّ أفضى لأبي بسرِّه. يومَها أخَذَنا الذُّهول حين علمنا أنّهم ما زلوا أحياء ولم تأكلْهم النار كما كنّا نعتقد، وكما روَّجَ وأشاعَ خدمُ النّار! ولكنّه طلبَ من أبي العهدَ

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

على كتمان سرِّهم، وإخفاءِ هويّاتِهم الحقيقيّة عن العامّة، حفاظًا على روح «زرادوستار» من كهنة المعبد وخدم النّار. فأعطاه أبي العهد، ومنذ ذلك اليوم نكتمُ سرَّ «زرادوستار» وبيت عمي عن باقي أهل القرية؛ ومنذ ذلك اليوم أيضًا، ازدادَ تعلُّقي بابن عمّي «زرادوستار»، وبأخبارِه وأسفارِه وقصصِه وعلمِه ونبوغِه.

فقد كان نابغة زمانه. لم أكنْ أدري أحقًّا تُحيط به هالات النّور، أم أنا أراه هكذا من شدّة إعجابي به؟! كان غزيرَ العلم، شديدَ الصِّدْق، محبًّا، أمينًا، مخلِصًا، حنونًا، رؤومًا، رحيمًا، شديدَ العطفِ على الفقراء والمرضى والمساكين؛ لم يتوانَ -ولو للحظة- عن مدِّ يد العون لأيٍّ منهم، سواء بعلمه أم بما ملكت يداه. وفي أيّام الحرب والمجاعة، كان دائمًا في الصُّفوف الأولى، يُعين المصابين والمرضى، ويواسي الثّكالى والمفجوعين.

تعلَّقْتُ به وأحببتُه كثيرًا، ولكنَّ كثرةَ تجوالِه، وتغيُّرَ أحوالِه، حالا بين اقترابي منه ورفقتِه للارتواءِ من صُحبتِه. وفجأةً اختفى كما ظهر! كان كنجمٍ لمعَ فجأةً في السّماءِ من العدم ثمّ اختفى، تاركًا فراغًا من خلفه لا يَقدرُ أحدٌ أن يملأه.

ثمَّ عادَ «زرادوستار» من جديد!

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

لكنّه تغيَّرَ كثيرًا! ليس الوجهُ الذي عاد هو ذاته الذي غاب! كانت ملامحُهُ -قبلَ أن يغيب- تَحملُ كثيرًا من الشَّكِّ والرّيبةِ والقلق؛ الآنَ أتى بوجهٍ يحملُ اليقينَ والأملَ والقوَّةَ والإصرار. عيناه تلمعان ببريقِ العزيمة؛ هالاتُ النّور من حولِهِ ازدادَتْ، بل تضاعفَتْ! بمجرَّدِ أن تراه، تدركُ أنّه الآنَ أقوى. ولكن، هل ما زالَ يحملُ الحلمَ نفسه، والحبَّ ذاته، والعطفَ إيّاه؟ هل هو الطّبيبُ نفسُه، القريبُ والطيّب، الذي غاب منذ سنين؟ - لا أدري حقًّا كُنْه ما تغيَّر فيه، ولكنَّه بالتّأكيد تغيَّر.

ولكن هل ستَصْمُدُ تلك القوّةُ أمام ما ينتظرُهُ من أخبار؟ فلم يكنِ القدرُ رحيمًا به أو بعائلته بعد غيابه. ولعلّي لا أدري حقًّا إذا كانَ القدرُ هو السّبب في ما حلَّ بأهله بعد غيابه، أم أنَّ غيابَه نفسَه كان هو السَّبب في ما توالى من أحداث؟!

هل ستصمدُ تلك القوَّةُ أمامَ توالي ضرباتِ القَدَر؟ هل سيستوعبُ ما حدث؟ ولكن، لِأيِّ سبب غاب، ولِمَ عاد؟ تلك فعلًا حيرةٌ يجب أن أقتلَها بيقينِ القُرْبِ منه، ومعرفة أحواله عن قرب. وهذه المرّة إن كان هو الشَّخصَ الرّحيمَ نفسَه الذي غاب منذ سنين، لن أفوِّتَ فُرصةَ القُرب منه، والاستزادة من صحبته وصداقته.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

سلكَ طريقَه إلى بيت عمِّه -حيث أقيم- عابرًا أمامَ أطلالِ بيتِ أهله الخاوي. ولم يصادِفْ أحدًا في طريقِه فيتعرّفَ عليه. وصلني يحملُ الكثيرَ من القلقِ والتّساؤلات، ولكنَّ ذلك القلقَ لم يكن ليخفيَ ما ذكرْتُ آنفًا من التَّغَيُّرِ البادي عليه، والقوّة والإصرار الطاغيَيْن على ملامحه. تلقَّفتُهُ بمزيجٍ من الشّوقِ والفرحِ والحسْرَةِ والشَّفَقة في آنٍ واحد. كنتُ مشوَّشًا حقًّا، ونفدَتْ منّي الحيلة؛ فكيفَ سأسوقُ له الأخبارَ، وما فعلَتْه تصاريفُ القدَرِ بأهل بيته؟!

لم يُمهلْني كثيرًا، ولم يُفسحِ المجالَ لي حتّى أسألَه عن أحوالِه وغيابه، إذ بادرني بالسّؤال عن زوجته «هانويه» وأمّه وأبيه. هنا أُغلقَتْ في وجهي كلُّ أبوابِ الهرب، وصرْتُ أسيرَ سؤالِه، فكان لا بُدَّ من أن أسقيَهُ الحقيقةَ المُرَّة جُرعةً واحدة:

«ميتيوماه»: أي «زرادوستار» ابن عمّي الحبيب؛ تغيّرَتِ الدُّنيا كثيرًا بعد غيابك؛ وكأنَّ نورَ الحياة قد خَفَتَ شيئًا فشيئًا عن «هانويه» وأبويك، ثمّ تلاشى. تبدّلَتْ أحوالُهم، وحلَّ الوجومُ والحزنُ والترقُّبُ محلَّ الفرح. زهِدَتْ «هانويه» عن الأكل، والاختلاط والفرح والحياة بشكل عامّ، ودبَّ المرضُ ينهشُ أوصالَها. حاولَ أبواك جاهدَيْن أن يُسعفاها، ويقاوِما معها أعراضَ انسحابِكَ من حياتهم، حتّى نفدَ رصيدُها من المقاومة، ومن الحياة برُمّتِها، وسلَّمَتْ روحَها إلى بارئها.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

كان هذا بعدَ اختفائِكَ بشهورٍ قليلة. لم تتحمَّلْ زوجةُ عمّي فراقَكَ وفقْدَ زوجتِكَ، فماتَتْ كمَدًا وحزنًا بعد زوجتِكَ بقليل. وكانت صفعاتُ القدَرِ أقوى من احتمالِ عمّي الغالي. حاولْنا جاهدينَ مواساتَهُ في فقدِه، ولكنّه زَهِدَ في الدُّنيا وفي الناس، وانزوى وحيدًا في داره، حتّى وافتْهُ المَنيَّةُ بعدَ فترةٍ ليست بعيدة عن وفاة زوجته. فأصبحوا ثلاثتُهم بين يدَيْ الرَّفيق الأعلى.

لم يكنِ الموقفُ ولا الوقت كفيلان بأن أُلطِّفَ سوءَ الواقعِ وقسوتَهُ. وتخيَّلْتُ نفسي كالبركان يغلي ثمّ ينفجرُ، قاذفًا «زرادوستار» بحِمَمِ الحقائق، لتصيبَ قلبَهُ ووجهَهُ، وتحرُقَ روحَه. تطلَّعْتُ إليه بقلبٍ جريح، وخشيتُ أن يمتدَّ جرحُ قلبي إلى قلبه فينكسر، وأفقدَهُ من جديد، وهذه المرّة إلى الأبد.

انتظرْتُ منه الانهيارَ والبكاءَ والعويلَ والنحيبَ والحسرةَ ألمًا وندمًا؛ توقّعتُ أن يرتميَ على صدري، ويجهشَ بالبكاء، ويذرفَ أنهار الدُّموع على من ضاعَ ومن فارقَ ومن مات. لكنّي فوجئْتُ برباطةِ جأشٍ لم أرَ لها مثيلًا يومًا! كان ثابتًا كالجبال، باردًا كالثّلج، راضيًا بالقضاء، مستوعِبًا لتصريفِ الأقدار! اندهشْتُ من رَدِّ فعله! بل أصابني الهلع، لأنّي أعلمُ مقدارَ حبِّه لزوجتِه وأبوَيْه؛ وما كان لعاقلٍ أن يتصوَّرَ هذا التّفاعلَ مع تلك الأخبارِ المفجعة.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

لم يتجاوزْ ردُّ فعله بعضَ الذُّهول، والكثيرَ من الصّمت. ولم يكنْ لي من بُدٍّ -في مِحْراب صمتِه- إلّا أن أقيمَ صلواتِ الصَّمتِ تقديسًا لمشاعرِهِ وأحاسيسِهِ المضطربةِ بالتأكيد. استطالَ حبلُ الصَّمت ولم أقدر أن أقطعَه. فتركتُهُ لأفكارِهِ وخواطرِه، وأتمَّ ليلتَهُ من دونِ أن تنفرجَ شفتاه عن كلمة. استمرّ صمتُه لبضعةِ أيّام تالية، ومعه صمتي... إلى أن وجدتُهُ بين يديَّ يخاطبُني ليفتحَ أبوابَ الجحيم على مصاريعها في وجهه ووجهي، ويُحِلَّ بحديثه هذا دمَهُ ودمي! وجدتُهُ يحدِّثُني في أمورٍ تتخطّى خيالي، حين قال:

«زرادوستار»: ابنَ عمّي الحبيب، لطالما كنتَ أنت وعمّي خيرَ سندٍ لنا، وكاتِمَي أسرارِنا؛ حفظتُمُ العهد، ولم تتوانَوا لحظةً عن دعمِنا، منذ عُدْنا إلى هنا. ولم يكنْ لي من ملجإٍ يحتضنُني، بعد سنواتِ الغياب، إلّا بيتك؛ ولا عضدَ إلّاكَ بعدَ رحيلِ الأهلِ والأحبّاء. ولكن، هل لي أن أسألَكَ الصِّدقَ والشهادةَ، إن كنتَ عهِدْتَ عنّي أيَّ كذِبٍ أو رياءٍ أو غشٍّ أو افتراء؟ هل وصلَكَ عنّي ما يسوءُكَ في يومٍ من الأيّام، في حضوري أو غيابي؟

فأجبته متعجِّبًا وحازمًا:

«ميتيوماه»: «زرادوستار» الحكيم، لم نعهدْ منك يا أخي الحبيب سوى حُسنِ الخُلْقِ، والحِلْمِ، والصِّدْقِ، والودِّ. أشهدُ أنّي لم أرَ منكَ

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

أبدًا ما يسوء، بل إنّي أحسبُكَ مثالًا يُحتذى، ومصدرَ فخرٍ وسرورٍ لي ولكلِّ من انتمى إليكَ أو انتميْتَ إليه.

فقال لي:

«زرادوستار»: يا ابنَ عمّي، أنت تعرفُ أنّي أبحرْتُ على سفينةِ الوحدةِ والعزلةِ منذ سنين، ألاطمُ أمواجَ الفِراقِ والحزنِ في بحرٍ منَ الشَّكِّ، في رحلةِ بحثي عن الحقّ. أدركْتُ يومَ خروجي من بيتي حجمَ المخاطر التي تُحيط برحلتي تلك. منذ ذاك اليوم ونزيفُ التَّضحياتِ لم يتوقّف. ولكنّني اتّخذْتُ قراري، وما بقيَ لي بعد ذلك سوى الرِّضا بالقدر وما يستجلبُهُ من مسرّاتٍ ومضرّات.

وما إن تعمَّقْت في رحلتي تلك حتّى أدركْتُ الحقّ! وما إن وجدْتُه وأدركْتُه حتّى وجدَني وأدركَني، بل دعاني واحتضنني، وحمَّلني الرسالةَ والأمانة؛ فزادَ الحُلْمُ والهمُّ واليقين، وتعاظمَتِ المسؤوليّة. وبالتأكيد ستزدادُ المعاناةُ والتضحيات، وأنا راضٍ تمامَ الرِّضا، ومتسلِّحٌ بالصَّبْرِ والعزيمةِ والإيمان.

حين اصطفيْتُ الحقَّ اصطفاني، وحين سعَيْتُ إليه مخْلِصًا شرَّع أبوابَ عليائِهِ لاستقبالي، ولما اهتدَيْتُ إليه بعد بحثٍ دَؤوبٍ أهداني البشارةَ، فأرسلَ لي خير رسولٍ: «فوهوما»، الذي أتاني وأبلغني

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

باصطفاءِ ربّي لي، وبدعوتِه. اصطحبَني معه إلى علياء السّماء حيثُ عرشُ الحقّ، وتلاشَتْ عنّي الحُجُبُ، فخررْتُ ساجدًا تحت عرشِ «أهورا مازدا» الخالِقِ العظيم. وهناك أخذَ منّي الميثاقَ على أن أدعوَ النّاسَ كافَّةً في «إريانا فيجا» وما حولَها، لعبادتِه وحدَه، والإيمان به، والصّلاةِ والشكرِ له على أَنْعُمِه، والكُفْرِ بما خلاه من آلهةٍ ومعبوداتٍ باطلة.

ابنَ عمي وأخي، وكلَّ أهلي بعدما فقدْتُ أهلي، إنّي أدعوكَ -بين أوّل من أدعو- أن تؤمنَ بالخالق الواحد الجبّار، وأن تدعَ الشَّرْكَ إلى غير رجعة، وذلك أحسن اختيار؛ فما نفعُ النُّجوم والأصنام والنار، أتستحقُّ أن تُعبَدَ من دونِ الواحدِ القهّار، خالقِ الشَّمسِ والقمرِ والنجومِ والأرضِ والأنهار، والإنسانِ والحيوانِ واللَّيلِ والنّهار، مُجري السَّحابَ ورافعِ السَّماء ومُنزلِ الأمطار؟

أخي عهدتُكَ دومًا صاحبَ عقلٍ راجح، فهل تَعقُلُ وتقبَلُ أن نعبدَ أحجارًا لا تملكُ لنفسِها نفعًا ولا ضرَرًا، ونقيمَ لها الصّلواتِ، ونقدِّمَ بين أيديها القرابينَ والنّذور؟! هل يُعقَلُ أن نجعلَ الشرَّ إلهًا يُعبد؟! أيُّ منطقٍ هذا يا أخي؟! إنّما الخيرُ كلُّه منَ الإلهِ الواحد، وهو ذاته من خلقَ الشرَّ لنميِّزَ به الخير، والظُّلمَ والجورَ لنميَّزَ بهما العدل، ونركنَ إليه.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

تلك هي رسالتي وأمانتي الواجبة النّفاذ والتّبليغ. لذلك أدعوكَ يا أخي إلى دينِ التّوحيد، إلى الفطرة التي لا يمكنُ للعقل الرّاجحِ عنها أن يحيد. ولك أن تعلمَ يا أخي، أنَّ في هذا الدّين طَوْقَ النّجاة في الدُّنيا من ظُلْم الطُّغاة، وفي الأخرة من عذاب السعير.

فتَّحَتْ كلماتُهُ في عقلي طاقاتِ النّور، وأشعلَتْ كُتَلًا من نار! نورُ الحقِّ -فكلامُه لا يحيدُ عن الصِّدق- ونارُ الواقعِ الأليم، وما ستجلبُهُ دعوتُهُ ودينُهُ هذا علينا من بلاءٍ عظيم!

رأيْتُ كهنةَ المعبدِ ورجالَهُ يقاتلونَهُ ويصرعونَهُ انتصارًا لآلهتِهم ونفوذِهم وسَطْوَتِهم ومُلْكِهم وأموالِهم؛ رأيْتُ عامَّةَ النّاسِ تجترئُ عليه جهلًا، وتقديسًا لغير المقدَّس؛ رأيْتُ ملوكَ وأمراءَ يكذِّبونَهُ وينفونَهُ انتصارًا لسلطانِهم وأملاكِهم وما يحميها من ظُلْمِ وجورِ ومُهادنةِ المعبدِ المأجور.

إنَّ ما يدعو إليه -رغمَ صدقه- خطير، يضرِبُ كلَّ صاحبِ مصلحةٍ وجاهٍ وسلطانٍ في أعزِّ ما يَملُكُ، وأهمِّ موردٍ من مواردِ السُّلطان: الجهلِ والتّدليسِ وتغييبِ الشُّعوب تحت راياتِ حروبِ آلهةٍ، ومجدٍ وانتصاراتٍ من وحي خيالِهم الخبيث.

يريدُ أن يوقفَ رحى الآلهة والأديانِ التي تفرمُ عامَّة النّاس لتُغذّي أهلَ السُّلطةِ والسُّلطان، وتدعمَ مكانتَهم، وتزيدَ غلَّتَهم.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

اَلحقُّ سلاحُ الضّعيفِ إن اهتدى إليه، وعدوُّ الظّالمِ إن ظهرَ وثارَ عليه. ما إن فرغَ من حديثِهِ إليّ، حتّى مرَّتْ هذه الأفكارُ في عقلي وأمامَ عينيّ مرورَ السّحابِ في يومٍ عاصف، ووُضِعْتُ أمامَ خياراتٍ معقَّدَةٍ وصعبة.

لم يكنْ «زرادوستار» يعلمُ ما وصلْتُ إليه في قصرِ الحاكمِ ودولتِهِ من مكانةٍ بعدما تركَ البلدةَ واختفى؛ فقد كان عِلْمي بالهندسةِ والزِّراعة، وبراعتي بهما، السَّبيلَ لأرتقيَ وأصلَ إلى مكانةٍ مرموقةٍ تجعلُني من النّافذين، أصحابِ الأمرِ والنّهيِ والحلِّ والرَّبطِ في القصرِ، في ما يخصُّ هذين المجالَيْن تحديدًا.

وكان الخيارُ الأوَّلُ الأقربُ إلى قلبي، أن أفتحَ الأبوابَ كاملةً، داعمةً، مؤمِنةً، مصدِّقةً، تابعةً لابنِ عمّي، نبيِّ الأمَّةِ ورسولِ «أهورا مازدا». فأنا أُصدِّقُهُ بقلبي وعقلي، وأكادُ أَشعرُ بكلِّ كلمةٍ قالَها لي. أمّا عقلي، فكانَ يُدركُ ما سيتبَعُ الاتِّباعَ الكاملَ لتلك الرّسالة؛ فالاتِّباعُ لا بُدَّ أن يتبعَهُ الطَّرْدُ، وفقدانُ السُّلطةِ والسَّطوَةِ والمكانة. وبالتّأكيد لن أستطيعَ في تلك الحالة، دعمَ «زرادوستار»، أو حتّى حمايتَه بما في يدَيَّ من نفوذ، لأنّي سأفقدُها أذا أَعلنْتُ عن اتِّباعي له.

فكانَ الخيارُ الثّاني الأكثرَ صعوبةً، وكانَ صوتُ عقلي يهمِسُ به، أن أُفسحَ المجالَ لقلبي لتصديقِهِ بدون اتِّباع، لأستطيعَ أن أكونَ سندَه، وأُوَفِّرَ

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

له الحماية، إلى أن تعلوَ كلمةُ الحقِّ، وحينَها لن يمنعَ قلبي أحدٌ من إشهارِ اتِّباعِهِ لابن عمّي ورسالتِه السماويّة.

خيارانِ كلاهُما مُرٌّ، وعواقبُهما وخيمةٌ؛ إمّا أن تفقدَ المكانةَ والدَّعم، أو أن تُحبطَ «زرادوستار» بعدمِ قَبولِ دعوتِهِ ولو بالعقل فقط، ولفترةٍ محدودة. وهو قد اختصَّني أن أكونَ أوَّلَ مَن يدعو إلى رسالةِ الحقّ!

يا حقُّ أَلهمْني، فإنّي لا أُحسنُ الاختيار، وأَرشِدْني طريقَ دعوتِكَ، ودعْمِ نبيِّكَ «زرادوستار».

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

(١١) بنفدا

نارٌ تستعر وأخرى تنحسر

ظَهَرَ مِنَ العدم ليزيلَ الرّمادَ عن نارٍ أُخْمِدَتْ منذ سنين؛ نارٌ لو اشتعلَتْ من جديد ستأكلُ كلَّ ما بنيناه على مدى عقودٍ مضَت، وتُحوِّلُ معبدَنا هذا إلى أنقاض، وكلُّ من بداخله إلى قتلى أو جرحى. عن أيِّ نارٍ أتحدَّث؟ عَن نارٍ ستشتعلُ وتُهلكُنا، أم عن نارٍ ستنطفئُ ونهلَكُ دونَها؟

ظهرَ من جديد بعدَ ارتحالِه! ظهرَ ليَنبُشَ قبرَ دعوةٍ ماتَتْ منذُ أجيالٍ ودُفِنَت، ونحرُسُ قبرَها عبرَ العصورِ، حمايةً لها من نَبْشِ أمثالِه لها. لا أدري لماذا لا ينفَكُّ هو وأمثالُه عن المحاولة؟! أتذكَّرُ من ثلاثةِ عقودٍ أو يزيد، كادَ النّاسُ يُفتَنون بطفلٍ وليدٍ يحملُ الاسمَ نفسَه: «زرادوستار»، ولولا حكمةُ سيّدي الراحل «دوران سرون»، في ذاك الوقت، لانفرطَ عِقْدُ الآلهةِ المقدَّس، وانتشرَتْ من جديد بين الناسِ دعواتُ التَّوحيد. ستظلُّ تتساقطُ معجزاتُ «أهورا مازدا» فوق هذه الأرض من السماء كما الشُّهُب، إلى أن تُحرِقَنا جميعًا؛ ولكن، ليسَ تلك المرَّة.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

لا أدري لماذا يُفتتَنُ النّاسُ بهذا الكلامِ المعسولِ الذي يَسقيهِ لهم هذا الفتى «زرادوستار»، ومِن قَبْلِهِ أناسٌ كُثُر! كلامٌ عن إلهٍ واحدٍ وعبادةٍ ساميةٍ، وأخلاقٍ، وإخلاصٍ، وتسامٍ، وتآخٍ، ومساواة. عن أيِّ مساواةٍ يبحثُ أولئك الصّعاليك؟! هل يختلطُ الماءُ بالزّيت؟! هل يتساوى أَسيادُ القومِ وعُلِّيَّتُه بعمومِ النّاس؟!

يا لهم من صعاليك! إنّهم واهمون في تطلُّعهم إلى العُلا. لن تُطفأَ نارُ الآلهةِ المقدَّسة؛ ستظلُّ الهدايا والذّبائحُ والقرابين تُساقُ عند مذبحِ هذا المعبدِ ما حَييت. وقبلَ أن يُشعلَ نارَ الفتنةِ في قلوبِ النّاس سأُشعلُ مستقبلَهُ بالنّار. وقبلَ أن يمسَّ نارَ الآلهةِ بسوء سأُطفئُ زهرةَ شبابِه. لن يُبارينا في سُلطانِنا ونفوذِنا على الناس.

يُريدون عبادةَ «أهورا مازدا»؟ ومن مَنَعهم؟! ولكن هيهاتِ أن يُنكروا أو يَحجروا أو يُحاربوا آلهةَ آبائِنا وأجدادِنا. ستظلُّ تماثيلُها ونيرانُها صامدةً في وجوهِهم، تَمُدُّنا بالقوَّةِ والمالِ والسُّلطةِ والنّفوذ. يَعبُدونَنا ويُخْلصونَ لنا من خلالِها. تلك الآلهةُ وهذا الدِّين وطقوسُه هي مَلْهاتُهم ومُلْهِمَتهُم، كما أنّها مصدرُ أرزاقِنا ونبعُ حياتِنا الذي لم ولن ينقطع. نحنُ كهنةُ وسَدَنَةُ هذا الدّين، نقيمُ منه ما نُقيم ليستقيمَ الحُكْمُ والسُّلطانُ والنّفوذ؛ ونُنْكِرُ منه ما نودُّ أن ننكرَ لنستُرَ عوراتِ النِّظام، ونُمرِّرَ القوانينَ والأحكام، ويستبدَّ حُكْمُنا ويسودَ فنسودَ معه.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

لا بُدَّ أن أستشيرَ «جريهما» في هذا الصّدد، لنضعَ من الخطط ما يقطعُ الطّريقَ أمام هذا الشّابِّ قبل أن يصلَ إلى قلوبِ النّاسِ وعقولِهم. لأنّهُ إن وصلَ، ستتحرَّكُ عقولُ النّاس وقلوبُهم وألسنتُهم نحونا كالطّوفان الذي لن يهدأَ قبلَ أن يُهلكَنا جميعًا.

«بنفدا»: أخي «جريهما» هل أتاكَ نبأُ عودةِ ذلك الطّبيب الشّابّ «زرادوستار» بعدَ اختفاءٍ استطالَ حتّى انقطعَ الأملُ في عودتِه، ونسيَهُ النّاسُ في ما ينسون؟ وهل علمتَ بخبرِ إقامتِهِ في بيت «ميتيوماه» الذي يَكفلُهُ ويتولّى حمايتَه؟ وهل وصلكَ أيضًا حديثُ دعوتِهِ تلك التي يَسري بها بينَ النّاسِ في الأسواقِ والشّوارع؟

«جريهما»: نعم يا أخي، وأدركْتُ ما تُدركُهُ من خطرٍ تَنطوي عليه تلك الدَّعوةُ وهذا الحَراك. وأرى أنَّ ألسنةً لا بُدَّ أن تُقطعَ، ورؤوسًا لا بُدَّ أن تُقصفَ، حتّى يعودَ الهدوءُ، وتُجهضَ تلكَ الفتنَةُ قبلَ أن تولد.

«بنفدا»: رِفقًا أخي «جريهما»، رِفقًا. فقتلُهُ سيصنَعُ منهُ بطلًا، ويَعْضُدُ دعوتَهَ ويدعمُها، ويؤجِّجُ نارَ الفتنةِ من حيثُ لا ندري. أَضِفْ إلى هذا، قريبَه ذاك الذي يَأويه، وما له من نفوذٍ في قصرِ الحاكم، يُمكِّنُه من أن يحولَ دون وصولِنا إلى رأسه؛ وإن وصلْنا سيَهتِكُ علاقتَنا بالقصر إذا ما اكتشفَ أنّنا مَن حرَّضَ وسعى لقتلِه.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

«جريهما»: أصبْتَ يا «بنفدا»! ولكن، ما العمل؟! أنتركُهُ يَسُبُّ آلهتَنا، ويُؤَلِّبُ علينا العامّةَ، ويقطَعُ أرزاقَنا، ويُدَمِّرُ ما وَرِثناهُ وحفِظْناهُ عبرَ السنين؟!

«بنفدا»: لا يا أخي، سنَسْتَميلُهُ إلينا لِيصبحَ واحدًا منّا. وبالطَّبعِ سيستجيبُ إذا ما كان طالبَ سلطةٍ أو مالٍ؛ وإن لم يستجبْ سنقتلُهُ، ولكن ليسَ القتلَ المعهود؛ سنقتلُ فكرتَهُ، ونحيلُ أحلامَهُ إلى كوابيس؛ سنُؤَلِّبُ عليه النّاس. هذا هو السّبيل الذي أراه الأنجعَ لوأدِ تلك الفتنة. لذلك أُريدُكَ أن تُطْلِقَ البصّاصينَ ليجمَعوا ما استطاعوا من معلوماتٍ عنه وعن عائلتِه وأهلِه، وما يدورُ به بين النّاس، لنرى أيّ مسلكٍ نَسْلُكُ معه.

ولّى «جريهما» وغاب، ثمَّ عادَ بعد وقتٍ ليس بالقصير. ولكنَّهُ عادَ بملامحَ تُغايرُ تلك التي ذهبَ بها! عادَ بوجهٍ ممتقِعٍ تتأرجحُ ملامحُهُ ما بين الخوفِ والغضب، مفصحةً عمّا يدورُ في عقله، من دون أن يَحكي ما بداخلِه. وصدَقَتْ توقُّعاتي حين بدأ يتحدَّث، قال:

«جريهما»: سُدًى راحَتْ كلُّ محاولاتِنا مع ذاك العنيد! أرسلْتُ له عددًا من الرُّسل، الذين فاوَضوه وعرَضوا عليه كلَّ غالٍ ونفيس. فما كان منه إلّا الإصرارُ على سلوك الطّريق ذاتِها دون أن يحيد... إلى أن زُرْتُه بنفسي، فلم يقابِلْني إلّا بالعَنَدِ والإباء. هو مؤمنٌ حقًّا برسالتِهِ

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

وقضيَّتِهِ وأفكارِه، وهذا أكثرُ ما يخيفُني ويُقلقُني. فهو مُصِرٌّ على متابعةِ دربِه، وإبلاغِ رسالتِه التي يَزعمُ أنّهُ يحملُها عن «أهورا مازدا» بذاته! أخشى حقًّا من إيمانِهِ، ويقينِهِ، وحُسْنِ بيانه، وطلاقة لسانه. فهو خَطَرٌ داهمٌ يكادُ يَبْطُشُ بنا، وبعرشٍ حَرَسناهُ وحَفِظْناهُ لسنين.

فسألتُهُ عمّا جمعَ من معلوماتٍ حولَ حياتِهِ وأُسْرَتِهِ، وغيابِهِ المفاجئ، وظهورِهِ الغريب، وما يتحدَّثُ به للعامّة. فقدَّمَ بين يديَّ -بالتّفاصيل- ما جمعَهُ البصّاصون، وما عرفَهُ شخصيًّا حولَ حياتِهِ وشخصيَّتِه. يا لها من حياةٍ ثريَّة! لا أُخفي مدى إعجابي بعِنادِهِ وإيمانِه، وحتّى برسالتِهِ ومَنْطِقِه! وهذا ما دعاني للإمعانِ والتّفكير في ما يتوجَّبُ علينا فِعلُه لمحاربةِ ذلك الفتى وكَسْرِ شوكتِه. وكان «جريهما» يُشاركُني الأفكارَ والخواطرَ ذاتَها. فتعالى صوتُ العقل، ورحنا نتدبَّرُ ونخطِّطُ ونستعدُّ للمعركة، مجاهدَيْن أن تخلوَ من الدَّم، مُدركَيْن أنّها لن تخلوَ بالتّأكيد من نصرِ طرفٍ وخِذلانِ آخر؛ وحتمًا سنكونُ الطَّرفَ المنتصرَ، أيًّا كانتِ السبلُ أو الأسلحةُ أو الأساليب. وإن كانَ الدّمُ هو السَّبيلُ الوحيدُ لهذا النَّصر، فبالتّأكيدِ لن أمانعَ من إراقتِهِ في الزّمان والمكان، وبالقدرِ المُناسب.

نَشَرْنا رجالَنا في كلِّ مجلسٍ وشارعٍ وساحةٍ، يطوفون كالبعوضِ في ليالي الصَّيف حولَ تلك المجالس، يلدغون ما استطاعوا من النّاس، ساحبين من

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

المعلوماتِ ما ينفعُنا، غارزين من السَّمِّ ما يُفسدُ منطقَ «زرادوستار» ويُزعزعُه، زارعين الشَّكَّ في قلوبِ النّاسِ وعقولِهم، تجاهَ نواياه، بعدما صبغوها وأعطوها طابعَ الطّمَعِ والخِسَّةِ وحُبِّ السُّلطة.

كانت تلك أولى خطواتِنا في الحرب ضدَّه، أن نبارزَه بسلاحِه، الحُجَّةُ بنقيضها. كان يلعبُ على وترِ الفِطْرَةِ والإيمانِ والأخلاق، فأشعلْنا وترَ الموروثاتِ والمسلَّماتِ والسَّلَفِ والمقدَّساتِ والعاداتِ والتقاليد؛ نادى بالإلهِ الواحد، فهدَّدْنا بأعلى صوتٍ بسُخْطِ باقي الآلهة. وهكذا تعالى ضجيجُ الخلافِ والاختلافِ ما بين مَنْطقِهِ والمَنطقِ المُضادِّ الذي نسُوقُهُ بين النّاس، حتّى استحالَ على أيٍّ من المنطقَيْن النَّفاذُ إلى آذانِ العامّةِ من شدّةِ الضّجيج.

لم أتوانَ و«جريهما» عن مساندةِ رجالِنا دعمًا وعملًا وقوْلًا وحضورًا. فكثيرًا ما اضطُرِرْنا لمناظرةِ ذلك الشّابِّ على الملأ، محاولين تكذيبَه. واستخدَمْنا في ذلكَ ألْيَنَ الأساليبِ وأرقَّها. وكُلَّما كَثُرَتِ المُناقشات، واحتدمَ الجِدال، أَلقَيْنا في طريقِهِ العراقيل.

فمِن رجالِنا من وصَمَهُ بالجنون، وصارَ يطاردُهُ ويُزعِجُهُ في كلِّ مكان؛ ومنهم مَن ادّعى إصابتَهُ بمرضٍ خطيرٍ يؤثِّرُ على سلوكِه، وراحَ يحذِّرُ النّاسَ

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

منَ الاقترابِ منه؛ ومنهم كثيرون كانوا يقصفونَهُ بالحِقْدِ على الآلهة، والطمعِ في المالِ والسُّلطةِ والنفوذ.

استمرَّتْ حربُنا معه على النَّسَقِ ذاته. ومع صباحِ كلِّ يومٍ جديد، كان يحاولُ، وكُنّا له بالمرصاد. حتّى استطالَتْ تلك الحربُ الباردة، واستمرَّتْ لسنين عديدة، من دون أن يحقِّقَ نصرًا يُذكرُ على الأرض. حاولَ أن يستغلَّ براعتَهُ في الطِّبِّ ليستميلَ قلوبَ المرضى والضُّعفاء، فألَّبْنا عليه قلوبَهم بالمالِ والعطايا.

استُنهكنا، واستمرَّ على عِنادِه ولم ييأسْ. وعند هذا الحدّ، كانَ على تلك الحربِ أن تأخذَ منحًى جديدًا حاسمًا. فجلسْتُ مع رفيقي «جريهما» نتحدَّث. ووجدتُهُ يقولُ لي:

«جريهما»: يا أخي «بنفدا»، أما لتلكَ الحربِ من نهاية؟! لقد سئمْتُ دعوتَهُ تلك، وعِنادَهُ وإلحاحَهُ، وإصرارَه. هذا الفتى لا ييأسُ، وأخشى أن يستميلَ ولو فردًا واحدًا منَ النّاس، من وراءِ ظهورِ رجالنا، فينفرطَ عِقْدُ العامَّةِ جميعًا. لا بُدَّ لتلك الحربِ من نهاية، لا بُدَّ أن تضعَ أوزارَها. سئمْتُ مقاومتَهُ، ومعارِكَ المَنْطقِ تلكَ التي نخوضُها ضدَّه. فهل لنا الآنَ أن نقتلَهُ، أو ننفيَهُ، لنستريحَ من همِّهِ وإزعاجِه؟

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

«بنفدا»: نِعْمَ الرّأي أخي جريهما! نِعْمَ الرّأي! النَّفيُ هو الحَلّ! بلِ الطَّرد. ولكن، لسنا مَن ينبغي أن يفعلَ ذلك. دعني أُنفِّذُ ذلكَ على طريقتي، ولك أن تستمتعَ بمشاهدةِ ما ستؤولُ إليه الأمور.

وفي الأيّامِ التالية، اِستحضرَ النّاسُ من جديد قصَّةَ هروبِهِ منَ القرية، ثمَ وفاةَ عائلتِهِ فردًا تلوَ الآخر، وكيف تركَهُم لمصيرِهم المحتوم، من دون أن يُحرِّكَ ساكنًا! فأينَ إلهَهُ من هذا الابتلاء إن كان صادقًا؟ فإن كان حقًّا رسولًا، فحريٌّ بإلهه أن يحفظَ عليه عائلتَهُ وأحبابَهُ، لا أن يُهلكَهُم في غيابِه.

تناقلَ النّاسُ القصَّةَ بسرعةٍ بالغةٍ، فانتشرَتْ انتشارَ النّارِ في الهشيم. وروَّجَ رجالُنا أنَّ «زرادوستار» ملعونٌ، وأنَّ اللَّعنةَ قد أصابَتْ أهلَهُ حينما تطاولَ على الآلهة، فأهلكَتْهُم ليعتبرَ، ولكنّه ما اعتبرَ ولا استكان. وأنَّ تلك اللَّعنةَ ستَحِلُّ على مَن تَبِعَهُ، بل من يحميه، بل من يجاورُه، بل على القريةِ كلِّها التي تأويه.

ثمّ رُحنا ندبِّرُ من المكائدِ والحوادثِ ما يُرَسِّخُ في أذهانِ النّاس تلك اللعنة. فاستغلَّ رجالي ذاتَ يومٍ كلامَهُ على النَّارِ المقدَّسة، وأنَّها إحدى مخلوقات «أهورا مازدا» -ليس أكثر- وأنّها لا تنفعُ ولا تُضِرُّ إلّا بإرادته. في ذلك اليوم نفسه، عندما عمَّ الظَّلامُ والسُّكونُ أرجاءَ البلدة، أشعلَ أحدُ

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

رجالي النّارَ في دارِ والديه المهجورة، إذ لم نستطعِ الاقترابَ من دارِ قريبِهِ «ميتيوماه»، لتجنُّبِ الصِّدامِ مع الحُكّامِ في القصر. ولكنَّ اشتعالَ النّارِ في أطلالِ أبويه، وتحويلَها إلى رماد عشيَّةَ كلامِهِ عنِ النّار، كانَ دليلًا دامغًا أمامَ النّاس على لعنتِهِ وتطاوُلِهِ على الآلهة.

وقبلَ ذلك بشهور، كان النَّاسُ كافّةً قد اعتزلوهُ كطبيب؛ وكان السَّبَبُ في ذلك أنَّ رجالي قد علِموا أنَّهُ يتردَّدُ على بيتِ رجلٍ فقيرٍ، يعيشُ وحيدًا في أطرافِ المدينة، لمعالجتِهِ من مرضٍ ألمَّ به. وحاولَ «زرادوستار» خلال لقاءاته به، استمالَتَهُ لدعوتِهِ، فاستجابَ له الرَّجُلُ بالفعل، لِما لاقاهُ منه من اهتمام وتوسّمه فيه من خير، وحُسْنِ معاملة، وخُلُقٍ، واستقامة منطق. لكن، في أحد الأيّام، استغلَّ أحدُ رجالي انشغالَ «زرادوستار» بأحوالِهِ، فقامَ بإهداءِ هذا المريضِ وجبةَ طعامٍ كان الرَّجلُ في أمَسِّ الحاجةِ إليها، ودسَسْنا له فيها السَّمَّ. فمات من ليلته.

وما إن أُعلِنَ خبرُ وفاتِه، حتّى أشاعَ رجالُنا بين النّاسِ أنَّ اللَّعنَةَ قد أصابَتْه لاستضافتِهِ «زرادوستار»، وتداويه بأدويتِه، وتعاطُفِه معه ضدَّ الآلهةِ والمقدَّسات. فانصرفَ عنهُ بعد ذلك عمومُ النّاسِ، وأصبحَ لا يمارسُ حتّى مهنةَ الطِّبِّ، ويتجنَّبُهُ النّاسُ قدْرَ ما استطاعوا.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

أوعزْنا، في الوقتِ نفسه، إلى التُّجَّارِ المُوالين للمعبدِ والقصرِ، أن يَحجُبوا بعضَ البضائعِ الهامَّةِ عن العامّة. فضاقَتْ على النَّاسِ عيشتُهم، وعزَّ معاشُهم. وأشاعَ رجالي بينَ النّاسِ أنَّ الخرابَ واللَّعنةَ قد أصابَا بلدتَنا بسببِ ذلك الملعون، وأنّنا لهالكون ما دامَ ذلك الشّابُّ يسعى في شوارعِ وساحاتِ بلدتِنا، مبشِّرًا بتعاليمَ مُعادِيَةٍ لآلهتِنا العظيمة. ما ولَّدَ في قلوبِ النّاسِ حيالَهُ الكثيرَ من الكُرْهِ والغضب، خوفًا على أرزاقِهم وحياتِهم. فكان كلُّ ذلك كفيلًا بنفيِهِ من البلدة، بل من الحياةِ كلِّها.

وكَبُرَ الغضبُ، وصارَ بركانًا يغلي بين عامّةِ النّاس، يؤجِّجُهُ رجالي، مطالبين بطردِهِ من البلدةِ قبلَ أن نهلَكَ جميعًا بلعنتِه. وأصبحَ البركانُ جاهزًا للانفجارِ في وجهِ «زرادوستار»، لاقتلاعه من البلدةِ بلا رجعة، وإحراقِ كلِّ أحلامِهِ وآمالِهِ، وحتى دعوتِه. فنفدَتْ كلُّ حِيَلِ قريبِهِ «ميتيوماه» لحمايتِهِ وإيوائِه، وصارَ نفيُهُ خارجَ البلدةِ مسألةَ وقت.

لم نكتفِ بما عاناهُ داخلَ القريةِ من صَدٍّ وطَرْد، بل راحَ رجالي على مَرِّ الأيّامِ بل السّنين، يتحدَّثون أمامَ التُّجَّارِ والزُّوَّارِ القادمين إلى بلدتنا، عن لعنتِه. وكانَ من يرتحلُ من رجالي خارجَ البلدةِ، لأيِّ غَرَض، يُشيعُ بين النّاسِ سيرةَ لعنتِه، وما يتهدَّدُ قريتَنا من خرابٍ بسببِ وجودِه. فانتقلَتْ

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

أخبارُهُ إلى القرى المجاورة، وانتشرَت سيرةُ لعنتِهِ في كلِّ أنحاءِ «إريانا فيجا». وهكذا قهرْناهُ وطردناهُ بعدما كسرْنا شوكتَه. وحَسَمْنا تلكَ الجولةَ لصالحِنا بالتأكيد.

قطعًا كانت حربًا غيرَ شريفة، انتصر فيها الأدهى والأمكر. وكان مكرُنا كفيلًا بأن يُزيحَ الجبالَ، وليس «زرادوستار» فقط.

انتصرْنا! وحتمًا سننتصرُ ما دامَتْ رحى حربِ الآلهة دائرة.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

(١٢) أهريمان

هاربُ الأمسِ الوليد، وطريدُ اليومَ الرّسول.

منتصرُ الأمسِ كسيرُ اليوم. لم تغادرْ حلقي مرارةُ انهزامي أمامَه في معركةِ الكهف، إلّا اليوم. اليومَ أرى اندحارَهُ أمامَ ما وَسْوَسْتُ من مكرٍ لعبادي المُخْلِصين: عبادِ المصلحةِ والمالِ والنُّفوذِ والسُّلطة، عبادِ الحقدِ والكرهِ والغِلِّ والمكر، عبادِ النّار، عبادِ «أهريمانَ» العظيم!

أستعيدُ اليومَ ذكرى انتصاري عليه، يومَ كان وليدًا يقصِدُهُ القاصي قبل الدّاني من النّاس، يطوفون ببيتِه طلبًا للبَرَكة، بحثًا عن مُعجزةٍ ونورٍ من السّماء. كان كيدي الأعلى يومَها أنَّ النّاس الذين كانوا يتبرَّكونُ به، ألقوه وأهله في حميمِ النّار. واليوم، بعدَ مرورِ ما يقرُبُ من أربعةِ عقود، يخرجُ طريدًا ذليلًا من القريةِ ذاتِها التي وُلدَ فيها، حيث النّاسُ الّذين لفظوه وأهلَهُ يومَها.

أغلبُ النَّاسِ -إلّا قليلٌ- يَنسى هويَّتَه، فطرتَه، دينَه، إيمانَه، آلهتَهُ، حتّى أهلَهُ إذا ما جاع. والجوعُ أنواع: جوعٌ للطّعام، جوعٌ للأمان، جوعٌ للمال،

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

جوعٌ للسُّلطة، جوعٌ للنُّفوذ، جوعٌ للجنس، جوعٌ للتّكاثر... وأعظمُ جوعٍ، وأشدُّ أنواعِهِ فتكًا، هو الجوع للحياة.

الجوعُ هو المدخلُ الخلفيُّ المعلَنُ الخَفِيُّ لِبَني الإنسان.

على مَرِّ العقودِ الأربعةِ المنقضية، جوَّعْتُ لكَ كتائبَ من الذِّئابِ والكلابِ المسعورة، نجحَتْ في أن تنهشَ لحمَكَ، ولكنَّها لم ولن تشبع! ستنقضُّ عليكَ من جديد، كلَّما أُتيحَتْ لها الفُرصة، حتّى تُردِيَ روحَكَ قتيلةً، وتترُكَ أفكارَكَ ودَعْوَتَكَ ورسالتَكَ مهملةً، مضَرَّجَةً بدمائِكَ على قارعةِ طريقِ النِّسيان!

ولتعلمْ يا صديقي، إنَّ الجوعَ يقتلُ الشَّفَقَة.

فكما رماكَ الجَوْعى في النّارِ حينَ كنتَ وليدًا، ولم تأخذْهم بكَ أو بأمِّكَ ذرَّةُ شفقةٍ، سيطردونَكَ اليومَ بعد أن داويْتَ أمراضَهُم، وضمَّدْتَ جراحَهُم، وخفَّفْتَ عنهم آلامَهم، وكنتَ مسعفَهم في الحرب، وسندَهُم في المجاعة. اليومَ يُنكرونَ عليك هذا كلَّه، ويطردونَكَ من بلدِكَ بلا شفقةٍ ولا عطف.

ألم أخبرْكَ من قَبْل يا صديقي، أنَّ الجوعَ يؤثِّرُ أيضًا على الذّاكرة؟ فكيف يتذكَّرُ الجَوْعانُ أنّه أكلَ بالأمس أشهى أنواعِ الفاكهةِ والطعام؟

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

مِن رَحِمِ الجوعِ وُلدَتِ الشَّهوةُ، ووُلِدَ الجشعُ والطّمعُ والحقدُ والحسدُ والظُّلْمُ، ثمَّ وُلدَ الخوفُ الذي صارَ حليفَ الجوعِ وأنيسه؛ فما اتّحدا على روحِ إنسانٍ إلّا وشرَّعَتْ تلك الرُّوحُ لجنودي أبوابَها، وتخلَّتْ عن كلِّ دِفاعاتِها الحصينةِ، من فِطرةٍ وعقلٍ وعِفَّةٍ، وصارَتْ تلك الرُّوحُ عرْضًا مستباحًا لجنودي، لا يتركوها إلّا حُطامًا.

هكذا يا صديقي، أحْتَنِكُ بني البشر؛ هكذا يُزيِّنُ لهم الخوفُ والجوعُ عبادتي، من دون الخالق، واجبَة؛ هكذا أستميلُهم، أوسوسُ لهم، فيكونوا خاضعين طائعين تحت سَطوتي وإمرتي؛ أحاربُ بهم أمثالَكَ لكي أحافظَ على عرشي ومُلْكي. هكذا أَلْقَوا بكَ في النّار منذ أربعة عقود، وهكذا طردوكَ اليومَ مِن مسقِطِ رأسِكَ ثانية، وهكذا ستظلُّ طريدًا ما حَييت. هكذا تستمرُّ الحروبُ ويطغى الظُّلم، ويَحكُمُ الطّاغوت، وتشتعلُ الحروبُ وتستعرُ المجاعاتُ، ويُصيبُ الإنسانَ أعظمُ الخطوب، هذا سرُّ ديمومتي وعظمَتي يا ابنَ الطّين.

أيّها الإنسانُ الضَّعيف، يا ابنَ الطِّين، كيفَ ستقفُ الآنَ أمامَ سُلطتي المُطلقَة، بعد أن سقطْتَ في بئر الخسارةِ السّحيق؟ ها هو ابنُ عمِّكَ، سندُكَ ونصيرُكَ الوحيد، يقفُ مكتوفَ اليدين. انقطعَ منهُ الرَّجاءُ في نُصرتِكَ ودعمِكَ، والحفاظِ حتّى على إبقائِكَ داخلَ جدرانِ بيته؛ أوصدَ

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

بابَهُ في وجهِكَ، بعدما أُغْلقَتْ في وجهِكَ أبوابُ وعقولُ أهلِ قريتِكَ، فلم تبقَ منهم أُذُنٌ تسمعُ لك، ولا عينٌ تُطيقُ رؤيتَكَ؛ ولم يعدْ من مكانٍ لك في قلوبِهم أو عقولِهم، أو حتّى على الأرضِ التي تحملُهم.

أراكَ تخرجُ من قريتِكَ هاربًا تَجُرُّ ذيولَ الخيبةِ، من دون مؤمنٍ واحدٍ بك، أو حتّى متعاطفٍ معك من أهلِكَ وخاصَّتِكَ. أكادُ أرى سكاكينَ الحزنِ تجتاحُ عروقَكَ وتجري بها كما الدّماء، وكلّما وصلَتْ إلى قلبِكَ أبرحَتْهُ جَرْحًا وطعنًا. فَلْتَنْعَمْ بهذا الآن، ولْتَعْلَمْ يا صديقي اللّدود، أنّها مجرّدُ بداية. فقد غرسَ لكَ رجالي جميعَ دروبِكَ ببذورِ أشجارِ الشَّوْك؛ فلن تلقى أينما ارتحلْتَ سوى الأبوابِ المغلقة. وأينما حللْتَ ستكونُ حدّةُ شوكِ الأرضِ أوَّلَ ما يُلامسُ قدميْك؛ ولن يَنالَكَ من النّاسِ إلا القَسوةُ والنفور، ليزدادَ حزنُكَ حزنًا، ويجتاحُكَ الهَمُّ والغَمُّ والفشلُ أينما حلَلْت، وتظلَّ جروحُ قلبِكَ داميةً إلى أن تُستَنزف. ليس هذا فحسب، بل لِتزدادَ جروحًا فوقَ الجروح.

عِبادي البارعون استقبلوكَ كأحسنِ ما يكون. ها أنا أراكَ تعبرُ قريةً تلوَ قرية، ومدينةً تعقُبُها مدينة، كالطَّريدِ المجذومِ المنبوذ. فقد وَصَلَتْهُم سيرتُكَ قبلَ أن تصلَ بجسدِكَ، ويا لها من سيرة، لو تعلم! سيرةٌ جعلَتْهم يمنعون عنك المأوى والملجأ، ويحبِسون المأكلَ والمشرب. حتّى طالَكَ ما

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

كنتَ تُعالجُهم منه زمنَ المجاعة، ولكنَّكَ تُعاني أعراضَها الآن من دون وجودِ مجاعة!

ها قد مرَّتْ سنةٌ، منذ خرجْتَ من قريتِكَ. ما لكَ لا تيأسُ أيُّها الفتى؟! ما لكَ تستمرُّ على العِناد ذاته؟! ألم تتعبْ ناقتُكَ حدَّ الموتِ منَ الطَّوافِ على قُرى ومُدُنِ «إريانا فيجا»، مِن دون أن تجدَ عقلًا مُنْصتًا أو قلبًا لَيِّنًا؟!

متى ترفعُ الرّايةَ البيضاء؟! فقد انقطعَ عنكَ المَدَدُ لعَقْدٍ منَ الزّمانِ، ويزيدُ بسنة الآن.

لن يُنَجِّيكَ عنادُكَ هذه المَرَّة، ولن يسمحَ لكَ جنودي، مهما استماتَت محاولاتك، أن ترتقيَ تلك المحاولاتُ إلى حافَّةِ النّجاح.

لقد صرْتَ وحيدًا يا فتى، من دونِ شريكٍ أو أنيس، وما أقسى الوحدة! ذهبَ عنكَ أبواك وزوجتُكَ ومعلِّموكَ وأحبّاؤكَ. حتّى ابنُ عمِّكَ الذي كانَ يساعدُك، انقطعَ عنه سبيلُكَ، ومهما طالَ بحثُكَ، واستغرقْتَ في دعوتِكَ، فلن تجدَ لك مجيبًا.

أين ربُّكَ الآن؟

أين مُخَلِّصُكَ يا ابن الطّين؟ ألا تكفُّ عن مناجاتِه؟ دعْني أسمَع بما تدعوه الآن:

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

«زرادوستار»: يا إلهي، إلى من أهرُب؟ وإلى أيِّ بلادٍ أذهب؟ إنَّ النُّبَلاءَ والعُظماءَ قد انصرفوا عنّي؛ ولم يستمعْ أحدٌ من عامّةِ الشَّعبِ إلى قولي؛ ولا حتّى هؤلاء الأفّاكون، حُكّامُ البلادِ الدجّالون. أرشِدْني كيف أحظى برضاك وأظفرُ بهُداك؟ إني أُدركُ السِّرَّ في خيبةِ آمالي، وأعرفُ سببَ فشلِ مسعاي. إنّي رجلٌ فقير، فلم يستمعْ إليَّ إلّا القليل. إيّاكَ أدعو يا إلهَ الخير، وإيّاك أستصرخُ يا مبعثَ النّور. فامنحني العونَ والتَّوفيق، وأعنّي كما يُعينُ الصَّديقُ صديقَه. أرشدْني إلى الطَّريقِ المستقيمِ المُفْضي إلى اكتسابِ التَّفكيرِ السليم.

ربّي، متى ينبثقُ فجرُ الهدايةِ والنّورِ لهذا العالمِ من خلالِ تعاليمِكَ المُفضيةِ إلى النَّجاة؟ أينَ هؤلاء الذين يُمكنُ أن تُمدَّهُم هذه التّعاليمُ بالسَّعادة؟ يا إلهي، إنّي أضعُ فيكَ كلَّ ثقتي، فكُنْ أنتَ نفسُكَ عونًا لي على النَّجاحِ في رسالتي، وتنفيذِ ما بهِ أمرتني.

يجدرُ بكَ حقًّا أن تدعوَ وتتوسَّل، فما لك من سبيلٍ الآن، ولا ملجأً، أيُّها الضَّعيفُ الوحيد. ألا يكفيكَ يا فتى أنَّ ابنَ عمِّكَ هذا، بعد أن رافقَكَ ودعمَكَ وساندَكَ لسنين تصلُ إلى العشرة، لم يدخلِ الإيمانُ بدعوتِكَ إلى قلبه، وظلَّ على دينِ المعبَدِ ودينِ آبائِه؟ متى ستُدرِكُ الدَّرْسّ يا فتى؟

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

ابن عمك «ميتيوماه»، سندُكَ المزعوم، ورَحِمُكَ المقطوع، أين هو الآن؟ يا حسرتي! لماذا تأتي الإجاباتُ على أسئلتي سريعًا؟! كيف عادَ إليكَ بعدَ سنةٍ من التّيه، كنتَ خلالَها تدورُ وتطوفُ في البلادِ، والجبالِ، والسّهول؟ كيف تتبَّعَكَ لِيَجِدَكَ، وتلتقيا في النهاية؟! يا له من لقاء! يا له من عناق! يا لها من أخبارٍ وأحاديثَ حميمةٍ انقطعَتْ عنكَ منذ سنين! كان يشغَلُني السُّؤالُ أن: كيفَ وجدَكَ؟ إلى أن سطعَ نورُ سؤالٍ آخرَ أمامي، ليحرقَ عينيَّ وقلبي وعقلي، هو: لماذا وجدك؟!

لم يُمهلْني القدرُ، قبلَ أن أجدَ قلبي في مرمى إجابته، فأَصرَّ أن يكيلَ لي تلك الضَّربة في الوقت نفسه الذي كنت أنتشي فيه بنصري. فحين كنتُ أتابعُ ذلك اللِّقاء الحميم بين «زرادوستار» وابن عمِّه بعد انقطاع سنين، سمعْتُ «ميتيوماه» يقول:

«ميتيوماه»: «زرادوستار»، ابنَ عمي وأخي ومعلّمي وصديقي، يا رسولَ «أهورا مازدا» الخالِق العظيم، أَمْثُلُ بين يديكَ اليومَ وقد تركْتُ بيتي وبلدتي وعملي وحياتي بحثًا عنكَ طيلةَ السَّنَةِ الماضية. رحْتُ أَقْتَصُّ أثرَك، وأسألُ عنك في كلِّ قرى ومدنِ «إريانا فيجا»، إلى أن هداني القدرُ إلى مكانِكَ هذا منذ يومَيْن، فشدَدْتُ الرِّحالَ إلى هنا مشيًا، من دونِ راحةٍ أو نوم.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

فلا راحةَ ولا فرحَ ولا نجاحَ في ضلال. أتيْتُ إليكَ الآن بعدما سئمْتُ زيفَ الباطلِ وقهْرَه، وإن كان فيه السُّلطةُ والمال. أتيتُكَ لتأخذَ بيدي من أعماق بئرِ الشَّرَكِ والكُفْرِ إلى واحةِ الإيمان. بعدما تركْتُكَ، تفكَّرْتُ وتدبَّرْت، وإلى طريقِ الحقِّ اهتديْت. وما أرى حقًّا إلا في اتِّباعكَ ورفقتِكَ، وحَمْلِ لواءِ الحقِّ معَكَ وإلى جوارك، حتى يظهرَ على ما علا وارتفعَ من راياتِ الباطل.

فإنّي أَشهدُ الآن، وأُعلِنُ أنّكَ رسولُ الحقِّ ونبيُّه وحاملُ رسالتِه؛ وأنَّ الخالقَ الحقَّ هو الإله الواحد العظيم القدير لا إله غيرَه، فعسى أن تقبلَني، وأن تَغفرَ لي تأخُّري في هذا، لما كان يعتري بصري من غشاوةِ الباطل.

من جديد يتبادلان العناق! يا للبشر، ومبالغاتِهم الفارغة! يحتفلان كأنّما انتصرا في حرب ضروس استمرَّت مئات السّنين. حقًّا تابعٌ مؤمن؟ أهو حقًّا مؤمن؟ سنرى وسترى يا «زرادوستار» العنيد؛ لتفرحْ وتحتفلْ بنصرك هذا التّافه الزائف، ولترَ ما أعددْتُ لك ولأتباعي الحقيقيّين من مكر، يُمَيِّزُ المؤمنَ من الموهوم، مَكْرٌ لن ينتهي قبل أن يُنهي دعوتَك وحياتَك!

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

(١٣) هيستاسب

الآن فقط أشعرُ بالحياة

فوقَ صهوةِ جوادي، عندما يركضُ بي في وديانِ ومروجِ «باختيريا»عاصمةِ «إريانا فيجا»، يستمدُّ قلبي النبضَ من قلبِهِ حينما تُلامسُ قدمايَ ظهرَه. هذا الجوادُ هو الوحيد في هذا الكونِ القادرُ أن يدركَ مشاعري، بل هو مَن يجعلُني أشعرُ بالحياة، ليس فقط عندما يعدو بي متباهيًا بسرعتِه وقوَّتِه وجمالِه، فتخترقُ ذرّاتُ الهواءِ والماءِ مسامَّ جلدي، ولكن حتّى وهو واقفٌ بين باقي الخيول؛ فهو حين يراني مُقبلًا، يتقدّمُ نحوي فرِحًا مُرحِّبًا بحُبٍّ، وكأنّهُ من دمي!

وُلِدَ هذا الرّابِطُ العجيبُ بيني وبينه منذ ولادتِهِ، حين أهداني إيّاه أبي. منذ ذلك الحين تكفَّلْتُ به، فلا أكادُ أُفوِّتُ يومًا من دون رؤيته، حتى وإن استحوذَتْ عليَّ مسؤوليّاتُ الحُكْمِ، ومنعَتْني من رعايتِهِ وامتطائِهِ والرَّكضِ سويًّا كما يحلو لنا دومًا. كان فرسًا فريدًا منذ مولدِه، بسوادِ لونِهِ الذي

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

يفوقُ سوادَ اللّيالي المُعتِمة غموضًا، ولمعان شعره الطويل الذي يضاهي لمعان العقيق الأسود، وعينيه الواسعتين وما تحملانه من حزن وشجن. حُبُّهُ الشّديد في أن يأكلَ من يدي هو غرامي، لا سيّما حين يُدَغْدِغُني بجَحْفَلَتَيْه. عندما صار جوادًا وقويَتْ عضلاتُه، أسرَني جمالُه الفتّان المتجلّي في غُرَّتِه وغروره، وسحرني بحركاته وسكناته، فباتَ جوادي المُفَضَّل.

فوقَ صهوتِهِ نتوحَّدُ ونتحرَّر، نفرَحُ ونبتهج، نهربُ من عالمِ البشر؛ نفرُّ من الألمِ والإحباطِ والفشلِ والمسؤوليَّةِ والنِّفاقِ والرِّياءِ والكَذِبِ والخِداع؛ نعدو فوقَ مستنقعِ الحياة، بل نُحلِّق! نُحلِّقُ في سمائِنا الخاصّة وعالمِنا الفريد، أنا وحصاني فقط! لكم تمنَّيْتُ أن أَقضيَ حياتي كاملةً فوقَ ذاك السَّرْجِ، نعدو بلا نهاية. ولكن، في هذه الحياة، تنقضي ساعاتُ الفرحِ -وإن طالَتْ- سريعًا كاللّحظات، وتستطيلُ لحظاتُ الكَمَدِ -وإن قصُرَت-لدهورٍ. حانَ وقتُ راحتِكَ أيُّها الجوادُ الفَتِيّ، وحانَ وقتُ كدّي وتعبي أنا الشقيّ. ولكن، يبقى فجرُ الغدِ الموعدُ المتجدِّدُ كي أصدحَ في آذان الفرحِ من فوق مِنْبَرِ سَرْجِكَ الجميل، وأقيمَ الصّلواتِ المقدَّسةِ في محرابِ الحُرِّيّة! إلى الغد يا صديقي.

ترجَّلْتُ عن سَرْجِ مُهري الذي على صِغَرِه يَسَعُ الحياةَ كلَّها، باتِّجاهِ قَصْري الذي على اتِّساعِهِ يضيقُ، حتّى أنّه لا يسعُ قلبي! كم هي مرهقةٌ

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

ولايةُ البلادِ وسياسةُ العِباد! أعودُ إلى ذلك القصرِ الذي كثُرَتْ من حوله الحصون والمتاريس، وانتشرَتْ؛ وكلّما كثُرَتْ ازدادَ ضَعْفًا، وخَفُتَ الإحساسُ بالأمان، وتعاظمَ الخوف.

قَصْري يقعُ وسطَ مدينة «باختيريا» الجميلة التي كلّما تزيَّنَت اِزّيَّنَتْ في أعين الغُزاة والغاصبين؛ فكم من مرَّةٍ انتُهِكَتْ واغتُصِبَتْ تلك الجميلةُ جورًا وعدوانًا، بدون وجهِ حقّ. تلك المدينةُ التي تُعَدُّ واسطةَ العِقْد وجوهرةَ تاجِ سلطنةِ «إريانا فيجا» الكبرى؛ ويا لها من كبرى! تتَّسِعُ رُقعتُها فيَضيقُ عليَّ قلبي وقصري، ويتضاعفُ حِمْلي، وتثقلُ مسؤولياتي؛ تتَّسعُ رقعتها وتكبُر، فتُعجِزُ أعداءَها وتَعْجَز في الآنِ عينه، ثمَّ تترهَّلُ وتنهار. يا لخوفي من هذا اليوم، رغمَ يقيني أنّهُ آتٍ لا محالة! فكلّما تعالى البُنيان كان أقربَ إلى السّقوط؛ كذلك الممالكُ كلَما تسارعَ نموُّها تسارعَ اضمحلالُها.

كم من الصعب قيادةُ بشرٍ، برغم كلِّ أوجهِ التّشابه في ما بينهم، مختلفون؛ يتشرذمون كأنّهُم جزُرٌ مُنْعزلة، بل يحترفون التّشرذمَ على مختلفِ الصُّعُد، سواءَ كان جغرافيًّا، أم تاريخيًّا، أم عائليًّا، أم طائفيًّا، أم دينيًّا، أم مذهبيًّا، أم عقائديًّا، أم ثقافيًّا، أم علميًّا، أم اجتماعيًّا، أم عِرقيًّا، أم ماليًّا... أيًّا كان السبب، وحتّى لو كان خُرافيًّا أو أُسطوريًّا. المهمّ أنّهم يتشرذمون، ويتناحرون، ثمّ يقتتلون. تلك سُنَّة البشر!

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

وكلَّما زادَتْ رُقْعةُ مملكةٍ ما، زاد التّشرذمُ والتنوُّع ما بين رعاياها، وكثُرَتِ الفِتَن، وأصبحَتِ العمليَّةُ السياسيَّةُ أصعبَ وأكثرَ تعقيدًا، وأصبحَ الحاكمُ حبيسًا بين فكَّي الاستبدادِ المطلَقِ: الحديدُ والنارُ الذي يقودُ حتمًا إلى الانفجار، من جهة، والمُواءَمات والمُداهنات التي قد تقودُ إلى التَّفريط والانفراط من جهة أخرى.

لم أكنْ أَميلُ نحو أيٍّ من الفكَّيْن، بل كنتُ أوازنُ بين الكفَّتَيْن؛ أكونُ المستبدَّ حين تتنازعُ الآراءُ وتتشتَّتُ ولا تلتقي، والهيِّنَ اللَّيِّنَ حين أرى الوفاقَ والاتّفاق؛ وهذا ضمَنَ لي الاستمراريّةَ في حُكْمِ المملكة، وبشكلٍ فعّال. ولكن حوى بَلاطُ القصرِ ضمن بِطانتِه الكثيرَ من الأشكالِ والألوان: صاحبَ المالِ، والتّاجر، والعالِم، ورجلَ الدّين، وأصحابَ المنفعة، حتّى المنافقين والمرائين... وكان هذا الاختلافُ في الحاشيةِ بمثابةِ المفتاح في التعامل مع كافَّةِ الفئات، والتأليفِ بينهم، من دون إفراطٍ في الاتِّباع، ولا تفريطٍ في السُّلطة. ولم تكن تلك الحاشيةُ -على اختلافها- مرآةً تعكِسُ لي صورةَ العامَّةِ والرعيَّةِ بشكلٍ كامل؛ ولم أكنْ أسمحُ لها -برغم محاولاتِها- أن تمنعَ صورةَ وصوتَ العامَّةِ الحقيقيّ من أن يصلَ إليّ.

فكنتُ شديدَ الحرصِ على أن أفتحَ أبوابَ قَصري مرَّةً كلَّ أسبوع، ليدخلَ بعضٌ من الرَّعيَّةِ البَلاط، بهدفِ تقديمِ المظالم، وطلبِ الهِباتِ والمِنَح. ولم

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

أكنْ لأردَّ المحتاجَ أو صاحبَ الحقِّ أو المظلوم منهم، خائبًا. ولم أكنْ أرحمُ أيَّ كاذبٍ ظالمٍ منتفعٍ يأتي ليأكلَ حقَّ غيرِه من العامّة بالزُّورِ والبُهتان.

كان هذا اليومُ هو اليومَ الموعودَ من الأسبوع؛ وحين دَلفْتُ إلى ساحةِ القصر وجدْتُ الأبوابَ مُشرَّعةً، والناسَ في الخارج ينتظرون في صفوفٍ طويلةٍ يُنظِّمُها الحرّاس، سامحين لهم بالدخول، الواحد تلوَ الآخر. وقد استمرَّ تتابعُهم حتّى سقوطِ الشّمس في مغربها؛ وكانوا قد اجتمعوا، عندما انتصف النهار، حول موائدَ أعدّها لهم طُهاةُ القصر وخدَمُه، ليأكلوا من جنى أيديهم، على مائدة مليكهم.

مرّ اليوم مع مرور مئات الحالاتِ المعهودة، من دون حالةٍ ترتقي إلى أن تتدبَّرَها أو تتذكَّرَها؛ إلى أن أوشكَ اليومُ على الانتهاء، فإذا برَجُلٍ يدخلُ علينا -عرفْتُ لاحقًا أنّه في الثانية والأربعين من عمره- يتبعُه رجلٌ آخر، ويحملان بين أيديهما عدّة مخطوطات، وضعاها على الطّاولة بين يديّ، ثمّ بدأ كبيرهما بالكلام:

«زرادوستار»: أيُّها المِلكُ الحكيم «هيستاسب»، لقد مَنَّ الإلهُ عليك إذ اصطفاكَ ومنحكَ المُلْك، ثمَّ أيَّدَكَ بنَصرِه على عدوان الطّورانيّين، والعبورِ بالأمة إلى برِّ الأمانِ والرّخاءِ بعدَ سنينَ من الجفاف. ولم

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

يكنْ اصطفاؤه لك محضَ صُدفة، وإنّما هو لحكمةٍ؛ فلكلِّ زمنٍ رجالُه، وأنتَ من رجالاتِ هذا الزمان. لذلك جئتُكَ اليومَ أناجي فيك حكمتَك، وجميلَ فطرتِكَ وعدلِكَ وفطنتِك؛ فقد اصفاكَ الإلهُ الواحدُ من جديد، إذ أرسلني إليكَ لأدعوَكَ كي تؤمنَ به وحدَه، وتُعليَ كلمتَه، وتتركَ ما خلاهُ من آلهةِ الزّورِ والباطل، وأن تتبعَ دينَهُ القويم، وتكونَ أوَّلَ المؤمنين.

إنّي رسولُ الإلهِ الواحد «أهورا مازدا»، وقد أمرَني ربُّ العزَّةِ أن آتيَ إليك، وأدعوَكَ لتقبلَ دينَه، وتعملَ به؛ فلا يجملُ بك ولا بحكمتِكَ وفطرتِكَ وعدلِكَ أن تكونَ على غيرِ الدِّينِ القويم؛ وهو يباركُكَ ويؤيِّدُكَ من عليائِه، ويُديمُ عليكَ نصرَه وشرعيَّةَ مُلكِك.

كان لكلامِ هذا الرَّجُلِ وقْعٌ غريبٌ في نفسي؛ فملامحُهُ المضيئةُ الوضّاءةُ تبعثُ البهجةَ في القلب، وتجعلُهُ يُشَرِّعُ أبوابَه. وكان لفصيحِ بيانِه، وقوَّةِ حُجَّتِه، وحلاوةِ حديثِه، أكبرُ الأثرِ على هذا القلبِ المفتوح. بدأَ البعضُ من بِطانتي يُهمهمون، وتجرَّأَ أحدُهُم -وأحسَبُهُ من كبارِ رجالِ المعبد- محاولًا إسكاتَه بحضوري، بحُجَّةِ التّطاولِ على الآلهة، وما سنلاقيه من سُخْطٍ وعقابٍ وعذاب، إذا ما فتحنا له أيَّ باب. ولكنّي أسكتُّ الجميع، وأفسحْتُ له المجالَ ليُتِمَّ حديثَه، ويُبلغَ -إن صدقَ- رسالتَه.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

طلبْتُ منه أن يستفيضَ لأستزيدَ، ويسترسلَ ويوضحَ لأستوضح؛ فقصَّ قصَّتَهُ على الملأ، وأخبرَنا أنّه وُلِدَ في بلدة «أتروباتين» غربيّ «إريانا فيجا»، حيث معبدُ النّار الكبير وكبارُ الكهنة هناك؛ وأنّه كان طبيبًا بارعًا، ساعدَ الجُنْدَ والنّاسَ في ساحةِ القتالِ وقتَ الحرب، وكافّة سكّان المملكة وقتَ المجاعة؛ وأنّه كان يطوفُ البلادَ ناهلًا علمَ العلماء ومساعدًا كلَّ محتاج.

ثم اعتكفَ لبضع سنين، ونزلَتْ عليه الرِّسالة وهو في الثّلاثين من عمره، حين صعِدَ به «فوهوما» إلى ربّه، ليمثُلَ بين يديه، فأَعلنه في ذلك اليوم نفسِه رسولًا لهذه الأمة؛ وعادَ بعدها ليبدأَ دعوتَهُ بين أهلِه. وأخبرنا كيف قاومَهُ ووشى به كهنةُ المعبدِ الكبير والمنتفعون المراؤون فيه، وأفسدوا علاقتَهُ بالناس الذين كان قد أتمَّ بينهم عشرَ سنين، تنزّلَ عليه خلالها «فوهوما» سبعَ مرّات -كان في آخرها قد بلغ الثانية والأربعين- وسلّمه من عند الخالق كتابًا مقدّسًا اسمه «الأفِستا»، يتضمّنُ تعاليمَ ذلك الدّين وقواعدَهُ وأحكامَهُ ونواهيه.

ثمّ استفاضَ في الحديث عن تعاليم دينه الجديد القديم، وأركانِه، وكيف يدعو إلى التّوحيد والأخلاق والفضيلة والعمل الصّالح، كما إلى العدل والرّحمة والمودّة والعطف والتكافل، ونبذِ العنف والخُلقِ السيّئ، وتجنُّبِ الفساد والاقتتال. وقرأ أجزاء من كتابه هذا الذي ادّعى أنّه مُنزَلٌ من عند الرّحمن.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

أفسحتُ له المجال ليتكلَّمَ ويُعبِّرَ، بل ولرجالِ الدّين والكهنةِ الموجودين في بِطانتي ليجادِلوه ويحاجّوه. والغريب أن حجَّتَهُ كانت دامغة، وفطرتَه سليمة، وكلامَه لا ينافي العقلَ على الإطلاق؛ وذلك على عكس حجّة ومنطق كهنتِي الذين حادوا عن الحقِّ بشدّة، وجانَبوا العقلَ والصِّدق في كثير من الأحيان!

استمرَّ الحوارُ في ذلك اليوم لساعات، فكانَ أشبهَ بالمعركة الحامية، برع فيها ذلك الرجل «زرادوستار» -كما أذكر جيِّدًا اسمه- في الدِّفاع والهجوم والكرِّ والفرّ، ونجح في أن يُقصيَ كلَّ خصومِه ويقضي عليهم! رأيْتُ يومَها الفزعَ في عيون أفراد حاشيتي، بالأخصّ رجال الدين منهم، إذ ضعُفت حُجَجُهم تحت وطأة منطقه وعقله النّابغ وحجّته القاطعة.

لم أستطِعْ أن أخفيَ إعجابي به وبحديثه ودعوته، بعدما تداعت حجج الكهنة المنافقين أمام حججه. لا أُنكر أنّي لم أكن يومًا أثق بما يدعون إليه من أديان وآلهة تُنافي الفطرة والمنطق؛ ولطالما آثرْتُ المواءمة والمهادنة معهم بغيةَ أن تستقيمَ أمورُ المملكة، فأُرسي قواعدَ الحُكم الذي هم خدمُه وعبيدُه الطائعون.

وافقَ ما كان يدعو إليه ذلك الرجل فطرتي وقناعاتي، وما تربّيتُ عليه منذ صغري على يدِ كبارِ العلماء وأكثرِهم حكمة؛ كما وافقَتْ روايتُهُ تلك، الرواياتِ التي سمعتُها من معلِّميَّ عن الرسلِ والأنبياء في أوائل الزمان؛

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

فاندفعَتْ عواطفي ومشاعري وعقلي وقلبي نحوه داعمةً له ومؤيّدَة. وحين استشعرَتْ حاشيتي هذا الميلَ لديّ نحوَه، زادَ صخبُهم، وتضاعفَتْ شراستُهم تجاهَهُ؛ ولكنّه كان لهُم بالمرصاد، فتأجَّجَت لديهم نارُ الخوفِ والذُّعر بشكل جليٍّ ظاهر.

آثرْتُ نُصرةَ عقلي وقلبي، فاحتويتُه وآويته على الرغم من تحذيرات -بل تهديدات- حاشيتي اللّعينة؛ فهذا الفتى صادق، والإلهُ الواحدُ الحقّ حقيقةٌ؛ ولا يجمُلُ بي حقًّا أن أطردَ من بابي مَن جاءَ يدعوني إلى هذا الصِّراط المستقيم.

ولكنّي أعلمُ ماذا تعني رغبتي هذه، وما عواقبُ هذا القرار؛ سأفتحُ جبهاتٍ ما لي عليها من سلطان. بالرغم من ذلك، سأتبعُ حدْسي، وأنتظر. لعلَّ خيرًا يحدثُ بعد ذلك.

يا إلهي، أيِّدني بنَصرِكَ كما كنتَ تفعلُ دائمًا، فليس لي سواكَ ملجأ، وإن كان هذا الرّجلُ رسولَكَ حقًّا، أَعِنّي على نُصرتِه، وأرِني من فضلِكَ آيةً تُثبِّتُني وتُريحني.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

(١٤) ميتيوماه

ثمّ ابتسمَتِ السّماء!

عندما التحقْتُ بابن عمّي «زرادوستار»، وبدأْتُ في اتِّباعِه، أدركْتُ ما كان يُعانيه على مدار عَقدٍ من الزّمان -بل زاد على ذلك عامين- من عِنادِ النّاس وكُفرِهم وجهلِهم وجحودِهم، في بعض الأحيان، وكيف يكونُ الحقُّ بَيِّنًا بين يديك، فتُنكرُه وتُصرُّ على اتِّباع الباطل عن جهالةٍ أو عن كِبْر.

طُفنا في البلاد لشهور، تحدَّثْنا مع البشر والشّجر والحجر، وكاد الحجرُ أن يلينَ ولم تلِن قلوبُ ولا عقولُ البشر! حتّى أتمَّ «زرادوستار» السّنةَ الثانية عشرة من دعوته، والتي تُوافقُ عامَه الثاني والأربعين؛ وكنتُ أنا المؤمنُ الوحيد به في هذا الكون، فأخبرَني أنّ الإلهَ يأمرُهُ أن يذهبَ إلى المَلِك «هيستاسب» في مدينة «باختيريا»، ويعرضَ عليه رسالتَه، ويضعَ بين يديْه كتابَ «الأفستا» المُنزَل عليه من السماء.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

تردَّدْتُ في البداية، وما إن تدبّرْتُ تَبِعاتِ تلك الخطوة حتّى انتابني رعبٌ وهلعٌ شديدان، فنحن أشبهُ بمن يُلقي بنفسه في جُحر الأفاعي طمعًا في البيض. وعن أيِّ أفاعٍ أتحدّث؟! أفاعي قصرِ المَلِك؛ تلك الحاشية وأولئك الكهنة، سنكون لُقمةً سائغة لهم. لن نستطيعَ حتّى الوصولَ إلى الملك. حتمًا سنسيرُ إلى قدرنا المحتوم.

علمْتُ وتعلَّمْتُ منذ عملي عن قربٍ في قصرِ حاكمِ مدينتِنا الصغيرة، كيف تُدارُ البلاد؛ كيف تَرسمُ مصالحُ الكبار سياساتِ البلاد؛ كيف يُزيَّفُ الدّينُ لتُفرضَ الجباياتُ والقرابين؛ كيف تُولدُ الآلهةُ من رحِمِ الكُفر، ليزدادَ تشرذُمُ الشّعوب، ويَسهُلَ حُكْمُهم؛ كيف تُسلَخُ جلودُهم بالضّرائبِ والأسعار، ويكونُ الدّينُ هو المخدِّرُ الوحيدُ لتلك الآلام، فيظلُّ النّاسُ تحت خِدْرِ العملِ المتواصلِ بحثًا عن القوت، وبِجَرْعاتِ الآلهةِ المزعومةِ وحروبِها الوهميّة، وطقوسِهم اللّانهائيّة، مُتَلهّين عمّن يَنهشُ معاشَهم ويَنتهكُ أحلامَهم.

تلك هي لعبةُ السّياسةِ والحكم: سلطةٌ ومالٌ ودين، ثلاثيّةُ الفساد التي تتغذّى بالجهل والخُرافة عبر العصور؛ هي الغماماتُ التي توضَعُ على أعينِ الناس فلا يُبصرون إلّا ما يُريدُهُ الحاكمُ وأعوانُه.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

كيف لنا ونحن ندعو إلى المساواةِ والعدلِ والعلمِ والأخلاق، أن نعرضَ بضاعتَنا في بيت الأفاعي هذا الذي يُدنِّسُه الجهلُ والمصلحةُ والضّلال؟! ومَن سينظرُ إلى تلك البضاعة أو يهتمّ؟! إنّما سيعملون على قتلِها وتبويرِها قبلَ أن يتداولَها النّاسُ وتخرجَ إلى نور الشّارع بين يدَي العامّة؛ وأبدًا لن يدعموها.

كيف ندعو إلى دينٍ واحد وإلهٍ واحدٍ مَن يقتاتون على تعدُّد الآلهة والأديان، غارسين بذورَ الانقسام والتطرُّف والاستقطاب والعداوة والبَغضاء والإرهاب، ليحصدوا نتاج ما زرعوا من كُره وفُرقة، عطايا وقرابينَ وأموالًا يتنعّمون بها فارضين سلطتهم؟!

حدّثْتُ «زرادوستار» صراحة بما في نفسي، ورجوتُه أن ينتظرَ لعلَّنا نؤيَّدُ بآيةٍ أو علامةٍ قبل أن نذهبَ إلى مصيرنا. ولكن، لم يكن في يدنا إلّا أن نمتثلَ لأمر الخالق العظيم، وما كان للعقل والمنطق من فُرصةٍ للمقاومة أمامَ الأمر الإلهي الواجبِ النّفاذ.

اِرتحلنا في اتِّجاه قصر الملك «هيستاسب»، وارتحلَ الخوفُ في أوردتي كما الدَّمُ ما بين قلبي وعقلي، ينازعُني ويُثبطني؛ ولكنّ «زرادوستار» كان دائمًا يُطمئنُني. طالتِ الرّحلة، إلى أن وصلْنا إلى تلك المدينة الجميلة،

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

وافترشْنا الأرضَ واستلحفْنا السّماءَ أمامَ أبواب القصر لأيّام، لم يتكلَّمْ خلالها «زرادوستار» كثيرًا، إذ آثرَ أن يكتمَ دعوتَه تلك الأيام، كي لا تنفضحَ هويّتُهُ ويمنعَهُ المُغرضونَ المنافقون من الوصول إلى الملك «هيستاسب». إلى أن جاءَ اليومُ الموعود، فانتظرنا مع من يَنتظرون لقاء الملك، حتّى أتى دورُنا في منتصف النّهار، وقادَنا الحرّاس إلى ساحة القصر الفسيحة، حيث وقفنا في حضرة المَلِك وبِطانتِه.

وما إن شرعَ «زرادوستار» في حديثه وعرْضِ أركانِ دعوتِه، حتّى شرعَتِ الأفاعي هي الأخرى في بثّ سمومِها، محاوِلةً الانقضاض عليه، ونهشَ دعوتَه. ولكنّ الإله أيَّدَه، وثبَّتَ لسانَه، وشرحَ صدرَه، فانجذبَ الملكُ لدعوته، وسمح له أن يُتمَّ حديثَه؛ فاستفاضَ على مدار ساعاتٍ، امتدّت حتّى أوائلِ اللّيل، دار خلالَها السِّجال ما بين ابن عمّي وأفاعي الحاشية. ولكنّ حجّة «زرادوستار» كانت الأنجعَ والأقوى، وأتمّ الإله فضلَه علينا إذ أيَّدَنا بترحاب الملك، وتصديقه لنا، ونُصرته لحجّتِنا ودعوتنا.

فتحَ الملكُ لنا أبوابَ قصرِه للإقامة فيه، وقال لنا صراحةً أنّه يتلمَّسُ الصِّدقَ والحقَّ والفطرة في دعوتنا، وإنّما يحتاجُ إلى أن يستزيدَ معرفةً بها وبأسرارِها، ليقفَ على جميع جوانبها، ويستبينَ الحقَّ من الباطل. وفعلًا، واظَبَ في الأيّام التالية على الاجتماع بنا منفردًا، لنتحدَّثَ عن الدين

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

والإيمان والعقيدة، وفلسفة التوحيد، وما يحتويه «الأفِستا» من تعاليمَ وقيمٍ وأخلاق. وكان يتفاعلُ ويتأثّر حقًّا، حتّى في تلك الأيّام التي شارَكَنا الحوارَ خلالها جانبٌ من حاشيته، على الرّغم من شراستهم وما كانوا يتدبَّرون من مكائدَ وأكاذيبَ وافتراءاتٍ، يحاولون بها جاهدين زعزعةَ منطقنا، وهدْمَ دعوتِنا. إلّا أنّنا وُفِّقنا بدعمِ الإله الواحد الأعظم وفضلِه، إذ زاد تأييدُ المِلك لنا. فابتسمَتِ السماءُ لنا، وشعرْتُ أنَّ دعوة ابن عمي سترى أخيرًا النّورَ والطّريقَ إلى قلوب كافّة النّاس.

وعندما انقطعَ أملُ الأفاعي في أن ينالوا من «زرادوستار» بالحكمةِ والمنطقِ والحُجّة، بدأوا نشرَ الأكاذيبِ والافتراءات، قائلين: ما هو إلّا ساحرٌ، سَحَرَ المَلِكَ وسيطرَ على عقله وسَمْعِه لئلّا يسمعَ أو يُصدِّقَ غيرَه؛ أو شاعرٌ أتى ليستغلَّ فصاحتَه وحُسْنَ بيانه ليتكسَّبَ بعضَ المال. ومنهم من قال: إنّما أتى لينقضَّ على العرش بعد أن يَفتِنَ المَلِكَ في دينه؛ بل هو قاتلٌ مأجورٌ من الأعداء، أتى ليخدعَ المَلِكَ ويقتلَه. وبما أنَّ ادِّعاءاتِهم لم تكنْ ترتقي لأن تَدحضَ منطقَ «زرادوستار» وحجَّته، أو تسيءَ إلى سمعته وتهزَّ صورتَهُ أمامَ المَلِك، أدركْتُ أنّ القادمَ أسوأ وأكثرَ سوادًا.

حتمًا سيحاولون النيلَ منه بأيِّ شكل ممكن، والإيقاعَ به بأيّةِ طريقةٍ متاحة.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

وفي صبيحة يومٍ مشؤوم، استيقظْنا على صخبٍ شديدٍ وجلَبَةٍ في ساحة القصر. هَرَعْنا إلى السّاحة لنتبيّنَ الحال، أو لنساعدَ إذا استدعى الأمر، فوجدْنا الحرسَ مجتمعًا، والخدم والجواري يبكون. وعندما اقتربْنا من التجمُّعِ لنستطلعَ ماذا هناك، سمعْنا صياحًا شديدًا، وعويلَ إحدى الجواري التي ما إن رأتْنا حتّى أشارَت إلى «زرادوستار» صائحة:

الجارية: هاكُمُ القاتلُ الدّخيلُ المُجرم، ناكرُ الفضلِ والجميل، هاتِكُ الأعراضِ الخسيس! لا تُفلتوه، لا تدعوه ينجو بفعلتِه.

أحاطَ بنا بعضُ الحرَسِ، ونحن في حالةٍ من الارتباكِ والذّهولِ الشّديدَيْن! لم نكنْ لنستوعبَ ما يحدُث! قادَنا الحرَسُ إلى غرفةٍ بعيدةٍ خالية، في طرَفِ القصر، بانتظار أن يأتيَ الملك، ونرى ما سيفعلُه بنا.

حاولْتُ، كما حاول «زرادوستار»، أن نستفسرَ من الحرسِ عمّا جرى، وعن أيِّ قتلٍ أو قتيل يتحدّثون، لكنّنا لم نجدْ مَن يُجيب عن أسئلتنا. مرَّتْ ساعاتُ الحجزِ كأنّها سنوات، قبلَ أن يأتيَ بعضُ الحرّاس ويقتادونا إلى ساحةِ القصر من جديد، حيث كان يقفُ المَلَكُ محاطًا بحاشيته وبعضِ الجواري.

وحين مثَلنا بين يدَيْ الملِك، وقبلَ أن يسمحَ لنا بالكلام، بادرَنا أحدُ الحضورِ -علمنا في ما بعد أنّه القاضي- بالسؤال:

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

القاضي: ما كانت علاقتُك بالجارية «أيرينيس» يا «زرادوستار»؟

«زرادوستار»: عن أيِّ علاقةٍ، وعن أيِّ جاريةٍ تتحدَّثُ يا أخي الكريم؟!

فصاحَتْ إحدى الجواري، وإذا بها الجارية ذاتها التي كانت تملأ القصر بكاءً وعويلًا صباحَ ذلك اليوم:

الجارية: قاتلٌ كاذب، اقتلوه كما قتلَ «أيرينيس».

فصاح بها القاضي:

القاضي: فلتصمُتي يا جارية إلى أن يُطلبَ منك الكلام.

ثمّ توجَّهَ بالسؤال إلى «زرادوستار» من جديد:

القاضي: أنا من أسألُك يا رجل عن طبيعة علاقتك بالجاريةِ الشقراء الطويلة، صاحبةِ الشعرِ الذهبيّ والعينين العسليّتين، والتي تدعى «أيرينيس»، ألم تكونا تتقابلان وتتحدّثان معًا؟

«زرادوستار»: نعم، بالفعل، فكثيرًا ما كانت تستوقفُني في أروقة القصر لتسألَني عن بعض أمور الدّين؛ وقالت لي إنّها كانت تسترقُ السمعَ من وراء الحُجُب إلى ما كان يدورُ من حوار في ساحة القصر؛ وكانت بعضُ الأمور التي أدعو الناس إليها، تحيِّرُها، أو يصعبُ عليها فهمُها، فكانت تسألُني عنها.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

فصاحَتِ الجاريةُ ذاتُها من جديد:

الجارية: كذَبْتَ، إنّما أنتَ مَن كُنتَ تتبعُها وتُطاردُها في طُرُقاتِ القصر، لتراودَها عن نفسِها، فعندما استعصَتْ عليكَ وخِفْتَ أن تفضحَ سترَكَ وتكشِفَ كذِبَكَ وحقارتَكَ، قتلْتَها بدمٍ بارد.

صاحَ بها القاضي مرّة أخرى:

القاضي: اصمُتي يا امرأة، وإلّا أمرْتُ بضربِ عُنُقِك فتلحقي بصاحبتِك.

يا رجل، أراك تعترفُ باتِّصالِكَ بالقتيلة، خلالَ الأيّام السّابقة. وإن كنتَ لا تعلمُ ما حدثَ هذا الصباح -كما تدَّعي- دعني أُخبرُك: لقد وَجدَ الحُرّاسُ صباحَ اليوم، في باحة القصر الخلفيّة، جثَّةَ تلك الجارية مخضَّبةً بالدّماء؛ وعندما تحرّوا عنها قالت أقربُ صديقاتها -تلك الجارية التي لا تتوقَّفُ عن الصراخ والعويل- أنّ «أيرينيس» كانت تشكو لها في الأيّام الماضية من مطاردتِكَ لها، إذ كنتَ تحاولُ استمالتَها ومراودتَها عن نفسها، وهي كانت تتمنَّع؛ وقالت أيضًا تلك الجارية، إنّ «أيرينيس» أخبرَتها صبيحةَ يومِ مقتلِها، أنّك توعّدْتَها إن لم تنلْ منها ما تريد، ستنالُ هي منكَ ما تستحقّ؛

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

وهدَّدْتَها، إن حاولَتْ أن تفضحَ أمرَك، بقربِكَ من المَلِك وسَطوتِكَ؛ وأكّدَتْ أنّ خوفَها منك كان يتملَّكُها ويؤرِّقُها.

«زرادوستار»: يا أخي، إنّ هذا لزورٌ وبُهتانٌ وكيدٌ من عمل الشيطان.

القاضي: ما أنا بأخيكَ! إنّما أنا القاضي، وإذا ما خاطبْتَني فعليكَ أن تقولَ: سيّدي. وإذا كنتَ تتحدَّثُ عن مكرِ الشّيطان، فما قولُك أنّا قد وجدْنا سكّينًا وثوبًا من ثيابِ الشيطان، مدفونين في حديقة القصر، دلَّنا عليهما أحدُ الكلاب وعليهما دماء القتيلة. وعندما فتّش الحرّاس غرفتك وجدوا بين طيّات كتابك السماويّ أو الشيطانيّ، قِطَعَ حُلِيٍّ كانت تتزيَّنُ بها القتيلة، وشهِدَ أصدقاؤها عندما عاينوها، أنّها لها. فما قول الشيطان في هذا المكر والكيْد؟

لم يُمهِلْنا ذلك القاضي لندفعَ تلك التُّهمَ الشّنيعة عنّا. وعلى الرّغم من أنّي توقّعْتُ المكرَ والخيانة، إلّا أنّي لم أتوقّعْ أبدًا أن يصلَ المكرُ إلى هذه الدَّرجة من الخسّة والإتقان!

وصاح القاضي:

القاضي: مولاي ملكُ البلادِ العادلُ الحكيم، لقد استغلَّ هذان الضيفان الخسيسان كرمَكَ ورحابةَ صدرِك، فراودَ أحدُهما جاريتَكَ عن نفسِها، فحين أبت، خاف على نفسه الفضيحة، فقتلَها وسرقَ

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

حُلِيَّها؛ ونراه اليومَ يقفُ أمامَ عدالتِكم بالجُّرم المشهود. فحريٌّ بكم يا مولاي، أن تُقيموا ميزانَ القِسْط؛ وما نراه لا يستحقُّ إلّا القتل، فمَن قتلَ يُقتل. ليس جزاءً على قتله تلك النفس البريئة بدون حقٍّ فحسْب، وإنّما لخيانته الأمانة، وانتهاكِهِ الأعراض، ولِما أقدم عليه من سرقة. فإن استطعْنا أن نقتلَه بدلًا من المرّة مرّات، لما تأخّرنا، جزاءً موافقًا لجُرمه الشنيع.

أصابَ المَلِكَ الوجومُ، وأفقدَتِ الصدمةُ والابتلاء «زرادوستارَ» القدرةَ على الكلام. وعندما تزايد الضّغطُ، اِنفجرْتُ مُندفعًا نحو ابن عمّي، وكان يَبعُدُ عني بضعَ خَطَوات، فهرولْتُ نحوَه وأنا أصيح: «إيّاكم ودماءَ رسولِ الإله! أيُّ هُراء تزعمون يا عبدةَ الطّاغوت؟!» وفورًا عندما تحرَّكْتُ في اتّجاه «زرادوستار»، سطعَ نورٌ شديدٌ أمامي كأنّه انفجار، وتبعَهُ صوتٌ مَهول! وفجأةً أَظلمتِ الدُّنيا وسكنَتْ، وكأنَّ الشَّمسَ انطفأَتْ، والحياة انتهَت!

صمتٌ وظلام، بل ظُلُمات!

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

(١٥) ماندانه

أنا الجارية «ماندانه»

أجري دومًا عكس تيّارِ القدر، الذي يجرفُني باستمرارٍ معه، من غير حَوْلٍ لي ولا قوّة؛ لم أكنْ أنا وحدي من يجري، بل كان الدَّهرُ يجري معي ويركض؛ فاستباحَ ملامحي ودهسَ جسدي؛ فلا وجهي اليومَ يحملُ ملامحَ الأمسِ الجميلة الفاتنة، ولا جسدي اليومَ يُزهرُ بأنوثة الأمس التي كانت تقهرُ أعظمَ الرِّجال.

قبلَ سنوات، كنتُ تلك الطفلة الجميلة الملامح، اِبنة الحطّاب الفقير؛ كنتُ كنزَهُ الذي كان يُدرك هو قيمتَه بالفعل؛ يرعاه ويحفظه حتّى يحينَ وقتُ إزاحة التُّراب عنه، فيبيعه بأغلى ثمن.

ماتَتْ أمّي قبل أن أُدركَ معنى الأمومة، ونشأْتُ في بيتِ ذلك الحطّاب الذي كان يسعى وراءَ رزقِهِ الشّحيح نهارًا، ويرجِعُ في اللّيل فلا يجدُ ما يؤنسُ وحدتَه، ما دفَعَهُ للذهابِ إلى بيوتِ المتعةِ يُبعثرُ فيها ما جناه؛

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

إلى أن وجَدَ فيها ضالّتَهُ لدى عاهرةٍ انتهكَها الزّمان، فانصرفَ عنها زُوّارُها بعدما مسحَ الدهرُ ملامحَ أنوثتِها، وصارَتْ عبئًا على مَن يديرون ذاك البيت حيث تعمل، فتزوّجها علَّها تؤنسُ لياليَ وحدتِه مجّانًا؛ وقبِلَت به طمعًا بالمأوى والمأكل، وهربًا من مصيرِها المحتوم بالطّردِ من بيت المتعة، والتَّشرُّدِ في الشّوارع فتنهشَها الكلاب.

وسرعانَ ما حنَّتْ تلك المرأةُ إلى أيّامها الخوالي، فسحرَتْ عينَيْ أبي ببريقِ الذّهبِ المأمول؛ فما كان منه إلّا أن فتحَ أبوابَ البيتِ ليلًا للسّهارى والسّكارى، سعيًا وراء الثّراء والأموال. وهكذا، ما إن تَغرب الشَّمس حتى يتحوَّلَ بيتُنا إلى ماخور، يُقدَّمُ فيه رديءُ الشّراب، وتأتي بائعاتُ الهوى الطّريدات طامعاتٍ ببضع قطعٍ من النقود يجنينَها من روّادِ بيتِنا السّكارى.

أجبرَتْني تلك المرأةُ الشّمطاء أن أخدمَ هؤلاء الرِّعاع، فتحوَّلْتُ من فتاةِ أبي الجميلة إلى عبدةٍ وسِلعةٍ ذليلة؛ وأجزِمُ أنّي لو كنتُ بلَغْتُ في ذلك الوقت مبلغَ الفتيات الرّاشدات، لما كانت تلك المرأةُ لتتورّع عن أن تقدِّمَني كسِلعةٍ لزبائنها الأنجاس.

استمرَّ هذا الحالُ عدّة شهور. لم يكن عمري خلال ذلك الوقت يتجاوزُ التسعةَ أَعوام، حيث شرعَ اقترابُ البلوغ يرسُمُ أبهى لوحاتِ الجمالِ على

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

وجهي وجسدي. كانت تلك المرأةُ تدركُ ذلك، وشعرْتُ أنّها كانت تموتُ غيظًا منه! مع مرور تلك الشّهور، لم يتحسّنْ حالُنا، بل زادَ ضيقُه ضيقًا.

وكان من زوّارِ بيتِنا الدّائمين أحدُ النّخّاسين، الذي لاحظْتُ تطوُّرَ العَلاقة سريعًا بينه وبين زوجة أبي. وذات نهار اصطحبَتْني زوجةُ أبي معها إلى السّوق لشراء مَتاعٍ للدّار؛ ولكنّها قبل الوصول إلى السّوق بقليل، انعطفت بي إلى مكانٍ بعيدٍ هادئٍ شحيحِ الحركة، حيث ظهرَ ذلك النخّاس من العدم، وأعطاها صُرَّةً من المال! وقبلَ أن أستوعبَ ما يحدثُ، كمَّ فمي، واختطفني في عربةٍ خشبيّةٍ مغلقة، يجرُّها حصانان، وكانت معي في العربة نفسِها فتاتان. اقتادنا جميعًا إلى «باختيريا»، لأجدَ نفسي مع الفتاتَيْن، وفتياتٍ وفتيانٍ كثيرين، في ساحةٍ عظيمةٍ للنّخاسة، نُباعُ كالبهائم أو السِّلَع!

وبينما كنّا مصطَفّين وقوفًا في تلك السّاحة، سمعنا جلبةً وأصواتَ خيولٍ تقترب؛ فتغيَّرَ وجهُ ذلك النخّاس، واعتراهُ الفزع. حاول جاهدًا إخفائي والفتاتَيْن، لكنّ أحدَ الحرّاس رآه، وضربَه على رأسه ضربةً طرحتْهُ أرضًا. فهمْتُ في ما بعد أنَّ تلك الجلبة كانت لموكبِ شرطةِ القصر، الذين يأتون كلَّ فترة إلى ذلك السّوق على ظهور الخيل، وينتقون ما يحلو لهم من العبيد والجواري، يأخذونهم عَنْوَةً من دون مقابل.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

وكنتُ من المحظوظات اللّاتي وقعَ عليهنَّ الاختيار، لأنضمَّ إلى جواري القصر. في أروقةِ هذا القصرِ كبُرْتُ، وتعلَّمت ألاعيبَ هذه الحياة. وبعيدًا عمّا تعلّمْتُه أو تركَ علامة في عقلي وقلبي، يظلُّ ذلك الجُرحُ الغائر الذي لا يندملُ من طعنةِ تلك العاهرة التي قتلَتْ حُرِّيّتي إلى الأبد، وأدخلَتْني إلى سجن الرِّقِّ بلا عودةٍ ولا مخرج.

لم يَندملِ الجرحُ مع الزّمن، بل ازدادَ التهابًا، واستمرَّ في النّزف. وكانت الرَّغبةُ في الانتقام تستنزفُ كلَّ طاقاتي مع مرور الوقت. لا تزالُ تتردَّدُ في عقلي كلماتُ تلك العاهرة مع ذلك النخّاس، وأنا مرميّة مقيّدة ومكمَّمة لا أستطيعُ حتّى أن أصرخ. فقد كانا يتكلّمان على الهربِ من بيت أبي ومن تلك القرية، متّفقَيْن على مكان وزمان التّلاقي من جديد.

كانت تلك الذكرى وهذه الآلام الحافزَ الأكبرَ لي لاختيار ما يجب عليَّ أن أَتعلّمه وأُتقنُه. وكانت بيئة القصر حقًّا خصبة، مليئة بالأحداث والدّروس والمكائد والمؤامرات. علِمْتُ وتعلَّمْتُ أنَّ سياساتِ البلاد تُرسَمُ في غُرَف الجواري، حيثُ يُحدَّدُ مستقبلُها ومستقبلُ حكّامِها وأصحابِ النفوذِ فيها؛ وأنّه على مخادع الجواري وبين أفخاذهنَّ تُمنحُ العطايا وتُوزَّعُ المناصب. فما إن تتقرَّبُ جاريةٌ من المَلِك وتصبحُ محظيَّتَه، حتّى تَخِرَّ تحتَ قدميْها كبارُ الرؤوس في الحكم؛ إمّا حفاظًا على مناصبهم، أو

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

طمعًا في منصبٍ أكبر أو منحةٍ أعظم. ومَن لم تستطعِ التَّقَرُّبَ من المَلِك، كانت ترمي حِبالَها عند مَن تستطيعُ الوصولَ إليه من رجال الحُكم، لتضمنَ الحظوةَ والاستمرارَ والنّفوذ.

هكذا كانَتْ تُدار البلاد، وهكذا كانت تُحاكُ المكائدُ والمصائبُ بين الجواري أنفسهنّ، لتحلَّ واحدةٌ محلَّ أخرى على مَخْدَع المَلِك، أو مَخْدَع أحد المقرَّبين من حاشيته. وحين أدركْتُ هدفي، الذي لم يكنْ بالتأكيد الملك -لأنَّ تلك الحرب الضّروس ما بين الجواري ومزاج الملك المضطرب لن تُحقِّقَ لي حُلْمي ومأربي- بل كبيرُ الحرّاس، فهو وحده مَن يمكنه أن يؤمِّنَ لي الانتقام. وهكذا كان!

نصبْتُ الشِّباك، واستخدمْتُ كلَّ ما أُوتيتُ من أسلحةٍ في جذْبِ انتباهِه، فكان لي ما تمنَّيْت، إذ وقعَ فريسةً في شباكي. رُحْتُ أحوكُ خيوطي من حولِه، حتّى سلَّمَ أمرَهُ لي بالكامل، وصارَ طوعَ بناني، يأتمرُ بأمري، ولا تضحكُ الدُّنيا في وجهه إلّا فوقَ سريري وبين فخذَيّ، فتبتسمُ له ما دمتُ أبتسمُ له. وعندما توطّدَتِ العلاقة بيننا، ملكْتُ السَّطوةَ والنُّفوذ، وكانت لي الحظوة بين زميلاتي الجواري. سمحَتْ لي تلك العلاقة، في ظلِّ اندفاعِه نحوي، أن أوكلَ له الانتقام. فبُحتُ له بما في صدري من جُرحٍ سبّبَتْه تلك العاهرة، وأخبرتُه عن صفتها، وأين تقيم، بحسَبِ ما سمعتُه من الحوار

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

الذي دار بينها وبين ذلك النخّاس يومَ اختطافي، الذي كان آخرَ عهدي بهما. وما هي إلّا أيّام حتّى أُلقيَ برأسِها بين قدمَيّ! لم اكتفِ بهذا، بل طلبْتُ منه أن يَهدِمَ ماخورَ أبي فوقَ رأسه، كي يتشرّدَ كما شرَّدَني بزواجه من تلك العاهرة، وإصغائه لها. فكان ما طلبت! شَفى غليلي، وداوى جُرحي، وامتلكني كما امتلكتُه.

استمرّت العلاقةُ بيننا لسنوات، يمدُّني بالنّفوذِ والقوَّة، وأمدُّهُ بالحنان والمتعة، والمعلوماتِ عن دواخلِ القصر وأحداثِه؛ تبادُلُ منفعةٍ يحفظُ للطَّرفَيْن مكانَهما ومكانتهما. إلى أن تغيّر حالُه منذ أسبوع! صدقًا لم يكنْ حالُه وحدَه الذي تغيّر، بل انقلبَتْ أركانُ قصرِ المَلِكِ بالكامل، منذ وطِىءَ هذا المُدَّعي ساحةَ القصر.

فَقَدَ المِلكُ نفسُه التَّركيز، وأصبحَ كثيرَ الشّرود، لا يُصغي لحاشيتِه ومساعديه كما تعوَّدَ أن يفعلَ دائمًا. وكان انحيازُهُ لهذا الزّائر مصدرَ فزعٍ للحاشيةِ جمعاء، لا أستثني منهم أحدًا؛ لأنَّ هذا الانحياز، وتلك القِيَم والأخلاق والعدل والمساواة التي يدعو لها ذلك الزّائر، تُهدِّدُ مكانَ كلٍّ منهم ومكانتَه. ولكنَّ كهنةَ المعبدِ كانوا أكثرَ رجالِ الحاشية فزعًا، بل رعبًا. وفي داخل القصر، انقسمَ الخدمُ والعبيدُ وحتّى الجواري، ما بين مؤيِّدٍ له، ومتشكِّكٍ رافِض.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

زارَني رئيسُ الحرَسِ وعلى وجهه علاماتُ الهمِّ والوجوم، وصارحَني بتخوُّفِه وأقرانِه، مساعدي المِلك، من خطرِ ذلك الشابِّ الذي يتهدَّدُهم. وقال لي إنّهم حاولوا معه شتّى الطُّرق الممكنة، وأطلقوا في حقِّهِ الأكاذيبَ والشائعاتِ، ولكنَّ هذا لم يؤثِّر على مكانتِهِ عندَ الملك، ولم يُثبِطْ من عزمِهِ في نشرِ تلك الدعوة! وقال لي إنّهم في حالة قلقٍ بالغٍ ممّا يحدُث، ويبحثونَ عن حلٍّ من داخل القصر.

هنا لمعَتْ في ذهني فكرةٌ برّاقة! فقد كان ثمّة جاريةٌ جميلةٌ تُدعى «أيرينيس»، هي المفضَّلة عند الملك في تلك الأيّام؛ وعلى الرَّغم من حقدي عليها وغيرتي منها، إلّا أنّني آثرْتُ التودُّدَ إليها، وادِّعاءَ صداقتِها، لأكسبَ وِدَّها وأجتنبَ شرَّها. وفي الوقت نفسه، لاحظْتُ اهتمامَها بهذا الزّائر، وكثرةَ حديثِها عنه. وحدَّثتْني غيرَ مرّة أنّها التقتْهُ في أروقة القصر وسألَتْه عن دعوتِه ودينه. عندها اختمرَتِ الفكرةُ في رأسي، فقلْتُ لرئيس الحرس:

«ماندانه»: ومَن يجعلُ المَلِكَ يأمرُكَ بجزِّ رقبةِ هذا الزّائر على الملأ، بما تكافئه؟

فقال لي:

رئيس الحرس: إن استطعْتِ فعلَ ذلك، لكِ ألفُ قِطعةٍ ذهبيّة. وإن أردْتِ فوقَ هذا، أمَّنْتُ لك الهروبَ والحريّة.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

فحكيْتُ له عن اهتمامِ تلك الجارية بالضّيف، وعمّا كان يدورُ بينهما من لقاءات وحوارات في رَدَهات القصر. وقلتُ له:

«ماندانه»: فلتستدرجْ أنتَ أو أحدُ رجالِك «أيرينيس»، في أيَّة ليلةٍ قبلَ نهايةِ الأسبوع، موعدِ اجتماع الملكِ بها، وإذا ما اختليْتَ بها اقتُلْها بسكّين. وفي الصّباح سآمرُ إحدى الخادماتِ أن تأتيَني بثوبٍ من ثيابِ الزّائر. ثمّ أُرسلُ لك الثّوب، فاجعَلْ بعضًا من دماءِ القتيلة يُصيبُ ثوبَ الضَّيف؛ ومتى ما فرَغْتَ من ذلك، جرِّدْها من حُليِّها واتني به، وأنا سآمرُ الخادمةَ نفسَها أن تدسَّ قِطَعَ الحُليِّ تلك في كتابِ ذلك الضَّيف؛ ثم خبّئ السكيّنَ والثوبَ الملطّخَ بالدّم في حديقة القصر، واتركْ لي الباقي؛ سأجعلُ كلَّ الناسِ تتيقَّنُ أنّه من فعلَها. وما إن يَتمَّ ذلك، فلتتّفِقْ مع القاضي أن يُنجزَ محاكمتَهُ سريعًا. وهكذا، في ليلةٍ واحدة، سيتحوَّلُ الملِكُ ضدَّه عندما يعلمُ أنّه قاتلُ جاريتِهِ المفضّلَة؛ بالأخصّ حين نُشيع أنّه كان يراودُها عن نفسها، فنوغرَ صَدْرَ الملك عليه أكثر. وفورَ نُطقِ القاضي حُكْمَه سيأمرُكَ الملكُ بجزِّ عُنُقه. عندها تكونُ لي ألفُ قطعةٍ من الذّهب، وصكُّ الحرّيّة، وبابٌ مفتوحٌ للخروج من هذا القصر.

بعدما انتهيت من حديثي، زادَ وجومُه وجومًا، ثمّ انفرجَتْ أساريرُه، وظهرَتْ على شفتيه ابتسامةٌ وصلَتْ حتّى أذنيه. وقال لي: «إنّك لشيطانة!» ثمّ خرجَ من عندي مفعمًا بالفرح والتحفُّز لِما دبَّرْنا وخطَّطْنا.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

بعد ذلك بليلتَيْن نفّذنا الخطّة. وفي الصّباح كنتُ أوّلَ الموجودين في جوار الجثّة، أملأُ القصرَ نحيبًا وصُراخًا وعويلًا. وما إن رأيْتُ هذا الضَّيفَ قادمًا حتّى صُحْتُ بأعلى صوتي: «إنّه القاتل!» وعند المساء كان القاضي على علمٍ بما حدث -كما دبَّرْنا- فاستدعى ذلك الزّائر، ووجّه إليه التُّهمةَ في حضور المِلك، ولم يمهلْهُ ليقدِّمَ الدُّفوع، بل حَكَمَ سريعًا بقتله؛ وانتظرنا جميعًا موافقةَ المِلك لتنفيذِ الحكم.

ها قد اقتربَتِ الحرّيّة، واقتربَ الثّراء!

قبل أن يفتحَ المِلكُ فمَه بكلمةٍ واحدة، صاحَ رفيقُ الزّائرِ عاليًا، بكلامٍ لم أتبيَّنْه من حِدّة صوتِه، واندفعَ نحو رفيقه بسرعة، فباغتَهُ أحدُ الحرّاسِ بمقبضِ سيفِه على مؤخَّر رأسِه، فسقطَ على الأرض من فورِه مغشيًّا عليه. عندها خرَّ الزّائرُ على قدميْه فزِعًا، يحاولُ ضمَّ رفيقِه وهو يبكي ويصيح: «ظُلْمٌ وظُلُمات، ظُلْمٌ وظُلُمات!»

هنا صاح الملك: «كفانا من هذا الهُراء! فليُزَجَّ بهما في السِّجن الآن، حتّى نرى ما نحن بهما فاعلون، ولينصرفِ الجميع.»

تعجَّبْنا جميعًا من إرجاءِ الملكِ القرارَ القاطع، هو الذي كان -في ما سبق- حاسمًا حازِمًا، ونادرًا ما خالف حُكمَ القاضي! ما أثارَ في قلبي الرّيبة.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

لا، لن أسمحَ لأحدٍ أن يضَيِّعَ حرِّيَّتي وثروتي من جديد! ولن أسمحَ لكائنٍ من كان أن يغتصبَ حقّي.

سآخذ مالي وحرّيّتي من رئيس الحرس ولو بالقوّة، وإن امتنعَ لأكيدنَّ له، فيكونَ رأسُهُ هدفي التّالي؛ حياتي مقابلَ حياته، فما من طاقةٍ له أمام مكري وعظيمِ كيدي.

وإنّي على ذلك لمن القادرين.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

(١٦) هيستاسب

سَراب

لا شيءَ سوى السّراب! كان أسبوعًا حافلًا حقًّا! استهلَلْناه بالحُلم إلّا أنّه ما لبثَ أن استحالَ في نهايته إلى سراب.

حلمٌ... منطقٌ... حُجَّةٌ...

دعوةٌ... إلهٌ... نبيٌّ...

رسالةٌ... إيمانٌ... عِرْضٌ...

قتلٌ... سَجنٌ... فسراب!

كان هذا ملخَّصَ الأسبوع. تأرجحْتُ فيه ما بين الشكِّ والإيمان، والحُلْم والإحباط. وأصبحَ حُلْمي سجينًا من جديد! ليس «زرادوستار» هو حُلْمي بالتّأكيد، بل فكرتُه، تلك الفكرةُ التي كنتُ أبحثُ عنها في أعماقِ نفسي من دون أن أشعر، وما إن وجدتُها فيه، ودعاني إليها، ابتهجْتُ بها. لكن، ما هي إلّا أيّامُ قليلة حتّى تبخّرَت!

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

سأعودُ من جديد إلى المكانِ الوحيد الحقيقيّ في هذا الكون؛ المكان الذي أجدُ فيه نفسي وحرِّيتي فوق صهوة حصاني فقط. ولكنّي لا أدري لماذا لم أعدْ استشعرُ الدفءَ نفسَه والحنين، حتى في هذا المكان! خَفَتَ بريقُ جوادي لسببٍ لا أعلمُه! فعندما دخلْتُ عليه الحظيرةَ اليوم، أدارَ لي ظهرَه، هو الذي كان يُقبلُ عليَّ دائمًا حينما يراني، لأحتضنَه!

كان دائمَ الوثْب، وكثيرًا ما يقفُ منتصبًا على حافرَيْه الخلفيَّيْن معبِّرًا عن استمتاعه وفرحه باللّهو معي. أمّا الآن، فكثيرًا ما يضرِبُ الأرضَ بحافرَيْه الخلفيَّيْن، ويهزُّ رأسَهُ وذيلَه، وتنتصبُ أذناه بشدّة نحو الخلف. لا شكَّ في أنّه مضطربٌ وغاضبٌ على غير العادة! على الرّغم من أنّي تعمّدْتُ في الأيّام السابقة أن أُغمِّسَ يديَّ في العطر، وبالَغْتُ في تعطير ملابسي قبل أن أمتطيَه، وذلك لعلمي أنَّ الخيلَ تُميِّزُ حالةَ الإنسانِ من رائحتِه، وتتأثَّرُ بها، فقصدْتُ ألّا أنقلَ إلى جوادي ما يَعتريني من قلقٍ وشكّ.

«هيستاسب»: صديقي، ليس هذا الوقتُ المناسب حقًّا لتحزن، فأنتَ مَنْجاتي الوحيدة من سجنِ هذا القصر. أنت النّافذة التي تأخذُني من ضيقِ تلك الأرضِ إلى سِعَةِ الفضاء. لا أستطيعُ تخيُّلَ أو تحمُّلَ أن يصيبَك مكروهٌ وسطَ ما أعانيه الآن من تشتُّتِ ذهن. أُصمُد يا صديقي، وعُدْ إلى سابقِ عهدِك، أرجوك! فلا حاجةَ لي هذه الأيّام، إلى مخلوقٍ في الدُّينا سواك.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

لا بُدَّ أن أتركَهُ ليرتاح، وأطلبَ له من الحارس والسائس المزيدَ من العناية، حتّى يتحسّن. بل سآتي كلَّ يومٍ لأعتنيَ به بنفسي، لعلَّهُ يعود إلى سابق عهده. لا بدَّ أن يعود!

سأعودُ أنا الآن إلى سجني الأبديّ. كنت أتخيَّلُ أنَّ الإلهَ قد أرسلَ إليَّ مفتاحَ هذا السِّجن مع «زرادوستار». ولكن، في ظروفٍ غير مفهومة، زججْتُ بيدي بـ«زرادوستار» ومعه المفتاح، في السجن، لأعانيَ أنا في سجني الكبير، ويعاني هو في سجني الصغير!

كلُّ شيءٍ كان يبدو مثاليًّا في البداية. كنتُ أعلمُ أنّ تلك المثاليّةَ مؤرِقَةٌ جدًّا لبعض رجالِ القصر ورجالِ المعبد. ولكن، أيَّ معبدٍ أقصدُ في خضمِّ هذا الإرث من المعابد الذي ورِثْناهُ أبًّا عن جَدّ؟! كادَتْ مثاليَّةُ أفكارِ «زرادوستار» ودعوتِه تُحطِّمُ أصنامَ ذلك الإرث، وتُهشِّمُ رموزَ الماضي الذَّميم، وتُغلقُ أبوابَ الغِلِّ والحقدِ والاستقطابِ والفسادِ والكُفر، وكلِّ ما يَقبعُ خلفَ تلك الأبواب من جحيمِ الآلهةِ والأديانِ المتعدِّدَة، فاتحةً أبوابَ الفِطرةِ والحقِّ والحكمةِ والإيمانِ بنَعيمِ الإله الخالقِ العظيمِ الواحد.

تلك هي القناعةُ التي غُرِسَتْ في قلبي وعقلي منذ سمعْتُ «زرادوستار» يدعو إلى عبادة إلهه الواحد؛ قناعةٌ نبتَتْ وسطَ العديد من الشُّكوك والتّساؤلات، وظلَّتْ تُحيطُ بي وتؤرِّقُني لأعوام:

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

- تلك النّارُ الموقَدَة التي يعملُ خدمُ القصرِ والمعبدِ على خدمتِها والحفاظِ عليها مشتعلةً طوال الوقت، والتي يمكنُ أن نطفئَها بجُرعةِ ماء، كيف لها أن تُعبَد؟!

- والأصنامُ والأحجارُ والشَّمسُ والقمرُ وكافَّةُ الآلهة من النوعيَّة نفسِها، كيف تُعبَدُ وما لها من حولٍ ولا قوَّة؟!

- تلكَ الطُّقوسُ والعاداتُ والقرابينُ والمعابد، كيف تُقام لمخلوقاتٍ أو جوامِدَ لا تَنفعُ ولا تُضرُّ، من دون الخالقِ العظيم؟!

- كيفَ لها حتّى أن توضعَ في المنزلة ذاتِها والدَّرَجةِ نفسِها، مع المُبدِعِ الإلهِ الواحد، الذي يدعو لعبادته «زرادوستار»؟!

أسئلةٌ عديدة، كادَ «زرادوستار» يأتي بحلِّها والإجابةِ عنها دفعةً واحدةً، وكان حلُّها ليهدمَ بيوتًا ويُقيم أخرى، لولا أنَّه حدثَ ما حدث!

ولكنَّ هذه التّساؤلات عادَتْ إلى قاعِ النَّفقِ المُظلم إيّاه، وأهالَتْ تلك الحادثةُ عليها التُّراب، بل فتحَتِ البابَ لتساؤلاتٍ أكثرَ وأصعب:

- كيف لمَن يتمتَّعُ بهذا الخُلُقِ والمنطقِ والحكمة، أن يقتلَ ويخونَ ويَسرِق؟!

- كيف لمن يدعو إلى القِيَمِ والعدلِ والتوحيدِ، بهذه الحرارة وهذا الصدق، أن ينتهكَ الحُرُمات؟!

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

- لقد استمعْتُ بإمعانٍ إلى ما كان يقرأُه من كتابه الذي يسمّيه «الأفِستا»؛ كان يبدو كلامُه حقًّا وصدقًا، من دون أن يُداخلَهُ أيُّ شَكّ. تُرى أين هذا الكتابُ الآن؟

- لا بُدَّ أنَّه يحتوي بين طيّاتِهِ سرَّ هذا الرَّجل، فهل تُفصحُ إحدى صفحاتِه إن كان صادقًا أم كذبًا؟

- ولكن، ألا يمكنُ أن يكونَ فخًّا استدرجَهُ إليه أولئك الذين كان يُهدِّدُ ديارَهم ومناصبَهُم؟ ويكون كلُّ ما جرى هو من إفْكِهم وتدبيرهم؟ ألم ينكبّوا من بداية دعوته على إلصاقِ التُّهَمِ والشُّبُهات به كذِبًا وزورًا؟ مرّةً ادَّعوا أنّه شاعرٌ، وأخرى أنّه ساحرٌ، وثالثةً أنّه متسلِّقٌ متطلِّعٌ إلى الحُكْم. ولكنّهُ تخطّى كلَّ ذلك بحكمةٍ وحِنْكة، وأثبتَ صحّةَ منطقِهِ وصِدْقَ دعوتِه.

- ولكن، إن كان فخًّا حقًّا، وكان هو فعلًا رسولَ الإله الخالقِ الأوحدِ، كيف تركَهُ الإلهُ يقعُ ضحيَّةَ هذا التّدبير بتلك السهولة؟! لِمَ لَم يُنَبِّهه إلهُهُ لما يُحاكُ له، فيتصدّى له ويردعُه مُعلِيًا كلمةَ ربِّه؟! كيف لرسولٍ أن يتخلّى عنه ربُّه، ويُرمى في السجن مواجهًا الموت، لولا رحمتي به؟

لا أستطيعُ أن أستوعبَ هذا الكمَّ من الشكِّ واليأسِ والإحباط! يا إلهي خُذْ بيدي؛ أرسلْ لي علامةً من عندِك! أأنتَ وحدَك خالقُ الكونِ حقًّا وهذا

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

رسولُكَ، أم أنَّ ما ورِثناه وعهِدناه منذ الأزل هو الحقّ؟ أَرسلْ لي علامةً تهديني إلى صِراطِكَ المستقيم.

لا بُدَّ أنَّ الحلَّ في الأفِستا!

«هيستاسب»: يا حارس... أحضِر لي من فورِكَ كتابَ السَّجين الذي تركَهُ في غرفة الضيافة، ولا تُخبِر أحدًا بما أمرتُك. وإن لم تعدْ لي به، ستكونُ قد ضحَّيتَ بما بقي من عمرِك... الآن أيُّها الحارس، اِئتني به الآن.

لم تمضِ إلّا دقائق حتّى أتى الحارسُ بالكتاب، ووضعَهُ بين يديّ. انتزعني هذا الكتابُ من الحُكْمِ ومن القصر ومن الدُّنيا كلِّها. فبقيتُ أقرأُ فيه لأيّام، بلا كللٍ أو ملل. كان حلوَ البيان، صريحَ المعاني، لا يُخالطُهُ الباطلُ في أيٍّ من صفحاتِه.

ووسَطَ إمعاني في القراءةِ، دخلَ عليَّ أحدُ الحرّاسِ فزِعًا:

الحارس: مولاي، لا بُدَّ أن ترافقَني إلى الحظيرة الآن، هناك خطبٌ جللٌ يعتري جوادَك، وقد حاولَ معه كافّةُ السُّيّاس، واستدعَيْنا أمهرَ الأطبّاء، لكنّه لا يستجيب! انتظرَ السائسُ قدومَك صباحًا كالعادة، ولكنّك لم تأتِ، ولم نشأْ أن نعكِّرَ صفوكَ. ولكنّ حالَه ازدادَ سوءًا، فارتأينا أن نعلمَك.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

يا ربّي، ماذا يحلُّ بي؟! لقد كان حصاني مؤخّرًا على غير طبيعته، وقد تعهَّدْتُ العنايةَ به بنفسي، ولكنّي انشغلْتُ عنه بهذا الكتاب. تُرى ماذا أصابَه؟! لا أتحمَّلُ كلَّ هذا الألمِ يا ربّي! لقد طلبْتُ علامةً لا مصيبة!!

يا إلهي إن كانَ لك غضبٌ علينا فارفعه عنّا وارحمنا!

إلّا الحصان، إلّا الحصان!!!

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

(١٧) ميتيوماه

أرواحٌ مُكبَّلةٌ أسيرة

أرواحٌ حبيسةٌ بين أسوارٍ عالية، وجوهٌ ضائعةٌ كئيبة، عيونٌ حائرة، أصواتٌ مهزومة، ظلامٌ لا يشقُّهُ نورُ الشَّمس، صمتٌ لا تقطعُهُ كلماتُ الحُرَّاسِ والمساجين، حزنٌ لا تغلِبُهُ ضحَكاتٌ وابتساماتٌ فاترةٌ مُتباعدة، مستقبلٌ مقطوع، أملٌ ضائع، حياةٌ أقربُ إلى الموت وموتٌ يكادُ يلامس الحياة! أبوابٌ حديديَّةٌ مغلقةٌ خلفَ أبوابٍ حديديَّةٍ عليها جنازيرُ وأقفالٌ صدئة. نَفترشُ الأرضَ، ونلتحفُ سقفًا مهترئًا ضاقَ على سُكّانِه الأصليّين: «الفئران» بالطبع.

شبهُ حياة، هذا هو السِّجن، كبَيْتِ العنكبوت، على الرَّغم ممّا يحتويه من وَهَنٍ وخُبْثٍ يُسيطران بشدَّةٍ وإحكامٍ على ضحاياه. فنحن أسرى تلك الحُجُراتِ التي تشبهُ خيوطَ العنكبوت، عالقين فيها لا نستطيعُ الخروج. ويغرِسُ الاكتئابُ أنيابَهُ في أوردتِنا ليمتصَّ أرواحَنا؛ تمامًا كما يفعلُ العنكبوتُ بضحاياه، فيتركُهم أجسادًا فارغةً خاوية، كما يتركُنا في السِّجنِ الاكتئاب، ومعه الهمُّ واليأسُ والإحباطُ، أجسادًا خاويةً بلا أرواح.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

صدقَ من قالَ: إنَّ الوقتَ كالسَّيف. ولكنَّه في السِّجنِ سيفٌ بنصلٍ مثلوم، يقتلُ ببطءٍ شديد، مستنزِفًا قدرتَك على تحمُّلِ الألم، حتّى تموتَ في اليوم الواحدِ ألفَ مرَّةٍ، من عُمقِ الجراحِ والمعاناة، وتتمنّى لو كان سيفًا ذا نصلٍ ماضٍ بتّار، ليُجهزَ على آلامِكَ ومعاناتِك، قبل أن يُجهِزَ على حياتِك.

فالسِّجنُ حقًّا ظُلمٌ وظُلُماتٌ حالكةٌ، يتكاثفُ بعضُها فوقَ بعض. لم تكنْ فيه سوى بُقعةِ ضوءٍ واحدة، تحاولُ إرشادَ سُفُنِ الأرواحِ التّائهةِ في بحرِ الظُّلُمات، كالفنار. ومَن غيرُ المُحِبِّ «زرادوستار»، لم تتمكَّنْ كآبةُ السِّجن من هزيمتِه؟ فهو لم ينقطعْ قطُّ عن الدُّعاء والدَّعوة. تَزيَّنَ السِّجنُ بابتسامتِهِ الصّافية؛ خشعَتْ جُدرانُهُ منصتةً إلى صلواتِه؛ كان السَّندَ والملاذَ والملجأَ والحِصْنَ، لي ولكافَّةِ الأرواحِ الأسيرةِ بين جدران السِّجن.

ظننْتُ حينما تبِعْتُهُ أنّي سأكونُ عونًا له وسندًا، والرُّكنَ الرَّكينَ عند الحاجة. ولكن، عندَ أوّلِ اختبارٍ، وجدتُهُ هو مَن يُفيض عليَّ الدَّعم، فيَشُدَّ أزري، ويُداوي جراحَ روحي وقلبي. لم أكُنِ المريضَ الوحيدَ في مشفى «زرادوستار» للقلوبِ الجريحةِ التّائهة، بل أقبلَ السُّجناءُ كافّةً عليه، فكانوا يتجمّعونَ حولَه بِنَهَمٍ، كما يتجمَّعُ النَّحلُ على الزَّهرةِ الحُبلى بالرَّحيق، فترتوي أوصالُهم وأرواحُهم بطيبِ الحديث. لقد كانت جلساتُهُ خيرَ علاجٍ لتلكَ الأرواح.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

ذاعَ صيتُهُ بين أسوارِ السِّجن، وصارَتْ جلساتُهُ قِبلةً للمساجينِ طوالَ اليوم؛ فبعدما كنتُ أجلِسُ بين يديه أنا ونفرٌ من الرِّجالِ، أوَّل أيّامِ السِّجن، تضاعفَ الحضورُ، والتفَّ حولَهُ كلُّ الحاضرين، يُنصتون بخشوع لأحاديثه مشدوهين. في البداية نَمَت حوله حلقَةٌ صغيرة، ثمّ اتّسعت تدريجيًّا وتحوّلت إلى حلقات، كالشّمس تُشعُّ بالنُّور والدِّفء وتوزِّعهما على كلِّ المخلوقات. وصارَ كافّة المساجين يُلبّون الدَّعوة العامّة إلى حلقة «زرادوستار»، للخروجِ من ظُلُماتِ السِّجنِ إلى شمسِ حديثه وأفكارِه الوضّاءةِ الدّافئة! شعرْتُ في تلك اللحّظاتِ أنَّ السِّجنَ، بالرّغم من ضيق مساحته، قد يكونُ أرحبَ من الكونِ كلِّه؛ وقد يكونُ هو المكانُ الذي تلقى فيه دعوةُ ابنِ عمّي، الإيمانَ والتَّصديق؛ وشعرْتُ بقلوبِ هؤلاء السُّجناء تَميلُ، وعقولهم تتّجه لاتِّباعِ دينِ «زرادوستار» عمّا قريب.

اِنتبهَ الحُرّاس لما يحدث، وتناقلوه في ما بينهم، ثمّ رفعوه إلى رؤسائهم. وفي صبيحةِ أحدِ الأيّام، أتى لفيفٌ من الحرّاسِ مدجَّجينَ بالسِّلاح، منعًا لأيِّ اعتراضٍ مُحتمَلٍ من المساجين، واصطحبوا «زرادوستار» إلى غرفةٍ معزولةٍ عن باقي السُّجناء؛ فلم يكنْ هو من عُزِلَ، بل نحن، إذ استحالَتْ بابتعاده عنّا أيّامُ السِّجن -من جديد- إلى جحيمٍ دائم.

«حصانُ المَلِك... حصانُ المَلِك!»

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

هكذا انتشرَتِ الهَمْهَماتُ ما بين الحُرّاس، وتناقلَها السُّجناءُ سريعًا، مع الكثيرِ من التَّحريفِ والتّأويل. وحين وصلتني الأخبارُ من أحدِ السُّجناء، وعلمْتُ أنَّ حصانَ المَلِكِ اختفَتْ أطرافُه بل كلُّ أقدامِه، إذ ابتلعَها جسدُه ولم يعدْ يَظهر منها شيء، تعجَّبْتُ من هذا الحديث، ومِن حرْصِ الجميعِ على تناقُلِ أخبارِ مرضِ هذا الحصانِ بالذّات! فلا ريْبَ أنَّ المَلِكَ يمتلكُ غيرَه المئات من الأحصنة، فإن ماتَ واحدٌ منها أو مرِضَ، لديه ما يُسعدُهُ منها وما يَكفيه.

وسُرعانَ ما انجلى لي هذا السِّرُّ بعدَ القليل من البحث والتّنقيب. فعلمْتُ أنّ هذا الحصان تربُطُهُ بالمَلِك عَلاقةٌ خاصّةٌ منذ أن أهداهُ له أبوه، وهو يفَّضِلُه ويُوليه اهتمامًا خاصًّا، إذ يميّزه عن كلِّ الأحصنة التي يملكها. كما علمْتُ أنَّ هذا الحصان أُصيبَ بمرضٍ عُضالٍ استعصى تشخيصُهُ على كافّة البيطريّين والأطبّاء، وبالتالي عجزوا عن علاجِه.

هنا ارتسمَتْ في ذهني خارطةُ النَّجاةِ من جحيمِ هذا السِّجن، ووجدْتُ مفتاحَ أقفالٍ ظننْتُها تستعصي على الفتحِ إلى الأبد! فعكفْتُ أتصفَّحُ وُجوهَ وأحوالَ الحُرّاس، إلى أن وجدْتُ واحدًا بينهم يحافظُ على علاقةٍ جيِّدةٍ بالسُّجناء، ويُحسن إليهم. فتقرّبْتُ منه، وعلِمْتُ أنّه عَمِل في الماضي القريب

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

على حِراسةِ القصرِ لفترةٍ وجيزة، وكان يحظى بحبِّ الملك واحترامِه؛ وقد أثارَتْ تلك العلاقةُ حفيظةَ قائدِ الحرس، فأبعدَهُ وأرسلَهُ للعملِ في السِّجن.

لم يستغرقِ الأمرُ منّي الكثير، وأنا بأمورِ الحُكْمِ والحُرّاس خبير، بعدَ سنينَ من العمل عن قربٍ مع أمثالهم في قصرِ حاكمِ بلدتِنا. فاستملْتُ الحارسَ، ومهَّدْتُ له طريقَ العودة من جديد إلى القصر، بعدما فتنتُهُ بما ينتظرُهُ من نجاحٍ وأفراحٍ يومَ يرضى عنه الملِك؛ ثمّ ما الذي يُفرحُ الملكَ ويبهجُهُ أكثرُ من شفاءِ حصانِه؟ وعلى قدرِ تلك البليّةِ ستكونُ بالتّأكيد العَطيَّة.

فسألني: «وكيف لي أن أَشفيَ هذا الحصان، وأنا الحارسُ السجّان؟! »

فأخبرتُه عن «زرادوستار»، وما يَمتلكُهُ من مهارةٍ وبراعةٍ في الطِّبّ؛ وعن قُدرتِهِ الأكيدةِ على علاجِ الحصان؛ وكيفَ سيكونُ ذلك خيرَ وسيلةٍ تُزيحُ عن قلبِ المَلِك كافَّةَ الأحزان؛ وكيفَ سيضمنُ له هذا الشِّفاءُ المكانَ والمكانةَ في القصرِ من جديد. فإن دلَّ الحارسُ المَلِكَ على طبيبِ حصانِه، لا شكَّ في أنّه سيُغدِقُ عليه العطايا والهدايا.

كانَ هذا الرَّجلُ بالذّكاءِ الكافي ليحملَ كلامي وحديثي الذي أثَّرَ في نفسِه، على مَحْمَلِ الجَدِّ. وقد رأيتُهُ بعدها يذهبُ في اتِّجاه تلك الغرفةِ النائية، حيث يَعزِلون «زرادوستار». وأغلبُ الظَّنِّ أنَّه أرادَ أن يتبيَّنَ منه إن

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

كانَ حقًّا على درايةٍ بالطِّبِّ، وقادرًا على أن يحقِّقَ ما زعمْتُ من نجاحٍ في علاجِ ذلك الحصان.

في صبيحةِ اليومِ التالي، ونحنُ في ساعة التَّرييض، دخلَ الحارسُ إيّاه السِّجنَ، وسط لفيفٍ من حُرّاسِ القصر، بِزيِّهِم المميَّزِ المعهود، واتّجهوا مباشرةً إلى غرفةِ العزلِ حيثُ حُجِزَ «زرادوستار». رأيتُهم يتحاورون معه، ودامَ الحوارُ لدقائقَ، ما إن انقضَتْ حتّى رأيتُهم، ومعهم «زرادوستار»، يتّجهون نحوي. وفَوْرَ اقترابِه منّي، وجدْتُ البسمةَ تعلو شفتيه مُظهرةً وجهَهُ المنير، وقال لي:

«زرادوستار»: أَلَمْ أقُلْ لك يا رفيقي أنَّ ربّي لم يكنْ ليضيِّعَني؟ سيُخرجُني ويُظهرُني ويَنْصُرُني بفضله. هيّا يا صديقي، سنعودُ إلى القصرِ من جديد، وهذه المرّة نحن من يضعُ الشّروط، ونحنُ من يقود، ولنا الغلبةُ بإذنِ خالقِ الوجود.

اِنفرجَتْ أساريري حين اقتربَ الفَرَج، وفرِحْتُ لفرحِه، وملأَ الإيمانُ قلبي حين لمحْتُ في عينيْهِ اليَقينَ بالنَّصْر. فُتحَتْ أمامَنا بوّابةُ السِّجْن، وفُكَّ أسرُنا! وانطلقْنا في موكبِ الحُرّاس نحوَ القصر.

لم يكنْ دخولُ القصرِ هذه المرّة مِثْلَ دخولِه أوّلَ مرّة. فقد كانتِ الوجوهُ مختلفةً في حضرةِ الملِك، ليسَ في الأشكال، وإنّما في الأحوال. لقد

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

كان المِلكُ كئيبًا يائسًا، تنِمُّ ملامحُ وجهِهِ عن المرضِ والحزن؛ وكأنّما كانتِ العلَّةُ فيه وليست في حصانه! وكانتِ الحاشيةُ المتحفِّزةُ في ما مضى، كسيرةً حائرة! ترتسمُ على وجوهِهم تساؤلاتٌ، كمن يبحثُ عن حلولٍ ولا يلقاها.

الآنَ سيظهرُ الحقُّ فوقَ كيدِ الماكرين. سنستردُّ كرامتَنا، ونقتصُّ مِنَ الظَّلَمَةِ الغادرين. سيخُرُّ أهلُ الباطلِ تحت أقدامِنا خاضعين، ليسطَعَ نورُ الحقِّ، ويعلوَ صوتُ الدّين. فيعلمَ الجميعُ -والملكُ أوَّلُهم- مَنِ القاتلُ الخائن، ومَنِ المَظلومُ الصّادقُ الأمين.

حين أصبحْنا بين يدَيْ المَلِك، لم ينتظرْ «زرادوستار» أن يفتحَ أحدُهُم بابًا للحديث، بل دخلَ مباشرةً في صُلْبِ الموضوع.

«زرادوستار»: يا صاحبَ المُلكِ والرّحمة، آلمني ما سمعته حول ما أصاب حصانك من مرض، كما يحزُّ في قلبي أن أراكَ اليومَ على هذه الحال. ولتعلمْ أنّي لم آتِ إلى هذا القصرِ لتحقيقِ مكسبٍ أو طمعًا في نَصْر، أو ابتغاءَ نيلِ منحةٍ أو عطيّة، أو حتى سعيًا لتحرّي عدالةٍ مفقودةٍ مقابلَ ما طلبتُم من علاجٍ للحصان؛ لأنَّ العدالةَ وإن ضاعَتْ عند ملوكِ الأرض أو حُجِبَت، فهي حاضرةٌ جليّة، لا تغيبُ ولا تضيعُ ولا تحيدُ في السّماء عند ملِكِ الملوك.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

يومًا ما سيَرُدُّ -سبحانَه- المظالِم؛ يَجْبُرُ المظلومَ ويكسِرُ الظّالِم؛ يقيمُ الميزانَ القسطَ ولا يُخسِّرْهُ بمقدارِ ذرّة. فأمّا في ما يخصُّ شخصي وابن عمّي من هديّةٍ أو منحةٍ أو حتّى عدلٍ، فنحن فيه من الزّاهدين؛ وأمّا عن المَظْلِمةِ، فنحن عنها متجاوزين. وكيف لنا أن نسألَ المخلوقَ وقد سبقَ وسألْنا الخالق؟!

ولتعلمْ أيُّها المِلكُ الكريم، أنّه كما يؤولُ العدْلُ إلى ملِكِ الملوك، كذلكَ الشِّفاءُ، هو بيدِ الخالقِ البارئ وحدَه. فهو من صوَّرَ الإنسانَ والحيوانَ، فأبدعَ. عالمُ العِلَّةِ، وخالقُ العلاج، ومانحُ الشِّفاء، وحدَه سبحانَهُ. وما يجري بين أيدينا مِن عِلمٍ ومعرفة، ومُلكٍ وعدلٍ، إنّما هو قَطرةٌ من بحرِ علمِهِ وفيضِ عطائِه؛ يُفيضُ علينا به لنكونَ بعضَ أسبابِ شفاءِ الأبدانِ والأرواح.

فإن كُتِبَ لحصانِكَ الشِّفاء، فإنّما هي رحمةٌ ومِنحةٌ منَ الشّافي، قد أجراها على يدي ليُخرجَكَ من ضيقِك ومِحنتِك. وحريٌّ بك، وأنتَ المِلكُ الحكيم، أن ترُدَّ الفضلَ لأهلِه، وأن تشكُرَ المُنعِمَ والمانِح. وسبحانَهُ غنيٌّ قدير، لن تُغنيَهُ بشُكرِكَ، ولن تقدِّرَهُ حقَّ قدرِهِ بمُلكِكَ. فما أطلبُه منك -إن تمَّ شفاءُ حصانِكَ على يدي، وما هذا بعسيرٍ على العليِّ القدير- هو أن تفتحَ قلبَكَ وعقلَكَ -من جديد-

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

لكلماتِه ورسالتِه، لعلَّكَ تهتدي للوسيلةِ والفضيلةِ التي تشكرُ بها المولى على أَنعُمِهِ الجليلة.

أتمَّ «زرادوستار» حديثَهُ في ثقةٍ وهدوء؛ وامتقعَتْ وجوهُ أفرادِ الحاشية، وازدادَتْ وجومًا. فيما ضربَ مزيجٌ منَ الأملِ والحيرةِ حالَ الملِكِ «هيستاسب»، وكأنّه كان يتحفَّزُ للكلامِ ردًّا على «زرادوستار». لكنَّ الأخيرَ لم يمهِلْهُ ليفكِّرَ أو ليُدبِّر، بل مضى بعِزَّةٍ وشموخٍ في طريقِه، طاويًا ساحاتِ القصر، متَّجِهًا بمساعدة الحرس، صوبَ الجوادِ المريض. وما إن دلُّوهُ على مكان الحصان، حتّى طلبَ منهم أن يُفسحوا له المجال لفحصِه. وفوجئت بالملِكِ يأتي خلفنا مهرولًا، ليرى ما يحدث! فوقفَ من بعيدٍ يتابعُ «زرادوستار» وهو يُقلِّبُ حصانَهُ يمينًا ويسارًا. والعجيبُ أنّي رأيْتُ الحصانَ طائعًا له، خاضعًا مستكينًا! وما انقطعَتْ شفتا «زرادوستار» طوالَ الوقتِ عن ترديدِ الأدعيةِ والصّلوات، مُناجيًا ربَّهُ بصوتٍ مسموع، طالبًا منه أن يَهديَه إلى كشفِ الدّاء ومعرفةِ الدّواء.

انتصفَ النّهار، وتوسَّطَتِ الشّمسُ السّماء، وكنّا قد دخلْنا القصرَ ضحًى، و«زرادوستار» على حالِهِ مع الحصان، والملكُ «هيستاسب» واقفٌ عند قدميه يتابعُ بترقُّبٍ ما يحدُث! حتّى خرجَ علينا «زرادوستار» طالبًا بعضَ

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

الأدواتِ والأعشاب؛ بل طلبَ العونَ والمددَ للذّهاب إلى بعض الوديان بنفسه للبحث عن بعضِ الأعشاب. لم يتحدَّثْ كثيرًا، ولم يفتحْ مجالًا للحوار مع المَلك أو غيره. اكتفى بما طَلَبَ فقط، وبالدُّعاء. فُتحت لنا استراحةُ القصرِ من جديد، لنسكنَ فيها بعدَ السَّجنِ والحديد. وخلال يومين، انتهَتْ رحلاتُ «زرادوستار» الاستكشافيّة، وكانَ له ما أرادَ من موادَّ وأعشابٍ علاجيَّة.

وبدأَتْ رحلةُ العِلاج، وتفشَّتْ عدوى الترقُّبِ من المَلِكِ إلى باقي سكّانِ القصر، وصحِبَها كثيرٌ من التحفُّزِ من حاشيةِ المُنافقين الأفّاقين. فمرَّتِ الأيّامُ الأولى ثقيلةً، من دون تحسُّنٍ ملحوظٍ على حالةِ الحصان. والحقيقةُ هي أنّي لم أكنْ أعلمُ -ولا غيري يعلم- ما هي حالةُ الحصان. فقد آثرَ «زرادوستار» الصَّمتَ والكِتمان، ولم يتحدَّثْ عن طبيعةِ المرضِ أو طريقةِ العلاج، أو حتّى متى يحينُ أو يُتوقَّعُ أن يستجيبَ الحصانُ لعلاجِه هذا. ولكنَّه كان شديدَ الثِّقةِ والإيمانِ والعزم، فلم يجرؤْ أحدٌ أن يناقشَهُ في ما يعملُ، أو يجبرَهُ أن يفصِحَ عمّا يُضمرُه، حتّى أمامَ المَلِك!

ولا أُذيعُ سرًّا إذا قلت، إنّي كنْتُ أختنقُ خوفًا وقلقًا وشكًّا. فمهما كانتِ الثِّقةُ والعلمُ، فاحتمالاتُ الفشلِ واردةٌ وبشدّة. من هُنا وُلِدَ الخوف، ومنَ الرَّحِمِ ذاتِها وُلِدَ القلقُ على مصيري ومصيرِ ابنِ عمى، إن فشِلَ في مَهمَّتِه. أمّا الشَّكُّ والتشكيك، فكثرَتْ آباؤه؛ كان جميعُهم مجتمعين حول الملكِ

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

طوال الوقت، يَبُخّون سمومَهم في أُذنَيْه. وكان القلقُ والشَّكُّ يتملّكاني حدَّ القتل، في ما يتربَّصون بـ«زرادوستار»، ويَكيدون له. كنتُ وما زلْتُ أشكُّ في نواياهُم، وأتوقَّعُ غدرَهم. فقد تحالفَ الشَّكُّ والخوفُ والقلقُ على روحي المنهَكَة، وجسدي المجهَد، وراحوا يطاردون فلولَ النّوم، حتّى هربَتْ جميعُها، وجافى عينيَّ النُّعاس؛ وأجهزوا على عقلي بالتَّفكيرِ الدّائم، والأرق، والصُّداع القاتل؛ وشدّوا نسيجَ قلبي كما الطّبول، فتعالَتْ وتسارعَتْ ضرباتُه. كنتُ في هذه الأيّام حطامَ إنسانٍ تتقاذفُهُ أمواجُ بحرِ الخوف!

ولم يكنْ لينتشلَ ذلك الحُطام من ظُلُماتِ هذا اليمِّ اللُّجَيّ، سوى دعواتِ «زرادوستار» وبسماتِه، وثقتِه وإيمانِه. هو فقط، بهدوئِه وثباتِه وكلامِهِ اللَّيِّن، مَنْ كان يُبقي الشَّعرةَ متَّصلةً ما بين روحي التّائهة وجسدي المُنهَك.

مرَّتْ بضعةُ أيّام، قضيناها في استراحةِ القصر، و«زرادوستار» يُمضي معظمَ نهاراته مع الحصان، ولياليه في القراءة. وفي صبيحةِ أحدِ الأيّام، استيقظْتُ مفزوعًا على جلبةٍ وصخَبٍ في ساحةِ القصرِ القريبةِ من غرفتِنا. التفتُّ حولي فلم أجدْ «زرادوستار»! فشعرْتُ كأنَّ سكّينا قد غُرِسَ في قلبي من شدّةِ القلق. فقد استرجعْتُ أحداثَ ذاك اليومِ المشؤوم الذي بدأَ بجلبةٍ وانتهى بنا في السِّجن. خفْتُ أن أبرحَ مكاني، ورحْتُ أتلصَّصُ وأسترقُ السَّمعَ لعلّي أتبيَّنُ ما يحدثُ في الخارج. وحين لم تلتقطْ أذنايَ

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

من الخارج أيَّ كلامٍ واضحٍ مفهومٍ، استجمعْتُ ما لديَّ من جرأة، وسلَّمْتُ أمري إلى الخالق، وخرجْتُ لأرى ما هناك.

في اللّحظة ذاتِها التي وصلْتُ فيها إلى ساحة القصر، وصلَ الملكُ الذي خرجَ من جناحه ليستكشفَ الأمر؛ فإذا بنا نجدُ بعضَ الحرّاس وبعضَ عمّال الإسطبل يهلِّلون مهنّئين الملك! فالحصانُ عادَ للحركة والوقوف على أرجله من جديد، بعد أسابيعَ من الخمول التامّ! وكان هذا أكبرَ تحسُّنٍ وتطوُّرٍ في حالته منذ أسابيع. هرولَ الملِكُ وخلفَهُ جميعُ مَن في القصرِ إلى حيثُ الحصان، فإذا بـ«زرادوستار» يقفُ بجواره وقد ظهرَت عليه جليَّةً علاماتُ التّحَسُّن، إذ استجابَ للعلاج وبدأ بالحركة والوقوف.

انفرجَتْ أساريرُ المَلِك، وهرولَ من جديد ناحيةَ «زرادوستار» واحتضنه، هامسًا بضعَ كلماتٍ في أذنه. ثمَّ اتّجه نحو حصانه يُلاعبُهُ ويلاطفُهُ ويحدِّثُه. بدَتْ علاماتُ الفرح والسُّرور جليَّةً على وجه الملك، ووجوه الحرّاس والعمّال. إلّا أنَّ مَن حضرَ من الحاشيةِ المشؤومة لم يَظهرْ على وجوهِهِم سوى الحيرةِ والكرَب! لقد استحالَتْ حياتُهم مكابدةً بعدَ خروجِنا من السجن وعودتِنا إلى القصر. وما زلْتُ على يقين من أنَّ جعبتَهم لم تفرَغ، ولا بُدَّ أن نحتاطَ هذه المرّة لما يدبِّرون من مَكْر.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

في الأيّام التالية، كان الحصانُ يتخطّى حواجزَ المرضِ بسرعةٍ وسهولة. ولم تكنْ جهودُ «زرادوستار» لتَخفى على أهلِ القصر. كان الملكُ يتابعُ بشغفٍ وفرحٍ هذا التطوُّر، فيقضي الكثيرَ من وقتِه بصحبةِ «زرادوستار» والحصان، ما أنساني أيّامَ السِّجن وعذاباتِه.

اِقتربَ اليومُ الموعود، الذي يقفُ فيه الملكُ أمامَ الحقيقةِ السّاطعة، ليدركَ بما منَّ عليه ربُّهُ من شفاءِ حصانِه واستعادتِه له بعد أن كان على شفير الموت. أيّامٌ قليلةٌ ويقفُ «زرادوستار» وبين يديه «الأفِستا»، أمام الملكِ «هيستاسب»، ليدعوَهُ من جديد إلى دين التّوحيد؛ وهذه المرة لن يحيدَ الملكُ عن الحقّ.

اليومَ عادَ الملكُ من جديد إلى مكانه المفضَّل -كما يقول- فوقَ صهوةِ جوادِه، فتمشّى به في حديقةِ القصر. لم تغادرِ البسمةُ مُحَيّاه. بدَتْ ملامحُهُ وكأنَّهُ يُحلِّقُ في السّماء لا يمتطي جوادًا يسيرُ على الأرض! ثمّ أعاده إلى الاسطبل، فاطمأنّ عليه «زرادوستار»، وأمر له ببعض الأعشاب كما يفعل كلَّ يوم. ثمّ عُدْنا ثلاثتُنا إلى ساحةِ القصر، حيثُ حُضِّرَت في وسطِها شعلةُ نارٍ كبرى، تمثِّلُ النّارَ المقدَّسةَ التي لا تنطفيء، والتي هي امتدادٌ لنار المعبد الكبيرِ في قريتنا، والمعبدِ الآخرِ هنا في «باختيريا»، الذي يسكنُهُ كبارُ الكهنةِ ورجالِ الدين.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

دخَلْنا من بوّابةِ القصرِ الكبيرة التي تفصِلُ بين الساحةِ والحديقة، وفي الوسط تمامًا، إلى جوارِ شعلةِ النّارِ المقدّسة، وجدْنا حلَقَةً من الحرّاسِ والجواري وبعضِ رجالِ الحاشية، يلتفّون حولَ شيءٍ ما. وعندما اقتربْنا رأيْنا الفزعَ والهلعَ على وجوههم، وهم ينظرون إلى امرأة ملقاةٍ على الأرض، لم نستوضحْ لأوّلِ وَهْلة من تكون أو ما بها.

ركضْنا جميعًا باتّجاهها، وأوّلُنا «زرادوستار». ما إن دخلنا حدودَ تلك الحلقة، حتى بدَرَت عن تلك المرأةِ حركاتٌ عنفية، ثمّ راحَتْ تُصدرُ أصواتًا كالخُوار. حاولَ «زرادوستار» الاقترابَ أكثر ولكنَّ الحرّاس منعوه!

لم أُدرك في البداية ما أصاب تلك المرأة. كان جسدها يهتزّ بشدة، بحيث يَصعبُ على أعتى الرِّجال السيطرةُ عليها. وما إن أدارَتْ وجهها نحونا، حتّى رأيْتُ عينيها وقد ابيضَّ لونُهما، فيما غمرَ أسفلَ وجهِها سائلٌ مُخاطيٌّ مزبِدٌ خرجَ من فمها، وعلَت مُحيّاها علاماتُ التشنُّجِ الشَّديد! لم يمنعْني منظرُها هذا من أن أتعرَّفَ على ملامحِها وأميِّزَها، فهي المرأة التي اتَّهمَت «زرادوستار» بالقتل، زورًا وبهتانًا!

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

لا أدري في تلك اللّحظة لِمَ شعرْتُ -ولو لثوانٍ معدودة- بشيءٍ من السّعادة والشّماتة! نعم، فقد رأيتُها تَلقى المصيرَ الذي تستحقُّه، طريحةً تُعاني سكراتِ الموت من دونِ حولٍ لها ولا قوّة، لا يُقدمُ أو يجرؤُ أحدٌ على مساعدتها! لقد ألقَتْ علينا التُّهمَ الكاذبة، ورمَتْنا في ظُلُمات السِّجن جورًا وبهتانًا، من دونِ أن نَظفرَ بغوثٍ أو نُصرَةِ مخلوق؛ وها هي الآن تلقى جزاء كذبِها، وتُرمى في ظُلُمات الجحيم.

لم تأخذْ منّي تلك السَّكرةُ إلّا لحظات. فقد أخذَتْ ترتجفُ بشدّة، بل تنتفض، وتعالى صوتُ خُوارِها، فتجمَّعَ حولَنا كلُّ سكّانِ القصرِ تقريبًا. وما لبِثْنا أن رأيناها ترتفعُ عن الإرض تمامًا، فلا تلمُسُها بجسدها على الإطلاق! ثمّ أخذت في الارتفاع، وثبَتَت فوقَ الأرض على علوٍّ يقاربُ المترَ الواحد. فجأةً هدأ جسدُها تمامًا، وتوقَّفَ عن الانتفاض. ثمّ استدارَتْ واستقامَت كما لو أنّها تقفُ على الهواء، وعيناها ما تزالان بيضاوَيْن، وبَشرَتُها داكنةً سوداء، وملامحُ وجهِها شيطانيَّةً مُخيفة!

انتابَ الهلعُ جُلَّ مَن حولي، ففرَّ بعضُهم هربًا إلى داخلِ القصر، يترقّبُ من خلفِ حجاب، فيما استمرَّ البعضُ الآخرُ بالمراقبة على مسافةٍ بعيدة، وكنتُ من هذا الفريق. فجأةً، بدأَت تلك الجارية بالكلام بصوتٍ أجشّ

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

عالٍ عميق، كأنَّه يخرجُ من بطن رجلٍ ضخمٍ لم يسبقْ له الكلامُ من قبل، وبكلامٍ غير مفهومٍ كأنّه طلاسِمُ أو لغةٌ لا عهدَ بمنطقتنا بها! ووسط كلماتٍ كثيرةٍ لم أميّزْها، ميّزْتُ اسمَ «زرادوستار» أكثرَ من مرّة! وعند كلِّ مرّة كان صوتُها يزدادُ حدّة، ويزدادُ وجهُها تشنُّجًا.

وفجأةً، توقّفَتْ عن الكلام، وتحرّكَت بضعَ خَطَواتٍ في الهواءِ في اتّجاه شعلة النار، وإذا بها تمدُّ يدَها العاريةَ إلى داخل النار، وتُخرجُها ثانية، وفيها صُرَّةٌ عجيبةٌ لا نعلمُ كيف استعصى على النّارِ التهامُها، حتّى أنّ النارَ لمّا تطَلْ يدَ المرأة بأيِّ أذًى! واستدارت في اتّجاه «زرادوستار» والمَلِك، وأنا أقفُ خلفَهما، ثمّ صاحت بكلامٍ مفهوم هذه المرّة، ولكن بالصّوت نفسه والحدّةِ ذاتها.

الجارية: هذا القاتلُ الخائنُ السّاحر، سحرَ الحصانَ وأصابه بالمرض، ثمّ أتى ليُبطلَ ما فعلَه من سحرٍ بتَمْتَمَتِه وترانيمِه وتعاويذِهِ الغريبة التي لا تفارقُ لسانَه. وسحرني لينتقمَ منّي إذ فضحْتُ قتلَهُ صديقتي. ولن يتوقّفَ حتّى يسحرَ المِلِكَ ويسحرَكم جميعًا. لتحلَّ عليكم لعنةُ الآلهةِ أجمعين.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

ثمّ سقطَتْ على الأرض مغشيًّا عليها، أو ميتة. وهذا ما أتمنّاه لتلك الكاذبة السّاقطة.

سادَ الوجومُ وخيَّمَ الصَّمتُ والسُّكون على الجميع. وقبلَ أن يتحرَّكَ أحدٌ من مكانه أو ينطِقَ بكلمة، كانت أسوأُ الكوابيسُ تتصارعُ في عقلي بلا توقُّفٍ، وتنهشُ قلبي وجوارحي. إنّها النهايةُ بلا شكّ! وصاحَ صوتٌ داخليٌّ مُدَوِّيًا في جميع خلايا جسدي، هاتفًا بالدُّعاء فقط!

يا إلهي فلتلطفْ بعبادِكَ وترعاهم! النَّصرُ منك وإليك، والحولُ حولُكَ وبيديك!

إنّها النهايةُ بلا شكّ!

النهاية بلا شكّ!

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

(١٨) ماندانه

كانت البداية فقط

ولن أنتهي حتّى أجني ما أستحقّ: المالَ والحرّيّة، والبيت، بل القصر. حقوقٌ مشروعةٌ لامرأةٍ مثلي تريدُ أن تقتصَّ من الحياة على ما نالته منها. فكم كانت الحياة قاسيةً عندما سلبَتْني كلَّ شيء! وحينما أُتيحت لي الفُرصةُ لأستردَّ بعضًا ممّا سُلِبَ منّي، تَحيدُ من جديد عن الدّرب المأمول، وتتَّخذُ مَنْحًى جديدًا لا يحملُ سوى المزيدِ من العذابات والآلام، والمزيدِ من السَّلب!

فما إن دَنَتْ وتجمّلَت وهبَّ نسيمُ الحرِّيّة والمال، حتّى أطاحَ هذا المَلِكُ اللّعينُ بضعفه وتردُّدِهِ بكلِّ الأحلام، وأحالها بغبائِه إلى أوهام! لا أدري لِمَ لمْ يقتُلْ هذا الغريبَ المدعوَّ «زرادوستار»، من فورِه، واكتفى بسَجْنِه؟! وحين حادَتِ النتائجُ من جديد عن الدّرب المرسوم، نكثَ رئيسُ الحرَسِ بالعهد المزعوم، ولم يعدْ هناك صكُّ حُرِّيَّةٍ أو عِتْقٍ، أو مالٌ أو حتّى هرب. وهكذا صارَتْ حرّيّتي وآمالي وكلُّ العهودِ رهينةَ دمِ هذا الغريب الملعون!

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

في البدايةِ ظننْتُ أنّ الأحلامَ قد تأجَّلَت قليلا، وحتمًا في نهاية المطاف سيَقطعُ الملكُ رأسَ ذلك الرجل، الذي نصبْنا له الفخَّ بعناية، بحيث يقودُه إلى المقصلة، حين تثبُتُ عليه تُهَمُ القتلِ والخيانة. وتخيَّلْتُ أنَّ غيماتِ العمرِ الكئيبةَ قد رحلَت بلا عودة.

ولم تمضِ سوى أيّامٍ حتّى لاحت في الأُفُقِ غيمةٌ مُظلمةٌ ثقيلة، توحي بمطرٍ سَموم يُجهضُ ما تبقّى لديَّ من أحلام! فمرِضَ حصانُ المَلِكِ، واستعصى على أطبّاءِ المملكةِ جميعِهم علاجُه. فما كان منهم إلّا أن أخرجوا هذا الغريبَ من سجنه، ليدلوَ بدلوه، ذلك أنَّ أحدَ الحرّاسِ القدامى أنبأَ المَلِكَ بما له من باعٍ في الطِّبِّ والعلاج.

أخبرَني رئيسُ الحرسِ عن تلك الخِطبةِ العصماء التي ألقاها الزّائرُ الغريبُ على مسامع الملك، وسْط حاشيتِه وحُرّاسه، قبل أن يُباشرَ رحلةَ العلاج. انتظرْنا أن يفشلَ كما فشِلَ مَن قبلَه، آملين أن يُعجِّلَ ذلك في قتله؛ ولكِنَّنا فوجئنا بعد أيّام قليلة على بداية العلاج، باستجابةِ الحصان له، وسيرِه بثبات على طريق التّعافي. بذلك زادَتْ خطورةُ ذلك الغريبِ على رئيس الحرسِ وشُركائِهِ وأعوانِهِ من الكهنةِ وأهلِ المال، كما على حياتي بالطبع؛ فحياتُه موتٌ لي، ونجاتُهُ ما هي إلّا حكمُ إعدامي الواجبُ النّفاذ! فإذا نجا وكسَبَ ثقةَ المِلك من جديد، سينكشف للملك ما دبّرناه من مكرٍ

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

وقَتْل. الآن لم تعُدْ أحلامي وحدَها رهينةَ دمِه، بل حياتي ودمي، وحياةُ ودماءُ رئيسِ الحَرَس وكلِّ من عاونَنا في تنفيذ الجريمة.

أصبحَ رأسُهُ مطلبًا عامًّا لحاشية الملِك؛ واستعصَتْ عليهم رقبتُه لالتصاقِ الملِكِ به معظمَ الوقت، والتصاقِه بحصان الملك طوالَ الوقت. فكان المكرُ والتَّدبيرُ -مجدّدًا- هما السَّبيلُ الوحيدُ لرأسِ ذلك الغريبِ الحقير. شعرْتُ أنّ أفرادَ حاشيةِ الملك يدبِّرون له شيئًا. ولم تفلحْ محاولاتي في استدراجِ رئيسِ الحَرَس ليُفصحَ لي عن مخطّطاتهم. فقد أبى أن يصارحَني بما يدورُ سِرًّا في غُرَف القصر المُغلَقة. إلى أن دعاني يومًا، في وقت الظهيرة، إلى إحدى تلك الغرف.

ساقَني أمامَه، فعرَّجْتُ قبلَه إلى داخلِ غرفةٍ مُستديرة، تَكادُ تكونُ مظلمةً بالكامل -كلَيْلَةٍ مُدلهمّةٍ لا ضوءَ قمرٍ ينيرُها ولا نجومَ تُرصِّعُ سماءَها- لولا شمعة يتيمة يحملُها حارسٌ ضخمُ الجثّةِ يتوسَّطُ أربعةَ حُرّاسٍ آخرين. ومن خلال نورِ الشّمعةِ الخافِت، رأيْتُ في وسطِ الغرفةِ طاولةً غريبةَ الشَّكل، لمحْتُ عليها كتاباتٍ وأشكالًا هندسيَّةً كأنَّها طلاسِم، لم أستطعْ تمييزَها.

أَجَلْتُ نظري داخلَ الغرفة، فوجدْتُ لفيفًا من كبارِ الحاشيةِ والكهنة. لم يكونوا كهنةً عاديِّين، بل كانوا من أولئكَ الذين يُلقَّبون بـ«الماجو»، وهم

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

أشدُّ الكهنة علمًا، وأشرُّهم سحرًا، وأكثرُهم غموضًا. عرفتهم من ملابسِهم المميَّزَة، فقد رأيتُهم في أروقةِ القصر مرّاتٍ معدودة. وكان رئيسُ الحرس نفسُه هو مَن أخبرَني عن قصصِهم المُرعِبة، وأحوالِهم الغامضة.

في تلك اللَّحظةِ، حين أغلقَ رئيسُ الحرَسِ البابَ خلفَه، علمْتُ أنَّ هذا الباب لن يُفتحَ على الحياةِ نفسِها التي تركتُها قبلَ دخولِه. في تلك اللّحظة عشِقْتُ حياةَ العبوديَّةِ والرِّقّ، وتمنَّيْتُ العودةَ لها من جديد، ولو لساعة واحدة! تمنَّيْتُ أن تُبْعَثَ زوجةُ أبي إلى الحياة من جديد، برغمِ ظُلمِها وكُرهي الشَّديدِ لها؛ وأن أرتميَ في أحضانِ تلك العاهرة ولو للحظة! شعرْتُ أنَّ الهواءَ يتسرَّبُ من الغرفة، وأنّي سأموتُ هنا مختنقةً، لا محالة! لا تسأمُ الحياةُ من كيْلِ اللّكماتِ واللّطماتِ لروحي، الواحدة تلو الأخرى، بل تضاعفُها وتَزيدُ من أذاها!

بدون أيِّ مقدِّمات، طلبَ منّي أحدُ الـ«ماجو» التجرُّدَ من ملابسي بالكامل، والاستلقاء على الطاولة. فانصعْتُ لأوامرِهِ خاضعةً من دون مقاومةٍ تُذكر، أو حتّى إشارة، لأنَّ العُصيانَ في تلك اللّحظةِ لن يزيدَ ما تبقّى من الحياةِ إلّا تعاسةً وشقاءً وألمًا. اعتلَيْتُ الطّاولة بعدما تعرَّيْت، كما طلبَ الـ«ماجو»، وحين لامسَها جسدي شعرتُ أنّها مبلَّلَة؛ وحين استقرَّ رأسي بمحاذاةِ جسدي على الطاولة شممْتُ رائحةً نفّاذة ومميَّزة.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

لم يستغرقْ عقلي الكثيرَ من الوقت لأميِّزَ رائحة الدّم! نعم، كانت تلكَ الأشكالُ والكلماتُ المرسومةُ على الطاولة مرسومةً بالدَّمِ الدافئ!

وفجأة أطفأُوا نورَ الشَّمعةِ اليتيمة، فغرِقَتِ الغُرفَةُ في قاعِ بئرٍ مظلمٍ، لا قرارَ له. وسمعْتُ أصواتَ الـ«ماجو» تتعالى من حولي بتراتيلَ غريبةٍ غيرِ مفهومة! وأخذَتْ حدَّةُ الصَّوْت بالازديادِ والتَّسارُع، لتتسارعَ معها ضرباتُ قلبي، كما في سباقِ خيلٍ لا نهايةَ له، وما من رابحٍ فيه! وشعرْتُ بشيءٍ مبلَّلٍ رفيعٍ يَنتهكُ جسدي، أدركْتُ في ما بعد أنَّ هذا الشيء هو طرفُ الرّيشةِ أو القلمِ المغموسِ في الدّم!

وراحوا يرسمون ويكتبون على كلِّ جزءٍ من جسدي بالدّم، الذي ميَّزْتُ رائحتَهُ من جديد حين شرعوا بالرّسمِ على وجهي. لا بُدَّ أنَّهم يرسمونَ على جسدي طلاسمَ كتلكَ التي رأيتُها على المِنضدة عند دخولي الغرفة.

انتابَ أطرافي للحظاتٍ خِدرٌ غريب، تبِعَهُ وخزٌ خفيفٌ في الأطرافِ وفي الدِّماغ، سرعان ما تحوَّلَ إلى ألمٍ رهيبٍ يغزو جسدي كلَّهُ بلا رحمة! فتحْتُ فمي لأصرخ، ولكنَّ لساني لم يتحرَّكْ، فقد كانَ مكبَّلًا تمامًا، كأنَّ حبالي الصَّوتيَّة قد تمزَّقَت! فلم يخرجْ منّي إلّا صوتُ خوار! وفجأةً اختفى الألمُ، والإحساسُ، وكلُّ شيء! فقد تلاشى الوجودُ كلُّهُ من حولي، وتلاشيْتُ معه، وغرقْتُ في بحرِ العدم!

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

حين فتحْتُ عينيَّ، اجتاحَ الألمُ جسدي من جديد. هذه المرّة لم تصطدمْ عيناياَ بأسوارِ الظّلام في الغرفة الدائريّة، بل وجدتُني ملقاةً على الأرضِ في ساحةِ القصر، بجانبِ شعلةِ النّار الكبيرة، وفي يدي صُرَّةٌ غريبةٌ لا أعلمُ من أين أتَت، ومَن وضعَها في يدي! والتفَّ حولي عددٌ كبيرٌ من سكّانِ القصر، يتقدَّمُهم الملكُ والغريبُ اللَّعينُ وقريبُه. لم أستوعِبْ ما حَدَث، وكيف انتقلْتُ من تلك الغرفةِ إلى ساحة القصر، وكيف غِبْتُ عن الوعي، وكيف عدْتُ، وما حدث بينهما، وما مرَّ من وقتٍ في تلك الأثناء!

تحاملْتُ على الألم، وأَجَلْتُ عينيَّ في وجوه المحيطين بي، فوجدْتُ الفزعَ والخوفَ والوجومَ تكسو ملامحَهم جميعًا، إلّا «زرادوستار»! عندما تلاقَتْ أعيُنُنا، وجدتُه هادئًا مبتسمًا منيرَ الوجه! تعجَّبْتُ، ولم أستطعْ أن أُزيحَ عينيَّ عنه! لم يُقدِمْ أحدٌ على الإطلاق، من كلِّ الحضور، منَ الاقترابِ منّي أو نجدتي. وفجأةً وجدْتُ «زرادوستار» يتحرَّكُ صوبي، فأدركْتُ أنَّهُ قادمٌ ليفصلَ رأسي عن جسدي، لا محالة! وَدَدْتُ أن أركضَ وأهرب، ولكنَّ جسدي أعلنَ التمرُّدَ على عقلي، والتصقَ بالأرضِ بدونِ حِراك!

مع تَقَدُّمِهِ نحوي بخَطواتٍ هادئةٍ ثابتة، انطلقَ صوتٌ من أحدِ أطرافِ السّاحةِ بصراخٍ شديد: «فلتقتلوا السَّاحرَ الفاجرَ قبل أن يظفرَ بها ويقتلَها، فهي دليلُ إدانته، ومِن بعدِها يُهلكُنا أجمعين بسحرِهِ وكُفْرِه.» فتعالَتِ الأصواتُ من كلِّ أرجاءِ ساحة القصر مُرَدِّدةً:

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

«اقتلوا السّاحرَ الفاجِر... اقتلوا السّاحرَ الفاجِر!

حلَّتْ عليه لعنةُ الآلهة... عليه لعنة الآلهة!»

وسطَ الصّرخاتِ والهتافاتِ كانت الابتسامة لا تفارقُ وجهَ ذلك الغريب، تابع سيرَهُ نحوي بخطواتٍ الثابتة، ومع كلِّ خَطوةٍ كانت تتعالى دقّاتُ قلبي، ويَخفُقُ صدري صعودًا وهبوطًا، تارةً خوفًا من أن أُلاقيَ ما أستحقُّه منه، وطورًا اطمئنانًا لما تحملُهُ ملامحُهُ من هدوء وسكينة، وما يُشيعُهُ وجهُه من نورٍ يبعثُ على تلك الطُّمأنينة؛ حتّى وقف بجواري، ووضعَ يدَهُ فوق رأسي! فنظرْتُ إلى وجهه الذي بدا كما القمر الوضّاء، تعلوه الابتسامة، فاطمأنَّ قلبي وسَرَت في جسدي سكينةٌ لا أدري مصدرَها!

هي لحظاتٌ معدودة، مع ذلك شعرْتُ أنَّ أكبرَ المُجلَّداتِ قد لا تكفيني كي أَصِفَها، لِما حمَلَتْه من مشاعرَ جارفةٍ ومتضاربة، وأحداثٍ متعاقبة. كان «زرادوستار» يقفُ بجواري حين بدأْتُ أستعيدُ وعيي، فسمعْتُ من بعيد صوتًا ميَّزْتُهُ جيِّدًا، كان صوتَ كبيرِ الحرّاس، يَصيحُ عاليًا في جنوده: «اُقتلوا السّاحرَ الكافِر!» وفي ثوانٍ كان حُرّاسُ القصرِ جميعًا يخرجون من كلِّ حدبٍ وصوب مفزوعين ملبّينَ نداءَ الموت، في سباقِ الدّم، ليظفرَ أحدُهم برأس «السِّاحر الكافر»، ويحظى بالجائزة!

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

كنتُ لا أزال ملقاةً في مكاني -تمامًا في منتصف ساحة القصر الفسيحة- والغريبُ «زرادوستار» بجواري، والنّاسُ مصطفّون من حولِنا في شكلِ حلقةٍ تَبعدُ عنّا قُرابة العشرة أمتار، حين انطلقَ الحرّاسُ من أطرافِ ساحةِ القصر، متّجهين صوبنا، كلٌّ يُشهِرُ سيفَهُ، مسابقين الرّيح لحصدِ رأسِ الغريب، ومعه الجائزة بالتّأكيد. فأدركْتُ أنّ هذا الغريب ميتٌ لا محالة، وأنَّ مكرَ كبيرِ الحرسِ وسعيَه قد أفلحَ هذه المرّة! فغمرَ الشَّكُّ والقلقُ قلبي، واختلطتِ النوايا، فما عدْتُ أعلمُ إلى متى سيبقى رأسي ملتصقًا بجسدي بعد هذا الهجوم! فأنا لا أثقُ في مكرِ كبيرِ الحَرَس، وفي الوقت نفسه ما زلت أخافُ هذا الغريب «زرادوستار».

ما إن تخطّى أوّلُ حارسٍ حَلْقةَ النّاس من حولنا، متّجهًا نحو الغريب مشهرًا سيفَه، حتّى برقَ ضوءٌ عظيم عمَّ ساحةَ القصرِ فأضاءها بالكامل، خاطفًا الأبصارَ حتّى كاد يُعميها! وكما لو أنّ الغريبَ هو مصدرُ النّور، تراجعَ النّاسُ إلى الخلفِ خوفًا وفزعًا، وتسمَّرَ الحُرّاسُ في الأرض لا يستطيعونَ التقدُّمَ، ولا يجرؤون على التّراجع! كان الضَّوءُ رهيبًا، كأنَّ الشّمسَ قد بزغَتْ من صدرِ ذاك الغريب! أكادُ أجزمُ أنّ لا أحد في «إريانا فيجا» والمملكة بكاملِها، إلّا وبَهَرَه هذا الضّوء، وأخذ عقلَهُ ولبَّه، ولو للحظات!

ما إن استعادَتْ أعينُ النّاسِ اتِّزانَها، وبدأَتْ تستكشفُ من جديدٍ مسرحَ الأحداثِ في وسط ساحةِ القصر، حتّى تفاجأَ الحضورُ الذي أزعمُ

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

أنّه أخذَ يتضاعفُ خلال لحظات بقدومِ كافّة أهلِ المدينة، ودخولِهم من كلِّ أبواب السّاحة التي شُرِّعَت فجأةً، بعدما رأوا الضَّوءَ المُبهر الذي كانت تلك السّاحة مصدرَه. لقد فوجِئوا بجدارٍ أخضرَ اللّون، ظهرَ من العدم، يفصلُنا أنا والغريب الواقف بجواري، عن الحرس وحلْقة النّاس!

أَمعنْتُ النظرَ في هذا الحاجز وتلك الدّائرة التي أحاطَتْ بنا، فإذا هم جنودٌ أشدّاء، مفتولو العضلات، لم أرَ يومًا أناسًا لهم هذا الحجم أو حتّى نصفه! ولم أصادفْ أناسًا يتمتَّعون بمثل هذه القوّة البدنيّة والهيبة! كان هؤلاء الجنود يصطفّون كالجدار صفًّا واحدًا، يرتدي كلٌّ منهم حُلّةَ حربٍ خضراءَ اللّون تخطفُ عيونَ النّاظرين، ويحمل سيفًا نصلُهُ يلمعُ من دونِ ضوء، ويكادُ طولُهُ يتعدّى طولَ أكثرِ حرّاس القصرِ ضخامة؛ وتحيط بهم هالاتٌ من نور! كانوا في هيئةِ البشر، ولكنّهم قطعًا لم يكونوا من البشر!

عمّتِ الصّدمةُ جميعَ الحضور، وسادَ الصّمتُ، وعلا الوجوهَ الوجوم! كُنت لا أزالُ طريحةَ الأرض، مسلوبةَ الحركة، فاغرةَ الفاه، أُعاني أعراضَ الصَّدمةِ ذاتِها التي أصابَتْ الحضور، حين التفتَ إليَّ وإلى الغريب أحدُ هؤلاء الجنود وتوجَّهَ من مركز الحشد نحونا، ثمَّ أخذ الغريبَ بيده واصطحبَهُ إلى مُقدِّمةِ صفِّهم في مواجهةِ الملك «هيستاسب»، وواصَلا التقدُّمَ في اتِّجاه الملكِ ومعهم باقي الجنود. في هذا الوقت تسنّى لي أن

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

استكشفَ وجهَ الملك مِن بين أقدامِ وأجسادِ هؤلاء الجنود، فإذا به أكثرَ الحضورِ فزعًا وخوفًا، كأنَّه على حافّةِ الجحيم، يتقهقرُ إلى الوراء في فزعٍ وبطءٍ شديدين، كأنّ قدمَيْه لا تساعدانه على الحركة، وجسدَهُ لا يستجيبُ لرغبةِ عقلِه في الفرار.

وقبلَ أن ينبسَ ببنت شفة، تحدّثَ أحدُ الجنود الفرسان الذي كان يقفُ بجوار الغريب «زرادوستار» -وأظنُّه كبيرُهم- قائلًا:

الفارس: لا تخفْ ولا تجزعْ «هيستاسب»، إنّما نحنُ رُسُلُ الرحمن، أتيناكُم بالرّحمة البَيِّنةِ والغُفران. لم نأتِ لإراقةِ الدِّماء، بل قدِمْنا لِحَقْنِها. أرسَلَنا الحقُّ لنُعليَ كلمةَ الحقّ، ونَدْحَضَ الباطل. أرسَلَنا البصيرُ تأييدًا ونُصرةً لرسولِه، بعدما لاقى من قومِكَ الإعراضَ والإنكارَ والمَكْرَ والظُّلْمَ والغَدْر. هذا الرّسولُ الذي أرسلَهُ الخالقُ الواحد، حاملًا دينَ التّوحيدِ الحقِّ، ورسالةَ الفُرْقان التي تُفَرِّقُ بين الكُفرِ والإيمان، وأيَّده بكتابِ «الأفستا» الذي أُنزِلَ فيه منَ الآياتِ ما ينفعُ الأرضَ ويُصلحُها، ويُبطلُ عملَ المُفسدين. وحين بالغتُم في كُفركُم، وعظُمَتْ ذنوبُكم، واشتدَّ عنادُكم، وتجاهلتُم عمْدًا ما أجراهُ الواحدُ على أيدي رسولِهِ من آياتٍ وعلامات، ثمَّ تجرّأْتُم على محاولة قتلِه، أرسلَنا الرحمن رأفةً بكم، وإنقاذًا لكم. فهو

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

قادرٌ على أن يحفظَ رسولَهُ من كَيْدِكُم ومَكْرِكُم، ويُحبطَ أعمالَكُم. بل قادرٌ -سبحانَهُ- أن يجعلَ عاليكُم سافِلَكُم، ويُهلِكَكُم أجمعين، نُصرةً لرسولِهِ ونبيِّه.

فمَن تابَ منكم وأناب، واتَّبَعَ الرَّسولَ ودينَه، وأعلى كلمةَ الحقِّ، فلا تثريبَ عليه، وهو من الآمنين الفائزين. وأمّا من كفرَ واستَكْبَر، فإنّ ربي عليه قادر قويٌّ متين.

لم تبرحْ أعراضُ الصَّدمةِ والوجومِ وجوهَ الحاضرين، وعلى رأسِهم المَلِكُ. فقد كان المشهدُ حقًّا أسطوريًّا، يصعبُ حتّى على من يراه بأُمِّ العين، تصديقَه، فما بالُكَ بمن يَسْمَعُهُ؟! أشكُّ أنَّ أحدًا من الحاضرين كان يستوعبُ ما يحدُث أو حتّى يصدِّقُ ما تراه عيناه.

سادَ الصَّمتُ لوهلة، ثمَّ أتى صوتُ أحدِ كبارِ الكهنة -وأظنّه كبير الـ«ماجو»- يصرخُ من خلف الملك:

الـ«ماجو»: إنّ ما أتيتُم به اليومَ لَسِحْرٌ عظيم! سحرتُم به أعيُنَ وعقولَ القوم أجمعين. عن أيِّ كُفْرٍ تتحدَّثون، وأنتم تُدَنِّسون النّارَ المقدَّسة وتتطاولون على الآلهة؟! إن كان للكُفرِ أهلٌ فأنتم أهلُه ورعيَّتُه. فقد رأينا ما فعلَهُ كبيرُكم «زرادوستار» -قبل ظهوركم-

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

من سحرٍ عظيم، وكيف دنَّسَ النّار بتلك الصُّرَّةِ التي كانت تحملُها الجارية، وكيف سخَّرَ لها ما لا عِلْمَ لنا به من مخلوقات. فإنَّه قد وقعَ عليكم القولُ اليوم، إنَّكم لسحرةٌ كفرة، وما من جزاءَ لكم ولمن اتَّبعَكُم إلّا أن تُحرِقَهُ وتُهلكَهُ النّارُ المقدَّسةُ، مثلما تُحرِقُ كلَّ مَن تطاولَ عليها وعلى الآلهة. عليكم لَعْنةُ الآلهة وسخطُ النّار وعذابُها في دار البَوار قبلَ دار القرار!

هنا تحرَّكَ الفرسانُ منقسمين إلى قسمين، كلُّ قسمٍ إلى جهة، ووقف معهم في الجانب الأيمن الغريب «زرادوستار»، مفسحين المجالَ بين المَلِكِ وكبارِ الحضورِ من خلفِه، وبين النّار. كنتُ ما زلْتُ مُلقاةً على الأرض بجوار النّار المقدّسة، وإلى جانبي تلك الصُّرَّة التي ذكرَها الـ«ماجو». وما إن اتَّخذوا مواقعَهم على الجانبين، حتّى اشتعلت الصُّرَّة من تلقاءِ نفسها، وتصاعدَ منها لهبٌ أزرق، متوهِّجًا على شكلِ رؤوس، كأنّها رؤوسُ أشباح! وما هي إلّا ثوانٍ معدودة حتّى استحالت تلك الصُّرَّةُ إلى تراب تُذَرّيه الرِّياح! تطلَّعْتُ إلى المَلِكِ لأرى انعكاسَ ما يحدُثُ على وجهِهِ ووجوه أفرادِ حاشيتِه، فلاحظْتُ الصّدمةَ بادية عليهم، كما على مئات الحاضرين من أهل المدينة الذين اصطفّوا خلفهم يشاهدون هذه الأحداث الخارقة والمعجزات الفارقة!

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

وقبلَ أن يحاولَ الحضورُ فَهْم ما حدث، توهَّجتِ النّارُ المقدَّسة التي تقعُ في منتصف السّاحة، باللّهيب ذاته الذي أشعل الصُّرّة منذ قليل، غير أنَّ أَلْسنةَ اللَّهَب تعالَتْ حتّى كادَتْ تُعانقُ السَّحاب! أخذَتْ تلك الألسنةُ تتراقصُ وتتشكَّلُ بأشكالٍ عجيبة! ممّا جعلَ كبيرَ الـ«ماجو» يصيحُ من جديد: «ها قد أتاكُم عذابٌ لا طاقةَ لكم به، فذوقوا اليومَ جزاء كُفرِكم.»

لم يُعِرْهُ أيٌّ منَ الجنودِ، أو حتّى الغريبُ «زرادوستار»، أيَّ اهتمام. واستمرَّ لهبُ النّارِ في توهُّجِه الشّديد وتراقُصِه، حتّى تشكَّل في صورةِ إنسانٍ، لم تكنْ ملامِحُهُ شديدةَ الوضوح، إنّما له هيئة إنسان! بُهِتَ الجميع، وخرَّ بعضُهم ساجدين! ثمّ خرجَ صوتٌ ضخمٌ عميقٌ من تلك النيران، صائحًا، متحدِّثًا:

النّار: إنّما النّارُ والماءُ، والإنسُ والجِنُّ، والكونُ وكافّةُ المخلوقات، أبدعَها كلَّها الخالقُ الواحدُ القَهّار. خلقَهُم أجمعين لعبادتِهِ وحدَهُ، والتّسبيحِ بحمدِهِ آناءَ اللَّيلِ وأطرافَ النّهار. فإن أردْتُمُ الفوزَ في الدُّنيا، والنّجاةَ من عذابِ النّار، فما لكم من سبيلٍ سوى اتِّباعِ رسولِ الخالِقِ: «زرادوستار».

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

واشتعلَتِ النّار من جديد، وتصاعدَتْ ألسنتُها إلى السّماء، فأضاءَ نورٌ عظيمٌ يُضاهي ذاك الذي انبثقَ في أوَّلِ الأحداث؛ ثمّ خمدَتِ النّارُ، وعادَتْ إلى وضعِها السّابِق من جديد. واختفى الفُرسانُ، ووقفَ «زرادوستار»، متوسِّطًا السّاحةَ والحضورَ بوجهه البسّام، كأنَّ شيئًا لم يكن! عندها خرَّ المِلكُ ساجدًا، ومن ورائه أهلُ «باختيريا» أجمعين، سجدوا قانعين خاضعين، يسبِّحون باسم الإله الأعظم، إلهِ النّورِ والحَقّ، «أهورا مازدا» العظيم!

اليومَ ارتفعَتْ كلمةُ الحقّ، وأيَّدَ الإلهُ بمعجزاتِه وآياتِه رسولَهُ والمؤمنين. سطعَ نورُ الحَقّ، وانسحقَ الظُّلمُ والكُفرُ والمَكرُ وباتوا في أسفلِ السّافلين! سَجَدْتُ مع السّاجدين، خضوعًا وخشوعًا، وإيمانًا وإقرارًا! لقد وَعَدَنا الفرسانُ جنودُ الرحمن، إن تُبْنا وأنَبْنا وصدَّقْنا وآمنّا، فلا تثريبَ علينا، ونكوننَّ من الآمنين.

فهل لي، وأنا الظّالمة الفاجرة، من توبةٍ يا ربَّ العالمين؟!

هل لي من توبةٍ وقد وقفْتُ في طريقِ رسولِكَ أَكيدُ له، ليكونَ السِّجنُ قرارَه، والموتُ سبيلَهُ الوحيد؟!

هل لي من توبةٍ وقد هيَّأَ لي شيطاني أن أتعاونَ مع رؤوس الظُّلمِ والغَدْر، وأكونَ في طليعةِ صفوفِ الكافرين؟!

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

سأَقضي باقي أيّامِ حياتي تحَت أقدامِ رسولِكَ «زرادوستار»، لعلَّهُ يَشفَعُ لي، فتَغفرَ لي ما فعلتُ، يا جبّار!

الآنَ تبخَّرَتْ كلُّ أحلامي، ولم يبقَ لي أيُّ مطمعٍ سوى أملي بقبولِ التَّوبةِ يا إلهي، يا صاحبَ العفو.

التَّوبةَ يا إلهي، والعفو!

أشهدُ أنَّ «زرادوستار» هو رسولُ الحقِّ، ونبيُّهُ، وحاملُ رسالتِه. وأنَّ الخالقَ الحقَّ هو الإلهُ الواحدُ العظيمُ القدير، لا إلهَ غيره. وإنّي على ذلك من الشاهدين!

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

(١٩) زرادوستار

نصرٌ من الجبّار وفتحٌ عظيم

نصرٌ جَبَرَ كِسرًا تضاعفَ عبرَ سنواتٍ عجاف.

سنواتٌ مرّتْ كسنبلاتٍ يابسة، لم تحمِلْ من الخير إلّا ما نَدَر. فبعدَ حرْثٍ وزرْعٍ وريّ، لم أحصدْ في جُعبتي إلا ابنَ عمّي «ميتيوماه». فقد كانت سنبلاتُ تلك السّنواتِ خاويةً، ولا أعتقدُ أنَّ خَواءَها يتعلَّقُ بالهمَّةِ والمجهودِ المبذولِ في الحَرْثِ والزَّرْع، بل كان يتعلَّقُ بالتُّربةِ ذاتِها.

كانت تربةً جدباءَ قاحلة، تمَّ تجريفُها عبر عقودٍ بأفكارٍ ومعتقداتٍ فاسدة، دسّها أُناسٌ فاسدون، بذروا حبوبَ الفتنةِ والفُرقةِ والظُّلم، وروَوها بماءٍ آسنٍ، يخلطُ السِّحرَ بالدّين، ويجعلُ من الفاسد قدّيس، ومن الأحجار والشّمس والقمر والنّار آلهةً تُعبَد، فأنبتَتْ تلك التُّربةُ أشجارَ زقّوم، حصدوا منها السُّلطةَ والمالَ والسَّطوة، فيما حصدَ النّاسُ القهرَ والذُّلَّ والشَّعوذةَ والكُفرَ والضَّلال. ضَرَبَت تلك الأشجارُ جذورَها في تلك التُّربة فأفسدَتْها وجعلَتْ اجتثاثَها ضربًا من ضُروبِ المستحيل.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

فلم يعُدْ نتاجُ تلك التُّربة مرتبطًا بمهارة المُزارِع وجدِّيَّتِه وإخلاصِه في عمله، بل بالأقدار والمُعجزاتِ التي تُحيي الموتى وتَقلبُ القلوبَ والأحوالَ، التي هي في الحقيقة متعلِّقةٌ بيدِ خالقِها وحدَه، يغيِّرُها ويحوِّلُها كيفما يشاء.

لم أستغربْ طوال تلك السنين العِجاف أنَّي لم أحصُدْ شيئًا، وأنَّ سنبلاتي كانت يابسة؛ ولكنّي لم أفقدْ لحظةً الأملَ في حدوث معجزة. كنتُ على يقينٍ من أنَّ إلهي لن يتركَني ولن يخيِّبَني، وأنّه إنّما يَمتحنُ عزيمتي وجَهدي، وحينما يحينُ الوقتُ الموعودُ سيُظهرُ الحقَّ ويَنصُرُه، في أيِّ مكانٍ وأيِّ زمانٍ، وتحت أيّة ظروفٍ، وبإيّة طريقة؛ فهو الواحدُ القادر! فعملْتُ بجدٍّ، في انتظارِ وعد الخالق -سبحانَه- الذي ما شكَكْتُ لحظةً أنّه سيُخلِفُه. نعم حزنْتُ كثيرًا، واجتاحتني موجاتُ الألمِ والهمِّ والكدَرِ والضّيق، لكنّي أبدًا لم أكن لأقنطَ من رحمته، أو أغرقَ في بحر اليأس.

دعوْتُ النّاسَ في قريتي، فلانَتْ قلوبُهم. ولكن، حالَ بيني وبينهم المنافقان «بنفدا» و«جريهما»، إذ أفسدا قلوبَ النّاسِ بالكذبِ والضّلال. وأدَّتْ محاربتُهم لي إلى إخراجي منها عَنوة من دونِ نصرٍ يُذكَر.

طُفْتُ بين القرى والمدن والوديان المحيطة بقريتي، وحتّى البعيدة عنها، فوجدْتُ البذورَ ذاتَها التي غرسَها هؤلاء المنافقون، قد اجتاحَتِ

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

التُّربةَ حيثما وطأَتْ قدماي، ولم أجدْ منَ النّاسِ إلّا الصّدَّ والعِندَ والكُفر، التي كانت تغلِّفُ قلوبَهم وعقولَهم، وتُعمي أبصارَهم غيماتُ النِّفاقِ والكذبِ والضّلال. وعندما اجتاحني الحزنُ وتملَّكَني الضُّعفُ والوَهَن، شدَّدَ الله عضَدي بابن عمي؛ فرِحْتُ بقدومه وإيمانه كما لم أفرحْ في حياتي من قبل! إذ كان قدومُه بمثابة إشارةٍ لي من الخالق، أن: «لا تيأسْ»، فكانت أولى شعلات النّور على طريقٍ حسبتُهُ سيظلُّ مُظلمًا إلى الأبد وما له من نهاية.

ثمّ توالَتِ الإشاراتُ والأنوارُ من الحَقّ، فهداني وألهمني القُدومَ إلى مدينة «باختيريا»، ودعوةِ ملكِها «هيستاسب». فكان أمرُه -سبحانَه- مقضيًّا. وقد جعل لنا من أمرنا يسرًا، إذ طوى الأرضَ من تحت أقدامنا، وذلَّل العقبات. كان لقاءُ الملك نعمةً من الرحمن، أفاضَها علينا من كَرَمه. فانفكَّ لساني، وانشرحَ صدري بما يرسُخُ من كلامي في قلبِ الملك، ويصيبُه، فيميل، وما يُقنعُ عقلَهُ، فيَلين.

كان المِلكُ مُنفتحًا على الدّعوة، منحازًا لها، لولا تدبيرُ مَن حولِه مِن حاشيته، ولولا تلك التُّربةُ البور ولفظُها بذرةَ الخير. فقد حملَتْ تُربتُهم في باطنها جذورَ الشرِّ والظُّلم والضّلال. كادوا ما كادوا لنا، حتّى أُودِعنا في السِّجن ظُلمًا وزورًا، فكانت ساعاتُ السِّجن، وما لَقيتُه من عزلٍ ووحدة،

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

أشدَّ أيّام حياتي ظُلمة. ولكنّي كنت على يقينٍ من اقترابِ الفرج، ومن أنَّ أشدَّ ساعاتِ اللّيلِ ظلمةً هي أقربُها إلى الفجر. فاطمأنَنْت، وأيقنْتُ أنَّ الفجرَ قد لاح.

بعد مرور أيّام على حجزي، أتاني أحدُ الحرّاس بخبرِ مرضِ حصانِ الملك، وسألني إن كنتُ أهلًا لعلاجه. وحين استفسرْتُ منه عن صفةِ المرض وأعراضِه، أعلمَني بما يُثار من أقاويلَ وحكاياتٍ، وبعجز الأطبّة -وحتّى السّحرة- عن تشخيص المرض وإيجاد علاجٍ له. عندها أدركْتُ أنّ ما يجري، ومجيئَهم في إثري، إنّما هو ممّا دبّره المُعطي الكريم لي!

عُدْت مع ابن عمّي من جديد إلى القصر، حيث تفرّغْتُ لعلاج الحصان. وقد فطنت أنّ هذا هو المفتاح الذي سيفتحُ أبواب الهداية أمام الأمّة بأسرِها، إذ كنْتُ على يقين من أنّ ربّي سينصرني، ويردُّ كيدَ الكافرين إلى نحورِهم، ويُفسدُ تدبيرَهم.

بالفعل، وبفضل ربّي المنعم الكريم، سار الحصانُ على دربِ التعافي، واهتدى قلبُ المِلكِ إلى طريق الإيمان بربِّ العالمين. فسلكنا جميعًا الصِّراطَ المستقيم، نحو الهداية وصحيحِ الدّين، عابرين فوق جحيم الكُفر والنِّفاق والضَّلال، وأوشكنا أن نجتازَ بابًا باطنُه الرَّحمة وإن كان ظاهرُهُ العذاب!

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

فقد ألقى علينا كهنةُ الـ«ماجو» السَّحرة، والمنافقون من حاشية الملك، كلاليبَ من سحرٍ وكُفْرٍ مُبين، محاولين إسقاطَنا من جديد إلى قاع الجحيم؛ وكادوا ينجحون في تجريمنا والقضاء علينا، إذ لولا لطفُ الله ورحمتُه، لكان الموتُ أقربَ إليَّ من حبل الوريد.

فقد جهدوا -بعدما رأى كلُّ سكّان القصر ما دبّروه من سحر- في إلصاق شَرِّهم وسحرهم الشيطانيّ بي. ولكنَّ تدبيرَ الإله أقوى من تدبيرهم، وقدرتَه أعظمُ من شرورهم؛ فارتدَّ عليهم مكرُهم، وأراهُم ربّي الآياتِ البينات! إذ أشرق المكان بنورٍ عظيم، جذب كلّ الخلق في المملكة، فشاهدوا مجتمعين ما جرى من آياتٍ ومعجزات، أيَّدنا فيها العظيمُ بجنودِه ورُسُلِه! ما جعل القوم جميعًا، حتّى ملِكَهم وحاشيتَه، يخرّون ساجدين، خاضعين! حقًا إنّ مكر ربِّك لَشديد! فكان لنا من الفتحِ والنَّصرِ ما نريد!

عمِلْتُ في رسالتي التَّبشيريّة عَقدًا من الزمن أو يزيد، ولم أجنِ سوى اهتداء ابن عمي! لكن، حين استعصى على قُدرةِ البشر تقليبُ هذه التُّربة واستصلاحُها، كانت قدرةُ خالقِ البشرِ هي الحلُّ لاجتثاثِ جذورِ الزّقّوم بحكمته وآياته. فعندما أرادَ الجبّارُ أن يقهرَ الظُّلمَ والظَّلام، ويُبدِّلَ تلك التُّربةَ الجدباء بتربةٍ خصبة، وسنبلاتِ السّنين اليابسة بسنبلاتٍ خُضرٍ حُبلى بالخير، حصلَ ما أراده في لحظة وبطَرفةِ عين! ففُتحَتْ أبوابُ الإيمان

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

للمؤيِّدين، ليَدخلوا في دين الله أفواجًا، بدون قيدٍ أو شرط، ولا جدالٍ ولا مِراء. فكان ذلك اليومُ يومَ فتحٍ وعزّةٍ، وتاريخَ نصرٍ عظيمٍ للحقِّ على الباطل، والنّورِ على الظّلام، والعدلِ على الظُّلم. فمَّيزَ النّاسُ صفاتِ الخالق وسماتِه، وفطِنوا جميعًا إلى كونه:

القابضُ... الباسط:

قبضَ عنَّي أيدي الظّالمينَ وبطشَهم، بعد أن كنْتُ على حافّة نهايةِ حياتي الدُّنيا. وبسطَ المجالَ لنورِه ورسالتِه ودينِه، لتسعَ القصرَ والمدينةَ والأمّة جمعاء!

الخافضُ... الرّافع:

خفضَ راياتِ الكُفر، والآلهةَ الكاذبة، ورفعَ رايةَ الحقِّ والتّوحيد.

المُعزُّ... المُذِلّ:

أعزَّ النّاسَ كافَّةً بأن هداهم إلى دينِه، وأخرجَهم من ذِلِّ الشِّرْك.

أعزَّ «هيستاسب» بأن جعلَ الرِّسالةَ له، ومن خلالِه للأمَّة؛ وأعتقَهُ من الذِّلِّ بعد العِزِّ والانكسارِ بعد المُلْك.

أعزَّ عبدَهُ «زرادوستار» بنُصرتِه وتأييدِه له، وأذلَّ أعداءَهُ وكارهيه.

المُحيي... المُميت:

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

أحيا الأرضَ والتُّربةَ الجدباء الميتة، وبثَّ فيها الخصوبةَ من جديد، فقامَ الناسُ من رقاد الكُفر إلى حياةِ الإيمان.

المقدِّم... المؤخِّر... الأوّل... والآخِر:

قدَّمَ رسلَهُ بآياتِه، وأثبَتَ أنّه الأوّلُ بلا سابِق، والواحدُ بلا شريك. وأخّرَ رؤوسَ الكُفر وتدبيرَهم، فأيقنوا أنّ إليه تؤولُ الحياةُ الأولى والآخِرة، فإليه المنتهى وهو الآخِرُ لا شيء بعدّه.

الظّاهرُ... الباطن:

أظهرَ آياتِه ومعجزاتِه وجنودَه من حيث لا يدري الظّالمون. وجعل باطنَ المنافقين ظاهرَهم، فظهر للنّاسِ ما كانوا يُبطنون من إفكٍ وسحرٍ وكيدٍ متين.

الضّارُّ... النّافع:

بيدِه وحدَه الضَّرُّ والنَّفع؛ فإن اجتمعَ الملوكُ والوزراءُ والسّحرةُ والكهنةُ على أمرٍ واحد، فلن يُنفَّذَ إلّا بمشيئته، ولن يُضِرَّ أو ينفعَ إلّا بإذنِه، فهو الضّارُّ النّافع.

وأيقنْت أنّه -سبحانَه- الجبّار:

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

فحين علمْتُ بأنّه اصطفى أسرتي بالكامل، أبي وأمّي الغاليَيْن، والحبيبة «هانويه»، ليكونوا إلى جواره، انكسرَ قلبي، أصابه مرضٌ عُضالٌ أنهكني وكادَ يقتلُني. كانت تلك الصّدمةُ أكبرَ من احتمالي! فكيف يتلاشى من وجودي والداي الحبيبان الداعمان، ورفيقةُ روحي «هانويه» منبعُ الحكمة والحنان؟! كدْتُ أموتُ يومَ علمتُ برحيلهم، وعجزَ لساني عن النُّطق، وعقلي عن التَّفكير!

ولكنّه -سبحانَه- جبرَ هذا الكسر، وأرضاني بأن حقَّقَ ما كانوا دومًا يحلُمون به، ويسعون معي ويدعموني لأنجزَه؛ فها قد تمَّ أخيرًا! وأدركْتُ أنّ رحيلهم عنّي ارتضاه الباري لحكمةٍ أرادها. فلتنعمْ أرواحُهم الطيِّبة بنعيم الخالق في جنّاته، له الحمد سبحانه الجبّار، قد جبرَ كَسْرَ قلبي، وداوى ألم روحي، وأزال كدَري وحزني على فِراقهم، وعوّضني بتحقيق آمالِهم وأحلامهم.

ها قد انتشرَ دِينُ الرّحمنِ بين عموم النّاس، وتقلَّص أتباعُ الشَّيطان وانحسروا، بعد أن خابَ ظنُّهم وسعيُهم، وراحَتْ مطامعُهم ومطامحُهم -وعلى رأسهم «أهريمان»- أدراجَ الرِّياح. وكان الملِكُ قانعًا، ومِن حوله حاشيته مجبَرين، وكافّة الناسِ مؤمنين، بما رأوا من آياتٍ جليَّة على رؤوس الأشهاد، هدَت أفواج المؤمنين إلى الدّين القويم.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

وفي ساحة القصر، في المكان ذاته إلى جوار النّار المعجزة، سَمَحَ لنا المِلكُ أن نؤسِّس أوَّلَ معبدٍ، نُعَلِّم فيه عامّة النّاس وخاصّتَهم أصولَ الدّين وتعاليمَه وعقائدَه وعباداتِه، ونتدارسُ فيه نصوصَ «الأفستا»، ونُقيمُ الصَّلوات.

سرعان ما انتشرَتِ المعابد، وأخذ «ميتيوماه» بيدِه رايةَ الدّين، وراح يطوف بها، ويُعليها في كلِّ رُكْن وشبر من أرجاء «إريانا فيجا». وظلَّتِ النّارُ التي كانت في يومٍ من الأيّام إلهًا يُعبَدُ من دونِ الصَّمَدِ الواحد، رمزًا ودليلًا حيًّا حاضرًا بين النّاس كافّة، وفي كلِّ مكان، على قدرتِه وإعجازِه ووحدانيّتِه. يراها النّاسُ في كلِّ مكان، فيتذكَّرون ويتناقلون -في ما بينهم- جيلًا بعد جيل، كيف أنطقَها القادرُ، وجعلَها أعظمَ آية ودليلاً على قدرته وعظمته.

أتَتِ السَّنواتُ السِّمان، وحملَتْ بين طيّاتِها تلك السُّنبلات التي حَلَمْتُ دومًا بها، ليملأ الدُّنيا نداءُ الحقِّ وكلماتُه. وبالفعل اجتمعَ النّاسُ على كلمةِ التَّوحيد، واشتدَّتْ قوَّةُ المملكة، وزاد الخير، وبارَكَ الواحدُ في عمرِ «هيستاسب» ومُلكِه، وعمَّ الرّخاءُ والفرحُ والرِّضا في عموم المملكة.

اخترْتُ لنفسي معبدًا على أطراف «إريانا فيجا»، طمعًا في أن يفتحَ لي الفتّاح مُدُنًا وبلادًا لم يطرقْ بابَها الإيمانُ من قبل؛ وكانت بلادُ الطّورانيّين أوَّلَ أهدافي وأحلامي.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

إلهي لك الحمدُ والشُّكرُ والتمجيدُ والعزَّةُ على جُلِّ ما تفضَّلْتَ به على عبادِكَ وأَنعَمْت. نشكرُ لك تلك السِّنينَ السِّمان، وتلك السّنبلاتِ الخُضرَ من بعد سنواتٍ عجافٍ لا خيرَ فيها.

فأتِمَّ فضلَكَ علينا، يا ربَّ العالمين، وأعنِّي على إتمامِ رسالتي كما تُحبُّ وتبتغي. وأظهِرْ بفضلِكَ دينَكَ الحقَّ فوق كلِّ دين.

اليومَ ظهر الدّينُ الحقّ، وخابَ مكرُ الكافرين!

اليومَ يفرحُ المؤمنون بنصرِ ربِّهم القويِّ المتين!

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

(٢٠) أهريمان

إذًا... تلكَ هي النهاية!

واحسرتاه!

أرى نورَ الحقِّ يكسو «إريانا فيجا» حتّى كادَ بريقُه يُعمي عينَيّ! أسمعُ ترتيلاتِ التوحيدِ وترانيمَهُ تنطلقُ من المعابدِ، وأهازيجَ النَّصْر تتعالى لتصمَّ أذنيّ. أشعرُ بدفءِ السَّكينةِ والإيمانِ يُشِعُّ من قلوبِ أهلِها، ليَحْرُقَ قلبي وجوارحي! نُكِّسَتْ راياتُ «أهريمانَ» وأعوانِه وأتباعِه، ورُفعَتْ راياتُ الواحدِ الدَّيّان! تحطَّمَتِ الأصنامُ والأوثان، وشُيِّدَتْ فوقَ أطلالِها معابدُ يُرْفَعُ فيها اسمُ الواحدِ الرحمن!

يطوفُ «زرادوستار» وأتباعُه كأسرابِ الحَمامِ ما بينَ المعابد، مُنْتَشين بالنَّصر، مبتهجينَ متفائلين! وأيُّ نَصْر! لقد كان نصرًا على رؤوس الأشهاد! شهِدَهُ القاصي والدّاني منَ العباد. انتصروا يومَ سَلَّطَ المُقتدرُ علينا بعضًا من جنودِه، فهزمونا وسحقونا، فطُرِدْنا من تلك البلاد فلولًا مَدْحورين.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

انقلبَتْ دفَّةُ المعركةِ في لحظات، بعدما تحكَّمْتُ فيها لسنوات! كانت المعركةُ تسيرُ في الطَّريقِ المحدَّدِ والمرسومِ بعناية؛ نعم كان طريقًا وعرًا، مليئًا بالقاذوراتِ والأشراكِ والأشواك التي حَرَصَ رجالي وأتباعي على زراعتِها لـ«زرادوستار» على طول الطّريق. كنتُ أوسوسُ لهم وأُغويهم ما استطعت؛ علَّمتُهم السِّحر، تمرَّسوا في الفجور والكُفر، وكلّما اشتد غيُّهم وكُفْرُهم، كان الطّريقُ أكثرَ وعورةً على رسول «أهورا مازدا». نعم كانت معركةً قذرةً غيرَ عادِلة.

وما إن تدخَّلَ العدلُ بجنوده، حتّى انقلبَ الميزان، ورجحَتْ كفَّةُ «زرادوستار»، ومن خلاله ربِّ العالمين، في يومٍ أبيضَ على بني الطّين، أسودَ عليَّ وعلى أتباعي، بل أشدَّ سوادًا من الطّين ذاتِه! فَمَن بيده أن يُقارعَ الخالقَ العظيم؟! لو ترَكَ لي فقط زمامَ الحربِ بيني وبين بني الطّين من دون أن يتدخَّل، لأغويتُهم أجمعين، كما أغويْتُ أبيهم، وطُرِدَ بسببي من جنّات النّعيم. قالَ الحقُّ كلمتَهُ في هذا اليوم، ونَفَذَتْ عدالةُ السّماء! وكنت وجنودي أكبرَ الخاسرين!

عن أيِّ عدالةٍ أتحدّث؟! بل هو ظُلْمٌ عظيم! ظُلِمْتُ يومَ اصطفاه الرّحمن من دون باقي خَلْقِه، شكَّلَهُ وخلقَهُ بيدَيْه من طين، ثمّ نفخَ فيهِ من روحِهِ الكريم. ظُلِمْتُ يومَ أكرمَهُ بالعلم المُبين؛ ظُلِمْتُ يومَ أُمِرْتُ

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

بالسُّجودِ له، وأنا خُلقْتُ من نارٍ وقد خُلِقَ هو من ماءٍ مَهين؛ ظُلْمْتُ يومَ خسِرْتُ رحمةَ ربّي بسببه، وقد كنْتُ أوَّلَ الخاضعين العابدين؛ ظُلْمْتُ حين سوَّلَتْ لي نفسي أنِّي خيرٌ منه، وقد كرَّمَهُ الإله عليَّ فبُؤْت وحدي بالإثمِ والذَّنب العظيم؛ ظُلِمْتُ حين كُتِبَ عليَّ العذابُ أبدَ الآبدين؛ ظُلمت -وأنا العبدُ المُخلصُ الأمين- أن تكونَ جهنَّمُ جزائي مع العاصين المتكبِّرين؛ كان الطّينُ -وسيبقى- ظالمي وخصمي وعدُوّي الوحيد، إلى يوم الدّين!

ربّي أهذا الذي كرَّمْتَ عليَّ؟!!

فبِعزَّتِكَ لأغوينَّهم أجمعين.

ولَأقعُدنّ لهم صِراطَكَ المُسْتَقيم.

ولَآتِيَنَّهُم مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ.

ولأحتَنِكنَّ ذرِّيَّتَهُ إلّا قَليلًا.

وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ.

وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَام.

وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ.

وَلَأُزَيِّنَنَّ لهم في الأرضِ ولَأُغوِيَنَّهم أجمعين.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

فلتنعمْ وتفرحِ الآنَ بنصرِكَ المكذوبِ يا ابنَ الطّين. فإنّما حياتُكَ ومماتُكَ وأفراحُكَ وأتراحُكَ وصحَّتُكَ ومرضُكَ وهزائِمُكَ وانتصاراتُكَ، في نطاقِ هذا الكونِ من كتلةٍ وزمانٍ ومكان، ما هي إلّا كمِثْقالِ ذرَّةٍ أو أدنى، احترقَتْ وتلاشَتْ في جُزءٍ من الثّانية، في مكانٍ مجهولٍ سحيقٍ في أعماقِ هذا الكون الفسيح. فمهما طالَ بك العمرُ واستطال، ومهما بلغْتَ من سُلْطةٍ وعنفوان، ستندحِرُ وتذهَبُ حياتُكَ هباءً، وأبقى أنا في حربي المقدَّسةِ خصمَكَ، لِتَذوقَ في النِّهايةِ عذابَ السَّعيرِ الأليم!

أَسَعيدٌ أنتَ حقًّا يا «زرادوستار»؟ ترى النَّصْرَ قد آتاك، وترى النّاسَ يدخلون في دين إلهِكَ أفواجًا. لسْتَ أوّلَ مَنْ شَهِد تلك اللَّحْظةَ، ولن تكون الأخير. تلك هي سُنَّةُ حياتِكُم كما عهدتُها، ولكنَّ العبرةَ دومًا بالخواتيم. فلتفرحِ الآن بما ترى، ولكن فلتكنْ لك في عينيْكَ عبرةٌ وآية. فكما لها حدودٌ وقدرةٌ لا تتجاوزُها -مهما اشتدَّتْ- حدَّةُ إبصارك، كذلك نجاحُكَ وأفراحُكَ. ترى الإيمانَ قد عمَّ أرجاءَ المعمورة، وأنّ الدّينَ آخذٌ في الانتصار والانتشار. إلّا أنّك لا ترى إلّا في حدودِ قدرةِ عينيك على الإبصار، فالكونُ أوسعُ من إدراكِكَ بمليارات المرّات.

نعم، آمنَ الميديّون؛ نعم، انتصرَ «زرادوستار»؛ نعم، فرِحت «إريانا فيجا» وأنارت؛ ولكنّه نورُ سفينةٍ تحترقُ في وسط بحرٍ لُجَيٍّ مُظلمٍ كقِطَع

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

اللَّيل، تتلاطمُها موجاتُ هذا البحر من جميعِ الجهات، وتوشكُ أن تُحطِّمَها وتُغرِقَها وتُهلِكَ ساكنيها كافّة. حقًّا خسرْتُ تلك الجولة في «إريانا فيجا»، بالرّغم ممّا بذلت من جَهدٍ وتخطيطٍ ومكرٍ وتدبير، ولكنّي أبدًا لن أخسرَ الحرب! فكما كنتُ أوسوسُ وأُغوي وأُخطِّطُ مع رؤوس الفتنة في «إريانا فيجا»، كنْتُ أفعلُ الشيءَ ذاتَه في المدن المحيطة بها، القريبة والبعيدة، حتّى تعالَتْ رؤوسُ الشَّرِّ والظَّلام في كلِّ مكان.

وكما أَشعلْتُ من قبلُ نارَ الفتنةِ والحربِ بين الطورانيّين والميديّين بِدافع السُّلطةِ والمُلْك، فأنا قادرٌ على أن أؤجِّجَها من جديد، بدافعِ الدّين والعرضِ والأرضِ والآلهةِ المقدَّسَة.

وبينما كانت حماماتُ السّلامِ والإيمانِ تُحلِّقُ وتُرفرفُ في سماءِ «ميديا»، كانت غِربانُ الحرب والظّلام تنهشُ جسدَ الطورانيّين، وتأكلُ رؤوسَ ساداتِهم وكهنتهم. فقد زرعْتُ الفزعَ والرُّعبَ والخوفَ في قلوبِ الكهنةِ والـ«ماجو» والقادة هناك، خوفًا من أن تؤولَ بهم الأمورُ إلى مثل ما آلت إليه لدى أهل «ميديا». فمع انتشارِ دين التّوحيد، انقلبَ أَعِزَّةُ أهلِ «ميديا» أذلَّةً، وفقدوا السّطوةَ والسُّلطةَ والمكانة، وأيقنوا أنَّ مصيرَهم حتمًا سيكونُ الموت، إذا ما انتشرَ هذا الدّاءُ في جسدِ الطّورانيّين.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

فأغويتُهم، وزيَّنْتُ لهم الحربَ من جديد، ليس بدافعِ السُّلطةِ والنُّفوذ، وإنّما بدافع الحياة. فراح كهنتُهم يجوبونَ الشّوارعَ والسّاحاتِ والأسواق، مهدِّدين بالخراب والدمار إذا ما تُرِكَ حيًّا الكافرُ «زرادوستار»، الذي أضلَّ الميديّين، وجعلهم يجترئون على الآلهة. وراح أتباعي هناك يُروِّجون للحربِ المقدَّسة، لنُصرة الآلهة، ومعاقبة أهلِ «ميديا» على ما اقترفوا من فحشٍ وإثمٍ عظيمَيْن؛ وأنّ الدَّمارَ والخرابَ ينتظرُ الطّورانيّين إذا ما سكتوا عن مثل هذا الكُفْر والفُجْر الشّنيع. واتَّحدَ النّاسُ جميعًا على كلمةِ الكُرْه والحِقد. ويومًا بعد يوم، مع استقرارِ سفينةِ «زرادوستار»، كانت العاصفةُ تتأجَّجُ وتستعرُ من بعيد، استعدادًا لتدمير تلك السّفينة وإغراقِها. فكانت دوّاماتُ الغِلّ تغلي لدى الطّورانيّين، وتدورُ من الأرض حتى عَنان السّماء.

فحين استطالَتْ أحلامُ «زرادوستار» وتطاولَتْ، وغشيَ الطَّمعُ عينَيْه، وتطلَّع إلى الخروج من حيِّزِ نظرِهِ المحدود، وراودَهُ حلمُ انتشارِ دعوتِهِ خارجَ «إريانا فيجا» لتعمَّ ما حولَها من ممالِكَ وبلدان، وذهبَ ليُقيمَ في المعبدِ القابعِ عند أطرافِ «إريانا فيجا» على خطِّ التحامِها مع أراضي الطّورانيّين، ظنَّ أنّ قُربَهُ لتلك البلاد قد يُيَسِّرُ عليه المَهمَّة، فيتحوَّلُ حلمُهُ إلى واقعٍ ملموس. ولكنَّهُ لا يدري أنّي أعددْتُ له ما يحوِّلُ حلمَهُ إلى كابوس.

تناقلَ البصّاصون مِن خَدَمِ الطُّورانيِّين خبرَ انتقالِ رأسِ الأفعى «زرادوستار» إلى أطراف «إريانا فيجا» المتاخِمة لأراضيهم، فوَسوَسْتُ

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

لكِبارِ القادةِ والكهنةِ هناك أنّها اللَّحظةُ الحاسمة، وأنَّ الحربَ لا بدَّ أن تبدأَ من هذا المعبد، وأنَّ رأسَ هذا الرَّجُل هو الضَّمانة الوحيدة لنَصْرِهم، بل لِحِفْظِ أرواحهم.

بالفعل وُضِعَتِ الخطَّة وأُعِدَّتِ العُدَّة، وتجهَّزَتِ الجيوشُ لاقتحام «إريانا فيجا». وإمعانًا في المكر والتمويه، قُسِّمَ الجيشُ إلى كتائبَ انتشرَتْ في المدنِ والقرى المتاخمةِ لـ«إريانا فيجا». وكانت أقلُّ الكتائبِ عددًا تلك التي تقعُ بالقربِ من معبدِ «زرادوستار». حتّى إذا ما نَقلَ الجواسيسُ -وما أكثرَهم- الأخبارَ للميديّين، يشعرُ «زرادوستار» بالأمان، ويظلُّ في مكانِه من دون أن يهرُب.

لا يعلمون أنَّا قد وضعْنا أمهرَ القتَلة وأشدَّهم ضراوةً وبطشًا في تلك الكتيبةِ المكلَّفَةِ باقتحامِ معبدِ «زرادوستار»، وتصفيتِه، فقد كانت قوَّةُ الجُنديِّ منهم تعادلُ قوَّةَ عشرةِ جنودٍ من المُشاة والفرسان معًا؛ وأنَّهم تلقّوا أوامرَ واضحةً أنَّ حياتَهم في كفَّة، ورأسَ «زرادوستار» في كفّة. وعندما تحينُ السّاعةُ الموعودةُ، تتحرَّكُ كافَّةُ الكتائبِ بشكلٍ عَرَضي على الشَّريط الحدوديّ لـ«إريانا فيجا»، باتّجاه تلك القريةِ محلِّ إقامة «زرادوستار»، لتكونَ هي نُقطةَ الاختراقِ الأولى لبلادِه.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

وهذا لضمان أنَّ هذا الجيشَ كلَّهُ لن يَنفُذَ إلى داخلِ «إريانا فيجا» إلّا من فوق جثّةِ «زرادوستار». ولنرَ حيلكَ الآن لتَفادي ما أعددْتُهُ لك أيُّها النبيُّ صاحبُ الوحي، وكيف لك أن تنجوَ من هذه الخطة المُحكَمة!

وقبلَ بدايةِ المعركةِ واصطفافِ الصُّفوف، وسوسْتُ إلى أحدِ أتباعي أن يختارَ من تلك القرى القريبةِ من معبد «زرادوستار»، أحدَ الرِّجالِ المشهودِ لهم بطيبِ السُّمعةِ وحُسْنِ السِّيرة ما بين أهلِهِ وجيرانِه، وأن يكونَ ابنَ عائلةٍ ذاتِ انتشارٍ وشرَف، ويأمرَ أخلَصَ الأتباعِ بقتلِهِ، والتّمثيلِ بجثَّتِه خفاءً، ثمّ يُلقي بها على قارعةِ أحدِ الطُّرُق. ويُروِّجُ أعوانُ تابعي هذا، أنَّ رجالَ «زرادوستار» قتلوه حينَ رفضَ الدُّخولَ في دينِهم واتِّباعَ إلَهِهم.

هكذا ستغلي قلوبُ وعقولُ النّاسِ طَلَبًا للثأر، وتستعرُ نارُ الحرب، حتّى يصبحَ دمُ «زرادوستار» هو فقط ما يروي عطشَ جموع الطّورانيّين، فيطلبونه بغية إطفاء نارِ الكُره والحقدِ المستعرة في قلوبهم.

اقتربَتِ المعركةُ الحاسمة، معركةٌ لن يكونَ «زرادوستار» خصمي الوحيد فيها. قطعًا سيكون هو في أوَّلِ صفوفِ الأعداء، ومن ورائه أفكارُه ومعتقداتُه ودينُه وتوحيدُه وصلواتُه ودعواتُه وتسبيحاتُه... سأقتلها جميعًا! سأهدمُ هذا الدّين عن بِكرةِ أبيه. تلك هي الغايةُ والغنيمةُ الأغلى

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

والأهمّ! سيُعبَدُ «أهريمان» من جديد في «إريانا فيجا»! سيسجدون للنّار من جديد، وينسون ما حدث في تلك السّنواتِ القليلة الماضية، ويعودون إلى حظيرة حُكمي من جديد.

تلك هي الغاية، وسأصلُ إليها أيًّا كانت الوسيلة. تلك هي حربي المقدّسة التى سأبذلُ فيها الغالي والنّفيس من دماء أتباعي. ذلك هو الوعدُ الذي قطعْتُه على نفسي أمامَ ربّي قبل إخراجي من جنّات النعيم، أن أجعلَهم يتكالبون على تحريفِ الدّين، وقَلبِ خَلقِ الخالق وتغييرِه، وتحويلِ الطَّيِّب الحَسَن إلى مقدَّسٍ، ثمّ المقدَّسِ إلى وسيلةٍ يتضرَّعون بها إلى الربِّ الأحد، ثمّ أحوِّلهُ من وسيلةٍ مقدَّسة إلى إله يُعبَد من دون الواحد الصّمد! وَعْدٌ لم ولن أنكثَ به ما حييت.

دقَّتْ طبولُ الحرب، وصدحَتِ الأبواقُ بأصواتِ النَّفير، لتُحطِّمَ حاجِزَي الصَّمتِ والسِّلمِ معًا. لم يتملَّكْني الفضولُ هذه المرّة لأتابعَ تلك الحربَ عن قُرْب، وأستمتعَ بدمِ الطّين يَروي ترابَ الأرض، ويحوِّلُهُ إلى طينٍ قاني اللّون. إذ -على الرَّغم من النَّشوةِ والسُّرور الذي يبعثُهُ في قلبي هذا المشهد- كنْتُ في انتظار متعةٍ أكبرَ ونصرٍ أضخم! فاتّخذْتُ موقعي عند معبدِ «زرادوستار»، أترقَّبُ مُشاهدةَ لحظاتِ حسمٍ اقتربَت ودنت جدًّا.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

انطلقَتْ أسهُمُ النّار من أرضِ الطوارنيّين، تَشقُّ عِنانَ السّماء باتِّجاه أراضي الميديّين، إيذانًا ببدء حربٍ حُسِمَتْ نتيجتُها مُسبقًا! فحتمًا سأكونُ أنا الفائزَ الوحيد، وسيخسرُ أهلُ الطّينِ أجمعين! تدفَّقَتْ سيولُ الجنودِ الجارفةِ في المجرى المحدَّد مسبقًا، تضرِبُ وتُدمِّرُ، كأمواجِ البحرِ العاتية، كلَّ ما يعترضُ طريقَها، في اتّجاه المعبدِ المنشود.

وفي مقدِّمةِ الصُّفوف، انطلقَتْ كتيبةُ النّار المولَّجُ إليها إعدامُ «زرادوستار»، تَطوي الأرضَ تحت أقدامِها، حارقةً الأخضرَ واليابس في طريقها، لتحقيقِ الأملِ المنشود والنَّصر الموعود. وحين لاحَ لهم سورُ المعبدِ من بعيد، سمعوا نفيرًا عاليًا يَصمُّ الآذان! ورأينا جموعًا من جنودِ الميديّين تنشقُّ عنهم الأرض، كأنَّهم خرجوا من العدم، واصطفّوا أمامَ سورِ المعبد، مشكِّلين دِرعًا حربيًّا مسلّحًا منيعًا، يحولُ بين الطّورانيّين وغنيمتي المنشودة! ولكن، لحُسْنِ حظّي، لم يتراجعِ الجنودُ الغُزاة، ولم يزدْهم جدارُ الميديّين البشريُّ هذا إلّا إصرارًا وإقدامًا!

التحمَتِ الصّفوف، وتلاطمَتْ كالموج الهائج. وقف جدارُ الميديّينَ ليكسرَ موجاتِ الهجوم المتتابعة، وسالَتِ الدِّماءُ على أرضِ المعركةِ أنهارًا. كان قادةُ «إريانا فيجا» قد فَطِنوا لخطّة اقتحامِ القريةِ والمعبدِ وقتَ الهجوم، وحرَّكوا الصُّفوف للذودِ عن أراضيهم ومعبدهم ورسولهم.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

علَتْ وتيرةُ القتال، وأوغرَ الشَّكُّ قلبي، لِمَا رأيتُ من بَسالةِ الميديّين أمامَ هجماتِ الطورانيّين الشَّرسة المتوالية، حتّى أنّي حسبتُهم أكثرَ عددًا من الطّورانيّين، بينما في الحقيقة هم أقلّ! واستمرَّ الكرُّ والفَرُّ بين الطرفَيْن لساعات. ثمّ ظَهر من خلف الصُّفوف «زرادوستار»، يحملُ الجرحى إلى داخل المعبد، أو يُضمِّدُ جراحَ من لا يستطيعُ نقلَه، في موضعه. كان يتحرَّكُ من مُصابٍ إلى آخر بسرعةٍ وخفّةٍ ورشاقةِ النّحلة، كأنّه سبقَ واستعدَّ من قبل لهذا اليوم، وتوقَّعَهُ وانتظره!

تقهقرَ جنودُ الطّورانيّين إلى الوراء أمامَ صمود واستبسال الميديّين! ومن خلف صفوف الغُزاة، كانت قد وصلَتْ آلاتُ المنجنيق يدفعُها جنود المشاة، حتّى أصبحَتْ صفوفُ جنودِ الميديّين المتمركزة أمام المعبد، في مجالها، كما أصبحَ سورُ المعبد في مرماها. يبدو أنَّ انسحابَ الطّورانيّين كان تكتيكيًّا، إذ ما لبثت أن انطلقَت كُراتُ اللَّهَبِ الضّخمة، حاصدةً أرواحَ الميديّين حصدًا، مصيبةً سورَ المعبد والمعبدَ نفسَه بإصاباتٍ مدمِّرة.

حين نفدَتِ الذّخائر، بعدما استنزفَتْ معظمَ قوى ودماء الميديّين، عاد جنودُ الطورانيّين للهجوم من جديد على من بقي من حُماة أسوار المعبد، فشعرْتُ بأنَّ النصرَ قد لاح! انطلقَ الجنودُ في تشكيلٍ غريب، فقد تقدَّمَتِ المَيْمَنةُ والمَيْسَرة منحرفين إلى الدّاخل، فيما تأخَّرَت قليلا صفوفُ الوسط،

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

ليحاصروا الجنودَ المدافعين عن المعبد، ويَحسّوهم حَسًّا. استبسلَ الميديّون من جديد، ولكن، سرعانَ ما انهاروا أمامَ ضراوةِ الهجمات وشدَّةِ الضَّغط.

قَلَّبْتُ نظري في تلك اللّحظة في ساحة المعركة بحثًا عن «زرادوستار»، فلم أجدْه! هل هربَ هذا الجبان؟! رأيْتُ طلائعَ كتيبةِ النّارِ تقتحمُ سورَ المعبد، وصولًا إلى ساحته. عندها شعرْتُ بقلبي يرقصُ فرحًا وطربًا مع دقّاتِ وأصواتِ ضربات السّيوف! تبعتُهم بحثًا عن غايتِنا وغنيمتِنا الأهمِّ والأغلى. كانت المعركةُ خارجَ الأسوارِ لا تزالُ مُحتدمة، فاستنزفْتُ كلَّ من كانت لديه المقدرة على حمل سيفٍ داخلَ المعبد لتقديم المَدَد والعون، فخلَتْ ساحةُ المعبد إلّا من بعض الجرحى والنساء.

انقضَّ المعتدون على سكّانَ المعبد بلا رحمة، ونهشوهم كما تنهشُ الذّئابُ فرائسَها! لم يفرِّقوا بين صحيحٍ أو مريض، امرأةٍ أو عجوز، طفلٍ أو طريح. راحوا يقتحمون الغرفَ الدّاخليّة للمعبد الواحدة تلو الأخرى، وكلّما فرغوا من غرفة أشعلوا فيها النار، تاركين خلفَهم القدْرَ الأكبر من الدّمار والبوار. لحِقتُهُم إلى جنبات المعبد وأروقتِه بحثًا عن ذلك الـ«زرادوستار»! حتّى وجدَ الجنودُ غرفةً في آخر الرُّواق، معزولةً ومغلقة، تقفُ أمامَها امرأةٌ مسنّة، تركَ الزَّمَنُ على وجهها مسحةً من الجمال، تحملُ بين يديها سيفًا، وتتمسَّكُ به كما يتمسَّكُ الغريقُ بطَوْق

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

النّجاة. ولكن، أليست هي؟! نعم، إنّها الجارية «ماندانه»! كيفَ تحوَّلْتِ أيَّتُها المرأةُ من أهمِّ جنودي إلى ألدِّ أعدائي؟! كيف بدّلَكِ هذا الساحر من أكثرِ النّاس سعيًا لقتله، إلى أكثر النّاس حرصًا على الدّفاع عن حياته ودمه؟! إذًا، ستنالين أخيرًا ما تستحقّينه!

وما إن اقتربَ الجنودُ من الغرفة التي تقفُ الجاريةُ أمامَ بابها، حتّى انطلقَتْ نحوهم كالكلب المسعور، محاولةً أن تنالَ منهم. تفاجأ الجنودُ من ردِّ فعلِ المرأة وسرعتِها برغم كِبَرِ سنِّها! وبالفعل، صرعَتْ أحدَهم بضربة سيف واحدة نافذة. ولكن ما إن رفعَتْ سيفها مجدَّدًا وحاولَتْ أن تنالَ من التالي، حتى تهاوَتْ عليها السيوف! ففصلَ الأوَّلُ ذراعَها عن جسدِها، ونفذَ الثّاني إلى قلبِها؛ وقبْلَ أن تسقطَ على الأرض، أتى الأخيرُ ليفصلَ رأسَها عن جسدها؛ حقًّا لقد نالت جزاءَها كاملًا الآن!

اقتحمَ الجنودُ تلك الغرفة ليجدوا خلفَ الباب «زرادوستار» واقفًا! لم يكترثْ بقدومهم، ولم يلتفتْ، بل كان منشغلًا بتضميدِ جراحِ أحدِ الجنودِ المُصابينَ إصاباتٍ بالغة. كانت الغرفةُ فسيحةً مليئةً بالأسرّةِ المحمّلةِ بالجرحى وأصحابِ الأطرافِ المبتورة والعيون المفقوءة. ما إن دخلَ الجنودُ إلى حرمِ الغرفة وأصبح «زرادوستار» في مجال رؤيتهم، حتّى تسمَّروا جميعًا، وكأنَّ ملاكَ الموتِ قد أطلَّ عليهم بوجهه، ليقبضَ أرواحَهم، فسلبَهُم القدرةَ على الحركةِ والكلام!

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

اندهشوا وبُهتوا حين شاهدوا «زرادوستار» أمامَهم في وسط الغرفة، منهمكًا في حياكةِ جرحٍ كبيرٍ في صدرِ أحدِ زملائهم في الكتيبة ذاتها! الجنديُّ الذي ظنّوه قُتل في المعركة بعدما تركهم لينسلَّ إلى داخل المعبد. كان هذا الجنديُّ المصابُ مستلقيًا على سريرٍ يفصلُ «زرادوستار» عن كتيبةِ النّار. والغريبُ الذي أثارَ دهشة تلك الكتيبة، أنَّ «زرادوستار» لم يكنْ يكترثُ لحياته التي على أوشكت على نهايتها، بل يهتمُّ لإنقاذ حياة أحد الجنود المعتدين!

وقف المعتدون في أرضهم جامدين، فتجمّدَ الدَّمُ في عروقي من جديد. وهذا العنيد يواصلُ ما يفعلُهُ لإنقاذ المصاب، ويستمرُّ في تمتمةِ تراتيله السَّخيفة! هل يبتعدُ الحلمُ ثانيةٌ بعد أن اقترب إلى هذا الحد؟!! لا! لن أتركَ أحلامي بيدِ الآخرين هذه المرّة! فقد علَّمني القدرُ أنَّ مَن يزرعْ أحلامَهُ وآمالَهُ في أراضي الآخرين لا يجنِ سوى الخيبةِ والخُذلان!

فاخترْتُ أوفرَ الجنودِ نصيبًا من الجشعِ، وأقلَّهم حظًّا من الذّكاء، وكان أيضًا من أشدِّ المبغِضين لـ«زرادوستار»، كونُه من عائلةِ القتيلِ النَّبيل الذي ألصقْنا تهمةَ قتلِهِ بأتباعِ «زرادوستار»، وجلسْتُ على كتفيه أوسوسُ في أذنَيْه:

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

الثّأر...

الدّم...

الشّرف...

الجائزة...

المال...

الآلهة...

النّار...

اللّعنة...

السِّحر...

وما إن أنهيْتُ كلماتي حتّى شعرْتُ بالدّم يغلي في عروقِه؛ وانطلقَ يجري كالمحمومِ متخطِّيًا زملاءَه في الكتيبة، مشهِرًا سيفَه في وجه «زرادوستار»، الذي استمرَّ في عملِه مستسلمًا لقدَرِه، تتحرَّكُ يداه بدقَّةٍ ومهارةٍ وهدوء، لتُداوي جروحَ المريض، فيما شفتاه تتلوان من دون كللٍ تراتيلَ السّماء!

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

وحينما اقتربَ من «زرادوستار» رفعَ سيفَهُ عاليًا وصاح:

القتلُ للقاتل...

القتلُ للكاذب...

القتلُ للملعون...

القتلُ للفاجر...

القتلُ للكافر...

القتلُ للسّاحر...

وهوى بسيفه على وجه «زرادوستار»!

وجوهٌ يكسوها الدّم، وجوهٌ تكويها النّار، وجوهٌ تغمرُها نشوةُ الانتصار!

الآنَ ستُولي «إريانا فيجا» وجهَها عن النّور، ليتَّجهَ صاغرًا إلى النّار!

الآنَ حُسِمت الحربُ وأتَتْ لحظةُ الانتصار!

الآنَ جفّتِ الأقلامُ عن صفحة «زرادوستار»، لتُطوى تلك الصَّفحةُ من

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

تاريخِ الحربِ الأزليّةِ بين الطّين والنار! انطوَتْ عن نبيٍّ كانوا يظنونَه نبيَّ آخرِ الزّمان، وقطعًا لم ينطوِ الزّمان! وستُطوى صفحاتٌ وصفحات، وتبقى النّارُ صامدةً في وجهِ الطّين، لتكتبَ النهايةَ نفسَها على كافّةِ الوجوه، وتكوي وجوهَ الطّينِ بالنّار!

قطعًا سينسون «زرادوستار» ويتذكّرون النار! سيعلو أتباعي منَ السَّحرةِ كهنةِ الـ«ماجو» فوق الجميع من جديد، سيَحْكمون العالم! سيندثِرُ دينُ التّوحيدِ الذي أتى به «زرادوستار»، ويتذكَّرُ النّاس دينًا تُعبَدُ فيه النّار، سدنتُه هم الـ«ماجو»! حتى يصبحَ أتباعُ هذا الدّين المشوَّه جميعُهم من الـ«ماجو»، أو الـ«ماجيك»، أو «المجوس»!

سأفي بوعدي لك أيُّها الخالق ما حييت، حين أقسمْتُ: إنّني لأغوينهم أجمعين!

إن كان الجحيمُ هو مأواي الأخير، فلن أسكنَهُ وحدي. سأجرُّ معي ما استطعْتُ من هذا الطين!

صدقْتَ يا إلهي حين وعدتني بأنّك لتملأنَّ جهنّمَ بي وبأتباعي أجمعين!

سأكونُ هناك، أتباهى بقطيعي وأتباعي، حين تُنادي جهنّم: هل امتلأت؟ وتقول: هل من مَزيد؟

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

الآن عاد المُلْكُ لي من جديد، للمَلِك الوحيد في «إريانا فيجا» وما حولَها!
وسأعمل أن يبقى هذا المُلْكُ في قبضتي ما حييت، إلى أن يأتي اليوم الذي تنادي فيه يا إلهي:

لِمن المُلْكُ اليوم؟

تمّت

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

مصادر

في ما سيأتي بعض المصادر التي استقى الكاتب منها المعلومات، واستند إليها في سرده للأحداث:

١. أحمد، د. الشفيع الماحي: الرسالة ١٦٠، زرادشت والزرادشتية، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية الحادية والعشرون، ٢٠٠١ م.

٢. الجسر، الشيخ نديم: قصة الإيمان: بين الفلسفة والعلم والقرآن، منشورات المكتب الإسلامي، ١٩٦١ م.

٣. الشعراوي، الشيخ محمد متولي: الأدلة المادية على وجود الله، دار أخبار اليوم، ١٩٨٩ م.

٤. عبد الرحمن، د. خليل: أفستا – الكتاب المقدس للديانة الزرادشتية، روافد للثقافة والفنون، ط ٢، ٢٠٠٨ م.

٥. عبد القادر، حامد: زرادشت الحكيم، نبي قدامى الإيرانيين، مركز الإنماء الحضاري، ٢٠٠٦ م.

٦. الموحي، عبد الرزاق رحيم صلال: العبادات في الديانات القديمة المصرية العراقية الرومانية الهندوسية البوذية الصينية الزرادشتية الصابئية، صفحات للدراسات والنشر، ٢٠٠٧ م.

٧. مريقي، د. طارق: الزرادشتية والكونفوشيوسية وعقيدة النبوة عند كلا منهما (كذا)، دورية كان التاريخية - العدد العشرون، يونيو ٢٠١٣ م.، ص ٨٨-٩٦.

٨. محمود، د. مصطفى: رحلتي من الشك الى الإيمان، دار المعارف، ١٩٩٧م.

٩. محمود، د. مصطفى: حوار مع صديقي الملحد، دار المعارف،١٩٨٦م.

١٠. يحيى د. أسامة عدنان: الديانة الزرادشتية ملاحظات وآراء، أشوربانيبال للكتاب، ٢٠١٦ م.

www.samehmabrouk.com facebook page: samehmabroukwriter

زرادوستار

نبيُّ أهلِ النّار

في تلك اللَّحظةِ، حين أغلقَ رئيسُ الحرَسِ البابَ خلفَه، علمْتُ أنَّ هذا الباب لن يُفتحَ على الحياة نفسِها التي تركتُها قبلَ دخولِه. في تلك اللّحظة عشقْتُ حياةَ العبوديَّةِ والرِّق، وتمنَّيْتُ العودةَ لها من جديد، ولو لساعة واحدة! تمنَّيْتُ أن تُبْعَثَ زوجةُ أبي إلى الحياة من جديد، برغم ظُلمِها وكُرهي الشَّديدِ لها؛ وأن أرتميَ في أحضانِ تلك العاهرة ولو للحظة! شعرْتُ أنَّ الهواءَ يتسرَّبُ من الغرفة، وأنّي سأموتُ هنا مختنقةً، لا محالة! لا تسأمُ الحياةُ من كيْلِ اللّكماتِ واللّطماتِ لروحي، الواحدة تلو الأخرى، بل تضاعفُها وتَزيدُ من أذاها!

بدون أيِّ مقدِّمات، طلبَ منّي أحدُ الـ"ماجو" التجرُّدَ من ملابسي بالكامل، والاستلقاء على الطاولة. فانصعْتُ لأوامرِه خاضعةً من دون مقاومة تُذكر، أو حتّى إشارة، لأنَّ العُصيانَ في تلك اللّحظة لن يزيدَ ما تبقّى من الحياةِ إلّا تعاسةً وشقاءً وألمًا. اعتليْتُ الطّاولة بعدما تعرّيْت، كما طلبَ الـ"ماجو"، وحين لامسَها جسدي شعرتُ أنّها مبلَّلة؛ وحين استقرَّ رأسي بمحاذاةِ جسدي على الطاولة شممْتُ رائحةً نفّاذة ومميَّزة. لم يستغرقْ عقلي الكثيرَ من الوقت لأميِّزَ رائحة الدّم! نعم، كانت تلكَ الأشكالُ والكلماتُ المرسومةُ على الطاولة مرسومةً بالدَّمِ الدافئ!

عن الكاتب
سامح مبروك

كاتب وروائي مصري، من مواليد 1981، حاصل على بكالوريوس العلوم، صدرت له رواية "زرادوستاز - نبي أهل النار" دشنت طبعتها الأولى في معرض الشارقة الدولي للكتاب أكتوبر 2020، وتلتها طبعتها الثانية في معرض القاهرة الدولي للكتاب يونيو 2021، ورواية كاتاتونيا -أعراض انسحاب- في أكتوبر 2021، وصدر للكاتب إلكترونيًا مجموعة قصصية باسم ترندات وتوباكو الكتاب الأول في مايو 2022.

صدر للكاتب

سامح مبروك

جميع الحقوق محفوظة © 2022